

العمروسي ، أحمد فهمي .

في التربية والتعليم .

JAFET LIB.

MAR 1978

لهزية المعرفة

في الترتيب في النجلى

تأليف

أحمد فاضل العروشي

مدير معهد التربية سابقاً

[عنيت بطبعه وتصحيحه مجلة المعرفة]

حقوق الطبع والترجمة والتلخيص محفوظة

الطبعة الأولى

١٣٥٢ هـ - ١٩٣٣ م

68792

مطبعة المعرفة

رقم ٤ شارع عبدالعزيز بالقاهرة

الثنى ٤٠ مصرياً

Cat. No. 1949

ثالث

حقوق الطبع والترجمة
والنشر محفوظة

١٥	درستگاه زبان و ادبیات فارسی
١٦	فصل اول در بیان کلیات ادبیات فارسی
١٨	فصل دوم در بیان کلیات ادبیات فارسی
٢٠	فصل سوم در بیان کلیات ادبیات فارسی
٢٢	فصل چهارم در بیان کلیات ادبیات فارسی
٢٤	فصل پنجم در بیان کلیات ادبیات فارسی
٢٦	فصل ششم در بیان کلیات ادبیات فارسی
٢٨	فصل هفتم در بیان کلیات ادبیات فارسی
٣٠	فصل هشتم در بیان کلیات ادبیات فارسی
٣٢	فصل نهم در بیان کلیات ادبیات فارسی
٣٤	فصل دهم در بیان کلیات ادبیات فارسی
٣٦	فصل یازدهم در بیان کلیات ادبیات فارسی
٣٨	فصل بیستم در بیان کلیات ادبیات فارسی

فهرس

الموضوع الصحينة

مقدمة	١٣
أثر الأشغال اليدوية فى التربية والتعليم	١٩
أهمية الرسم فى التربية والتعليم	٢٥
الفنون الجميلة عند العرب	٢٧
التربية والتعليم عند العرب	٣٣
الغرض من التربية والتعليم فى القرن العشرين	٥٩
التربية فى الأسرة	٦٣
- التربية فى انجلترا وموازنتها بالتربية فى فرنسا	٨٥
- التربية فى أمريكا وموازنتها بالتربية فى الأمم اللاتينية	١٣١
- تربية الذوق السليم وأثر الفنون الجميلة فيها	١٨٥
العقل وكيف يتكون	٢٠٩
- علاقة العلم بالأخلاق	٢٣٧
هربارت الألمانى	٢٦٩
أثر نظام الكشف فى التربية والتعليم	٣٠٧
مؤتمر التربية الخلقية الدولى	٣١٣
كلمة شكر	٣١٩

أُمُّ الْمَسَائِلِ فِي مِصْرَ مَسْأَلَةُ التَّرْبِيَةِ وَالنَّعْلِيمِ ،
فَلَوْ أَنَّ كُلَّ مِصْرِيٍّ وَضَعَ فِي تَشْيِيدِهَا لَبْنَةً ،
لَأَقْمْنَا لِلْوَطَنِ صَرْحًا يَبْقَى مَا بَقِيَ الزَّمَانُ .

هذه هي الحكمة البالغة التي كان لي شرف سماعها من حضرة
صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم أحمد فؤاد الأول ، حين تشرفت
بالمثول بين يدي جلالته يوم الأربعاء ١٥ محرم سنة ١٣٥٢ - ١٠ مايو

أحمد فهمي العمروسي

سنة ١٩٣٣ م



مضرة صاحب الجلالة "أحمد فؤاد الأول"

ملك مصر

الى

عنوان مجد مصر الخالدة ، ورمز أمانيتها الصادقة ، ونخر شبابها
الناهض ، حضرة صاحب السمو الملكي الأمير فاروق ، أشرف بإهداء
هذا الكتاب م

أحمد فهمي العمروسي



مضرة صاحب السمو الملكي "الأمر فاروق"
ولي عهد المملكة المصرية

« أيها الطلبة !

اذكروا دائماً رسالة المعلم في الحياة ، تلك الرسالة ستضطلعون
بأعبائها قريباً ، وأنها رسالة روحية لا تؤدي إلا بالإنخلاص في العمل مع
التزود من العلم والتمسك بالفضيلة ، وقدموا عملكم في تربية الناشئة قدره ،
واصعدوا بها إلى ذروة الكمال ، فستقبل الأجيال القادمة في ذمتكم » .

محرر عالمي عيسى

من كلمة بليغة ألقاها معاليه على طلبة مدرسة دار العلوم في يوم ٨ مارس سنة
١٩٣٢ عن مهنة التدريس ورسالة المدرس .



حضرة صاحب المعالي " محمد هلمي عيسى باشا "
وزير المعارف العمومية

إن نجاح التربية والتعليم منوط باختيار مواد الدروس ، واستخدام
خير أساليب التدريس ، والعمل على التوفيق بينها وبين مدارك المتعلمين .
وإن من العبث وإضاعة الوقت والقضاء على جهود المعلمين
والمتعلمين ، أن يقدم إليهم غذاء لا تُطبقه نفوسهم ولا تُسيغه عقولهم .
جاء في الحديث الشريف :

« إنا معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم »
فإلى كل من يتولى شؤون التربية والتعليم - صغيراً كان أم كبيراً -
أوجه كلمتي هذه ، راجياً أن تؤتي التربية أطيب ثمارها ، وأن يصل التعليم
إلى أنبل غاياته ، حتى يتحقق ما نرجوه لمصر من الرفعة والرقى .

المؤلف



حضرة صاحب العزة " احمد فهمى العمروسى بك "

مدير معهد التربية سابقا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

واجب على كل ذي مقالة أن يبتدىء بالحمد قبل
استفتاحها ، كما يبتدىء بالنعمة قبل استحقاقها .

سنة ١٣٠٥ هـ

وبعد ، فإن هذا الكتاب الذى نهديه اليوم إلى قراء « المعرفة »
جزلين فخورين ، لانستطيع إيفاء حقه من التنويه والإطراء ، لأننا إذ
نحاول ذلك إنما نحاول مستحيلاً ، فلا أوجب هنا من الاعتراف
بالعجز ، والإقرار بالتقصير .

إن من الذهاب بالنفس مذاهب الخدعة والغرور ، أن يدعى مثلى
أنه مستطيع تقدمه رجل هو أستاذ أساتذته ومربي مدرسيه ومعاميه
من قبل ، فحسب التاميد الصغير برأ بأستاذه الأكبر إقراره بهذه
الشهادة ، راضياً مغتبطاً .

وحسبه أن يقدم الكتاب بأنه كتاب « العمروسى » وكفى ،
كتاب الرجل الذى لا تردد فى الحكم ، ولا تخرج من القول ، بأنه
مربي الجيل الحاضر ؛ وآية ذلك هؤلاء الأعلام الذين يتصدرون دور
القضاء والسياسة والإدارة ، ويلون شئون التربية والتعليم ، ممن تخرجوا
على يديه ، وتأدبوا بأدبه .

وقديماً قيل «خير الناس أنفعهم للناس»، فلو أردنا أن نستقصى أنفع وجوه الخير، وخير وجوه النفع، ما ترددنا في الحكم بأن خير الناس وأنفعهم، هو ذلك الذي يقيم صرحاً علمياً، ويبنى مجدداً خلقياً؛ ذلك بأن صوت العلم مرتفع أبداً، لا تقف سبيله عند حد؛ ولا ينتهي إلى غاية، وإنما سبيله طلب الكمال، ونشدان القدسية، فإذا وجب له التقديس من جهة الحقائق التي يكشف عنها ويمهد لنا طريقها، فإن تقديس العاملين على رفعته أُلزم وأوجب، لأن العلم وسيلتنا إلى الحياة الكاملة، والرق المنشود؛ وإذا تكون خير وجوه النفع خدمة العلم، وتكون خير يد تستحق الشكر، تلك اليد التي تضع في أسسه دعامة وفي بنائه لبنة.

ثم لا ننسى أن نهضتنا العلمية المصرية لم يكن لها قبل هذا القرن كيان يدل عليها أو يشير إليها، وإنما كانت أشبه ببناء يتداعى، الناس من حوله لا يعيئون، حتى ازدهرت الثقافة؛ وآتى العلم ثماره، فأتاح الله لمصر فئة من أبنائها، نبغت في آخر القرن التاسع عشر، فبعثت نور العلم والعرفان في أرجاء البلد وأذهان أبنائه، وكانت من صفوة هؤلاء النابغين «أحمد فهمي العمروسي» الذي امتاز بين زملائه وأنداده من رجال التربية والتعليم، بأنه كان يساير العصر الحاضر، ويبعث في البلد روح النهضة العلمية الحديثة. وذلك بالتوفيق بين المدينتين العربية والغربية توفيقاً حكيماً، وتوجيه الأفكار توجيهاً علمياً قوياً، يستخلص منه أرقى القواعد وأحدث الأنظمة وأدق الوسائل لتحقيق خطوات النهضة المباركة.

ثم امتاز بين غيره من أولئك الذين قصرت ثقافتهم على الثقافة العربية ، ومن هؤلاء الذين جمعوا بين الثقافتين ، بأنه كان المصرى البليغ الذى يلبس الأسلوب الغربى الثوب العربى المحكم ، بعد إذ يزاوجهما مزوجة لا تحس منها عجمة ولا تستشعر فيها نفرة .

وأنت مستطيع أن تدرك ذلك كله ، وأن تدرك - إلى ذلك أيضاً - مبلغ إخلاص الرجل لعلمه وعمله ، لو وقفت على شئ من سيرته التى نوجزها لك فى هذه السطور بإيجازاً ، وثوقاً من أن خير مرب للمراء وقوفه على ما قدمه رجال الأمة من خدمات لها ، وما ذلوا من صعاب وتغلبوا على عقبات فى سبيل النهوض بها ، هذا إلى ما فى تاريخهم من مثال عال يحتذى ، وقدوة حسنة تقتدى ، فيكون ذلك للنشء مرشداً أميناً ، وقائداً حكيماً .

وفى ذلك يقول الأستاذ العمروسى نفسه : « لا شئ ينفذ إلى قلوب النشء وينمى فيهم الأخلاق العالية والفضائل السامية ، مثل أن يعدل المربى فى حكمه على حوادث بلاده وتاريخ كبار رجال أمته ، وأن يجهر بالحقائق محصاة مجردة من شوائب الهوى وأدناس الغرض ؛ فبذلك وحده تنبت بذور الأنظمة والأخلاق ، وتنمو جذورها فى الأمم » .

فى عام ١٨٨٨ نال الطالب « أحمد فهمى العمروسى » شهادة البكالوريا ، ثم التحق بمدرسة المعلمين التوفيقية ، حتى تخرج فيها أول الناجحين فى الدبلوم عام ١٨٩١ م ، ومن ثم عين مدرساً بالمدرسة ذاتها . وفى عام ١٨٩٤ وقع اختيار وزارة المعارف عليه عضواً لبعثتها لدراسة العلوم الرياضية

والطبيعية في مدرسة (سانكلو) العليا بفرنسا ، فنال شهادتها في عام ١٨٩٧ ، ثم عاد إلى مصر مدرساً للقسم العالي من مدرسة المعلمين التوفيقية ، على أنه لم يقتصر على ما حصل عليه من شهادات علمية ، بل توجهت نفسه إلى دراسة الحقوق ، وما لبث أن أكب على دراستها مبتدئاً من عام ١٩٠١ حتى عام ١٩٠٣ ، حيث حصل على الليسانس في الحقوق من كلية باريس ، وفي عام ١٩٠٤ عرض عليه المرحوم «عبد الخالق ثروت باشا» منصباً رفيعاً في القضاء ، إلا أن وزارة المعارف تمسكت به ، وقد قال في ذلك المعنى في حديث له نشر بمجلة الهلال الغراء في عدد مايو سنة ١٩٣٠ ما يأتي :

«لقد تعلمت أن أكون أميناً على العلم ، صادقاً في صناعة التدريس والتعليم التي أعددت نفسي لها ، وما أزال مغتبطاً بها ، مفضلاً لها على ما عداها . وقد أتاحت لي فرص كثيرة للعمل في القضاء الأهلي وفي الإدارات الكبيرة ، ولكنني لم أسع لها سعيها وإن كثر فيها المال واتسع الرزق ، لأنني وجدت نفسي شغوفة بالتدريس والتعليم ، ووجدته أشرف وأنبّل عمل يقوم به الإنسان لنفع نفسه ونفع أمته .»

وفي سنة ١٩٠٨ اختاره المرحوم سعد زغلول باشا (وقت ذن ناظراً للمعارف العمومية) مفتشاً بالنظارة مع قيامه بأعمال سكرتير في له علاوة على وظيفته المذكورة ، وكان مع هذا يقوم بتدريس التاريخ الطبيعي والكيمياء والطبيعة في مدرستي القضاء الشرعي ودار العلوم ، فأدى ذلك كله خير أداء ، وقد أسف أساتذة دار العلوم في ذلك الوقت لنقله من المدرسة وإن سراً بترقيته ، فكتبوا إليه هذا الكتاب الذي عثر ناعليه في صحيفة



الاستاذ عبد العزيز مصطفى الاسلامبولي
صاحب مجلة « المعرفة »

دارالعلوم (العدد الأول، الصادر بتاريخ ١٦ ابريل سنة ١٩٠٩، ص ٥٠)،
وهذا نصه :

مضرة الفضال

لئن كَانَ للمعروف أثر في امتلاك القلوب ، وللإحسان سبيل إلى استحقاق
الشكر ، لقد كان منك إلينا ما جعل قلوبنا طوع محبتك ، ورهن مودتك ، ومنك
إلى الطلبة ما جعلهم في أعينهم نتائج صنعك ، وصنائع فضلك ، وفي أعين الملاء
صحائف لتخليد الثناء عليك ، ونماذج لأياديك البيضاء في خدمة العلم وأهله ؛
وإننا وإن حرمنا منك شريكاً في الصناعة ، ورفيقاً في حسن العشرة ، لن نعدم منك
عضداً في المهم ، وأهلاً للإفادة ، ولم تفتقل عن الفرع نعمة ذهبت إلى الأصل .
وإن ما خلفته بيننا من آثار خلالك ، وجليل فعالك ، لأحسن ذكرى نأتمن الدهر
على حل عقدها ، فلا نحسب ابتعادك عن أشخاصنا إلا اقتراباً من قلوبنا .

هذا وإن الصحف المجيدة التي أضفتها إلى تاريخ مدرسة المعلمين
الناصرية ، لتحفظ لك أحمد أثر ، وأطيب ذكرى تكوين نهضتها المباركة ، وتشيد
صرحها الثمين ، وضمان سيرها في الطريق التي يتمناها لها كل محب للعلم ونشره ؛
فالمدرسة إذا أسفت لفراقك ، فإن لها بعض السلوة أن كانت في ماضيها بستاناً
لكريم غراسك ، ومجازاً لا ذاعة فضلك ، وتهيئة رقيق ، وأن تكون في مستقبلها
مترقبة لمساعدات عديدة تؤديها إليها في عملك الجديد .

وهي تقدم إليك هذا الخطاب تذكاراً لأعمالك العظيمة فيها ، وإظهاراً لحسن
ولائها لك . هيا الله لك ما ترجوه ، وحفظك لأمتك الفقيرة من أمثالك ، وتقع بك
حيثما حللت ، وأينا يعمت ... والسلام ؟

وفي سنة ١٩٠٩ عين وكيلاً لدارالعلوم ، فابتدأ عمله فيها بإلقاء

محاضرات عامة في التريية والتعليم على جمهور المربين والمدرسين في ذلك
الوقت ، كانت فاتحة لما تلاها من محاضرات في التريية والتعليم كما قال المرحوم
الأستاذ « عاطف باشا بركات » ، والأستاذ « أحمد بك العوامري » كبير
مفتشى اللغة العربية الآن ، الذي قال في نفس صحيفة دارالعلوم عام ١٩٠٩ ، حينما

حذا حذو الأستاذ العمروسي: «لقد كان لسعادة أحمد بك فهمي فضل السبق في طرق باب الخطابة في موضوعات التربية والتعليم، وهما نحن نحذو حذوه» ثم عين ناظراً لمدرستي المحاسبة والتجارة العليا والمتوسطة، ففتشاً للبعثة العامة المصرية في فرنسا، فمديراً لها فيما بعد، فعضواً في مجلس النواب الأول، ثم أعيد للخدمة فكان مديراً للمكتب الفني، فناظراً لمدرسة المعلمين العليا العامة والأدبية، ثم مديراً لمعهد التربية.

وبعد فاني لسعيد أن يكون هذا الإيجاز الذي قدمته لحياة الرجل خير مرشد للقارئ، وأنصع برهان فيما تتقدم به إلى قراء «المعرفة» من عمل، أقل ما يوصف به أنه لم يسبق إليه في نوعه لرجل لم يضع حياته هباءً، ولم يخلد إلى الراحة والسكون، بل دأب طوال حياته عاملاً على خدمة العلم ورفعة الوطن.

فالله وحده كفيل بأن يجزيه عن عمله هذا خير الجزاء، والله نسأل أن يكثر من أمثاله العاملين في سبيل العلم والوطن. إنه وحده بتحقيق الرجاء كفيل

عبد العزيز الإسلامبولي

في بيان أهمية

أثر الإسهال اليموية في التربية والتعليم

أثر الأشغال اليدوية في التربية والتعليم*

حضرة صاحب المعالي وزير المعارف ! أيها السيدات والسادة :
أرجو أن تسمحوا لي بأن أقدم لحضراتكم الشكر الخالص
لتفضلكم بالحضور لمشاهدة منتجات بعض طلاب هذه المدرسة في
الأعمال اليدوية هذا العام .

إن الذي دعانا لإقامة هذا المعرض هو التنويه بفن الأشغال اليدوية
والإشادة بالمزايا الجليلة التي تعود منه على التربية من جميع نواحيها .
فأثر الأشغال اليدوية في نمو الجسم وتحسين الصحة - أعني في التربية
البدنية - واضح لا يحتاج إلى شرح .

وكذلك الحال في التربية العقلية، فإنها تثبت في النابتة روح الملاحظة
والتأمل الدقيق، وتحفزهم إلى الاستنباط والابتكار .

وأما في التربية الخلقية، فإنها تغرس في نفوس النشء بذور الفضائل
التي يجب أن تتوافر في كل فرد يريد الفوز في معترك الحياة، وهي الأمانة
والصبر والثبات والإرادة والتنفيذ .

كذلك في التربية الذوقية أو الجمالية، فإن للأشغال اليدوية دخلاً في
إنماء سلامة الذوق وإدراك الجمال في كثير من نواحيه .

* أُلقيت هذه الكلمة بمحاضرة المعلمين العليا يوم ١٦ أبريل ١٩٣٠، بمناسبة افتتاح
معرض الأشغال اليدوية لطلبة تلك المدرسة .

وقد عني «الفنانون» في البلاد الراقية بتصوير علاقة العمل بتهديب الأخلق؛ أذكر من بينهم (هوجارت) الفنان الانجليزى، فإنه رسم لوحة شهيرة في المتاحف بعنوان الجد والحول،^(١) صور فيها عاملين: أحدهما فى نشيط حسن الهيئة مجتهد مقتصد، والآخر خامل كسول ملقى فى أحضان البطالة مستسلم لغوايات الفراغ.

وإن لدرس الأعمال اليدوية ميزة لا توجد فى غيره من الدروس فى مدارسنا؛ ذلك أنه الدرس الوحيد الذى يسترد الطلبة فيه شيئاً من الحرية فى العمل والاستقلال فى الفكر، ويتحررون من نير الكتب واستعباد المذكرات المهيأة الجاهزة، التى كثيراً ما تنفى عزهم عن البحث والدرس والاستقصاء، وقد يستغنون بها حتى عن سماع الدروس ذاتها. وإذا فأن هى التربية الاستقلالية التى ننشدها لبنائنا، والتى تحتم علينا أخذهم بالثقة بالنفس، والاعتداد بالذات، والاعتماد على الجهود الشخصية؟

إن العلم الصحيح الحى الطريف ليس فى الكتب ولا فى المذكرات، وإنما هو فى الحياة نفسها، وفى التجربة والمعالجة؛ أما ذلك العلم المعبد المذل الذى يصب فى الأذهان قسراً، ويحشر فيها حشراً، دون أن يكون للطالب فيه أثر - اللهم إلا الاستماع إن صح أنه أثر - فعلم عقيم لا يتقن العقول، ولا يهذب النفوس، ولا يعد للمغامرة فى الحياة، على أنه علم قلق لا يستقر فى الأذهان إلا ريثما ينقضى الامتحان.

(1) The Effect of Industry and Ideeness

إن الكتب مفيدة إذا جاءت متممة عمل الشخص نفسه للمراجعة والتحقيق والاستزادة ، أما هي وحدها فلا طائل تحتها ولا خير فيها .

يقول مستر بلاكي الأستاذ بجامعة أدنبرة في هذا الصدد :

« إن مثل من يعتقد أن الكتب هي كل شيء في التعليم ، مثل من يعتقد أن الماء هو كل شيء في الزراعة ، وماذا يغني الماء إذا نزل بأرض لم يشقها محراث ولم تقلبها فأس ؟ »

أقول ذلك عن الكتب ، وأقوله عن تجربة ويقين بعد خبرتي الطويلة بشئون التربية والتعليم والسياحات العديدة التي قمت بها في السنوات الأخيرة في بلاد المغرب الأقصى والجزائر والشام وفلسطين وغيرها ؛ فإنني رأيت فرقاً هائلاً بين ما علمته عن هذه البلاد بالمشاهدة والملازمة ، وبين ما كان عالماً بذهنى عنها من كتب الجغرافيا ومصوراتها ومذكراتها ، وعلمت من ذلك الحين أن لا شيء أجدى على التربية والتعليم من استخدام الحواس - كلها أو جلها - لتوصيل المعلومات إلى الذهن وتغلغلها في النفس .

لذلك أود من صميم الفؤاد لو يتمتع الطلبة في سائر الدروس بمثل ما يتمتعون به في دروس الأعمال اليدوية من حرية في التفكير ، واستقلال في العمل ، وبذل منتهى الجهد في استخدام كل ما أوتوا من قوى ومواهب وملكات ومنطق وحقق لإبراز المعاني المجردة في أشكال محسوسة شائعة . وقد وصلت إلى هذه الغاية السامية بالفعل الأمم التي تقدمتاني مضمار التربية والتعليم ، ولا سيما أمريكا فقد أنشأت لكل مادة متحفاً ، حتى

« الإِ نْشاء » فإنه خرج عندهم من عالم الخيال البحت إلى عالم المحسات والحقائق، وقد فكرت وزارة المعارف من بضع سنوات في احتذاء هذه الأم الراقية، وخطت في اليدويات خطوة مباركة، نرجو أن تتلوها خطوات واسعة حتى تتبوأ المكان اللائق بها في مدارسنا على اختلاف درجاتها. ^(١)

(١) أذكر أنى كنت منذ ثلاث سنوات عضواً في لجنة شكلت بوزارة المعارف لتنقيح مناهج التعليم الأولى، فاقترحت على اللجنة إدخال الأعمال اليدوية ضمن مقررات ذلك التعليم، لا اعتقادي الراسخ أنها المادة التي توافق طبيعة الأطفال وحاجتهم إلى النشاط والحركة، والتي تحفزهم إلى النظر والتأمل والمراقبة مما له جليل الأثر في تربية الحواس وترقية المشاعر، على أنها تمرينات هندسية عملية تقرب إلى أذهانهم - في أشكال محسوسة ملموسة - تصور هندسة البعد الواحد في الأطوال، والبعدين في المساحات، والثلاثة في الأحجام. فلم يكن للأعضاء من اعتراض على اقتراحى سوى أن تحقيقه يستدعى نفقات باهظة لا قبل خزانة الدولة بها.

فأردت أن أقف على مقدار تلك النفقات بالضبط، فكلفتنى اللجنة إجراء مايلزم من التجارب في بعض المدارس الإلزامية للوصول إلى ذلك الغرض، فاخترت مدرسا من كبار مدرسى مادة الأعمال اليدوية، هو حضرة محمد شفيق أفندى الجنيدى مدرس الأشغال اليدوية بمعهد التربية، وقام بتدريس تلك المادة شهوراً تحت إشرافى، فوصلنا إلى نتيجة مذهشة، هى أن تدريس تلك المادة لا يكلف خزانة الدولة أكثر من جنيهين في العام لكل مدرسة من تلك المدارس بما في ذلك الأصناف المستهلكة المستديمة.

فاذا كانت لدى أمنية أتوجه بها إلى حضرة صاحب المعالي «محمد حلمى عيسى باشا» وزير المعارف العمومية، فهى إدخال الأشغال اليدوية ضمن مواد التعليم الإلزامى منذ اليوم، ولى عظيم الرجاء فى أن يعير أمنيى هذه ماهى جديرة به من العناية والاعتبار.

أهمية الرسم في التربية والتعليم*

الدعامة الكبرى التي يقوم عليها صرح التربية والتعليم الآن في أرقى دول العالم مدنية وحضارة، هي المشاهدة وإنعام النظر في صفحة هذا الكون، وإدراك ما فيها من ألغاز وأسرار وجمال؛ ولا حاسة أصدق من حاسة الإبصار في إيصال معلومات هذا الكون إلى المخ وانطباعها في الذهن وتغلغل معانيها في النفس، فهي الحاسة التي تربي في النشء ملكات الملاحظة والاستنباط والابتكار، إذا أخذناهم من الصغر بالنظر الدقيق العميق إلى الأشياء والحكم عليها حكماً صحيحاً، وهي التي تنقل مناظر الطبيعة الجميلة إلى المخ فتبعث فينا غبطة ومسرة، حاجة النفوس إليهما لا تقل عن حاجتها إلى الطعام والشراب؛ لأن في الفرح والسرور قوة تنشيط الإنسان وتحبيب إليه العمل وتخفيف عنه عبء الحياة.

وإذا كانت المناظر الطبيعية الجميلة تحدث في النفس ذلك الفعل البالغ، فإن لرسمها وتصويرها فعلاً أعظم وأبلغ، إذ ينبعث منهما ما يشعر بعظمة الإنسان ومقدرته على محاكاة الطبيعة وتقليدها في كلياتها وجزئياتها؛ فالثور وهو واقف على الأرض ثور وثور فقط، أما على الورق فهو فن وفن جميل.

وفوق ذلك قد تتجمل الطبيعة بالرسم، فقد يكون المنظر الطبيعي منظرًا تستوحش منه العين وتنفر منه النفس، فإذا ما تناولته يد صانع، (*) أُلقيت هذه الكلمة في الحفلة التي أقامها قسم الخدمة العامة بالجامعة الأمريكية يوم الأربعاء ١٨ فبراير سنة ١٩٣٠ لتوزيع الجوائز على المتفوقين في مسابقة الرسوم الرمزية للعناية بالعين، وقد نشرت بـمجريدة الأهرام بتاريخ ٢٢ فبراير ١٩٣٠.

أخرجت منه صورة تسترعى العين وتستوقف التأمل ؛ فالثعبان تسر النفوس بصورته وتستوحش من رؤيته .

والرسم أساس الفنون الجميلة على اختلاف أنواعها ، فألم شىء فى عمارة البيت رسمه على الورق أولاً ، ورؤية صورته من جميع نواحيه ظلاً ومنظراً ، وما يقال عن العمارة يقال عن التصوير والنقش والنحت ... الخ لهذا وذلك كان للرسم فى تربية الذوق ميزة كبيرة وأهمية عظيمة ، وإنه لجدير عن يديم التأمل فى الطبيعة ونماذج الرسوم الجميلة ، أن يكتسب ملكة الحكم على الجمال وقوة الشعور بالحسن ؛ وما أحسن ما قاله الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده رحمه الله : « الرسم شعر صامت ، كما أن الشعر رسم ناطق » . ويجدر بى أن أذكر لحضراتكم تلك الحكاية الطريفة التى جاءت فى القصص اليونانية القديمة عن نشأة الرسم والحاجة لاختراعه ؛ ذلك أن (بوتاد) اليونانى كانت له ابنة عزيزة عليه ، قد شغفت حباً بشاب من قومها ، وبعد فترة من الزمن اضطر إلى السفر ، فشق على الفتاة غياب حبيبها عنها ، فأخذت تفكر فيما تصنع وتحتال فى الوصول إلى ما يحفظ صورته لديها للائتناس بها مدة غيابه ، فرأته يوماً نائماً وظل وجهه ساقط على جدار قريب منه ، فهضت وخططت هذا الظل على الجدار ، ولما جاء أبوها أعجب بهذه الفكرة ، ورأى أن يجعله بارزاً ففعل ، فكان (بوتاد) وابنته أول من اخترع الرسم العادى والبارز .

وإنى لغتبط بالنتيجة الباهرة التى حصلت عليها مدرسة « المعلمين العليا الادبية » فى هذه المسابقة التى ابتكرها قسم الخدمة العامة بالجامعة الأمريكية .



مشكاة من زجاج مموه بالمينا، على رقبتها آية النور « الله نور السموات والأرض،
 مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب دري».
 وعلى بدنها كتابة نسخية منقوشة بين زخارف نباتية يضاء، وهذه الكتابة تتضمن
 اسم السلطان الملك الناصر حسن وبعض ألقابه (٧٦٤ هـ — ١٣٦٣ م)

كتاب بحال الهند قديمه ان منفا

الفنون الجميلة عند العرب

الفنون الجميلة عند العرب *

عقد المؤرخ الفرنسى (المسيو لوركيه) مقالا مسهباً فى وصف مدينة العرب فى كتابه الحديث « الفن والتاريخ » ^(١) لا أريد أن أزيد كثيراً على ما جاء فيه ، وها هو ذا ملخصاً :

إن العرب قبل الإسلام كانوا على هامش الدنيا وفى خارج منطقة المدن ، راضين من عيشتهم بأيسر الطعام وأهون اللباس ، ضاربين خيامهم حيث يختارون ، يقيمون ما طاب المقام ، ويرتحلون ما حسنت الرحلة ، ولم يكونوا ليشغلوا بغير حروبهم الداخلية الطاحنة لكلمة تبدر أو هفوة تصدر ، بل كانوا يتغنون بأعمال فروسياتهم وبطولتهم ، فى نظم رائع ، وشعر ساحر ، يتدفق حكماً بالغة ، ويفيض أمثالا سائرة ؛ وهى عيشة - على قصورها - تتم عن روح مشتعلة ، وفكرة وقادة ، وبأس شديد ، وحماسة نادرة ، وبيان خلاب ، وتنبؤ بأوجز عبارة عن أنهم كانوا أمة حرب وشعر .

وما كاد ينبجج فجر الإسلام حتى هبوا إلى الوحدة سراعاً تلبية لنداء النبي الأسمى الذى ألف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمة الله إخواناً . فلا غرو أن انتقلوا من البداوة إلى الحضارة فجأة ، ووضعوا قدمهم

* ألقى هذه المحاضرة على ملاء من كبار رجال التعليم بمؤتمر التعليم الأول المنعقد فى يوليو سنة ١٩٢٥ بمدينة القاهرة .



وجهة دولاب من خشب جمعية مطعم بالسنة والصدف، ومكفت بأسلاك من الذهب، وهو أعجوبة من
عجائب الفن الاسلامي منقطع النظير في العالم، ويرجع عهده إلى القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)
[من مجموعة متحف العروسي بك بداره بمصر الجديدة]



في تاريخ الإنسانية ثابتة ، وغيروا معالم الدنيا ، وحولوا وجهة التاريخ إليهم ، فكانوا ملوك الأمم وقادة الشعوب وورثة الأرض بما ارتجلوا من دولة مترامية الأطراف شاسعة الأكناف تمتد من نهر السند إلى المحيط الأطلانطي ، ومن زنجبار إلى قلب فرنسا ؛ وتلك دولة وسعت نحو نصف الدنيا القديمة ، حتى حُقْ لهُرون الرشيد أن يقول لسحابة توقع أن تمطر بساحته ، ولكنها تولت قبل أن تمطر : « أمطري حيث شئت يأتني خراجك » .

ورث العرب - فيما ورثوا عن الأمم التي دخلت في حوزتهم - الفنون والصناعات ، وقد أخذوا يحذقونها ويبرعون فيها في مدارس المورثين ، لأنه لم يكن في استطاعتهم أن يرتجلوا فناً كما ارتجلوا لهم ملكاً ، ومع ذلك لم يمض الصدر الأول حتى نبغ منهم البناءون والحفارون والمصورون والنقاشون ، دون أن يروا في شيء من ذلك مخالفة لنصوص كتابهم ، أو معارضة لشريعة نبيهم ، ولم يقفوا عند حد الحذق والبراعة ، بل تعدوه إلى التفنن والإبداع ، فنقحوا وصححوا ، وحذفوا وأضافوا ، ثم اخترعوا وابتكروا ، حتى طبعوا تلك الفنون بالطابع العربي ، وصبغوها بالصبغة الإسلامية ، حرصاً على شخصيتهم أن تقي ، وعلى نبوغهم وعبقريتهم أن يذهباً ، فأصبحت الروح العربية حيث تكون بارزة واضحة ، يندمج فيها غيرها ، ولا تندمج في شيء ؛ ولهذا خلقت لنفسها فناً يوافق ذوقها ويتمشى مع طبعها ، وسرعان ما انتشر في أرجاء تلك المملكة الواسعة انتشار الكهرباء .

نعم قد خضعت الفنون الإسلامية إلى حد ما - لنواميس الطبيعة المحلية، فاصطبغت في كل قطر بصبغته الخاصة، ولكنها كانت في كل أحوالها - من أندلس ومغربى وصقلى ومصرى وسورى وعراقى وفارسى وهندى ومغولى - إسلامية أصيلة كريمة نبيلة، تنطق بما للإسلام من إباء ونجدة وشهامة ونخوة.

ولقد برع العرب في سائر ضروب الصناعات، فشادوا البنيان الفخم من مواد أتقنوا صناعتها؛ كاللجر والرغام المحفور أو المنقوش والخشب المنجور، وزوقوا باطن أبنيتهم بالرسوم والصور الشائقة، وكفتوا النحاس الذى أدخلوه في أبواب دورهم وقصورهم ومساجدهم بالفضة والذهب، وموهوا أدواتهم وأوانيهم الزجاجية والخزفية بالميناء، ولبسوا بالأحجار الكريمة والعاج نفائسهم وزخارفهم.

وإني أورد هنا قصة أقبلها عن المقرئى للاستدلال بها على شغف القوم بفن التصوير وقتئذ ومبلغ عنايتهم بالمصورين، حتى دؤن بعض المؤرخين أسماءهم في كتاب خاص أسماه «ضوء النبراس وأنس الجلاس في أخبار المزوقين من الناس»^(١)

قال المقرئى: «كان البازورى سيد الوزراء الحسن بن على ابن عبد الرحمن أحد وزراء الفاطميين، مشغوفاً بالنظر إلى الصور والكتب المزوقة، ولوعاً بالتحريض بين المصورين وإغراء بعضهم ببعض؛ وقد حدث مرة أن استدعى ابن عزيز المصور العراقى لمنافسة المصور المصرى (١) وإنى لشديد الأسف، لأن هذا الكتاب لم يقف له أحد على أثره في مكتبات الشرق والغرب، على ما نعلم.

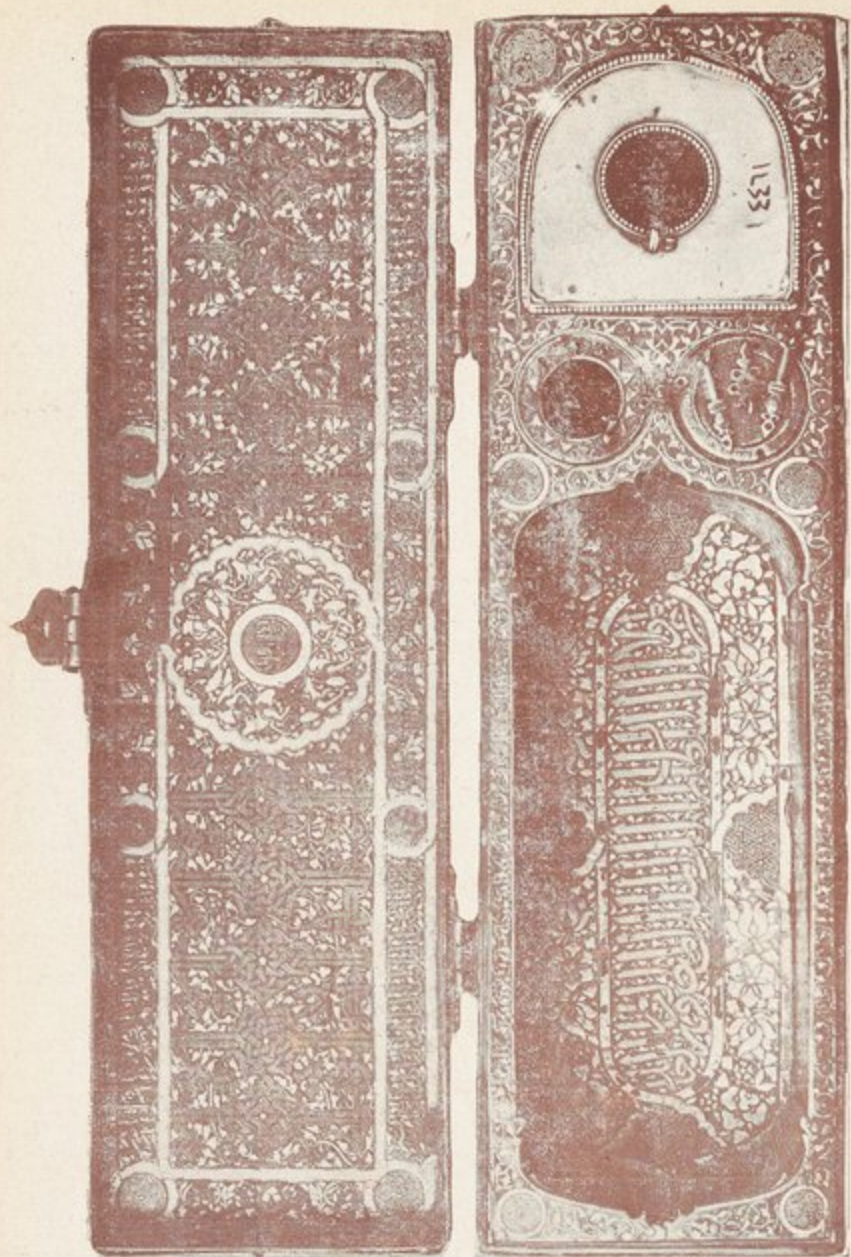
المعروف بالقصير، لأنه كان يشتط في أجرته ، فلما أحضر الاثنين في مجلسه قال ابن عزيز : « أنا أصور صورة إذا رآها الناظر ظن أنها خارجة من الحائط » ، وقال القصير : « ولكني أصورها فإذا نظرها الناظر ظن أنها داخلية في الحائط » ، فقال الوزير : « هذا أعجب » وأمرها أن يصنعما وعدا به ، فصورا صورتى راقصتين في حنيتين مدهوتين متقابلتين ، هذه ترى كأنها داخلية في الحائط ، وتلك ترى كأنها خارجة منه . صور القصير الراقصة بثياب بيض ، وقد دهن الحنيتة بالسواد ، فكانت كأنها داخلية فيها ، وصورها ابن عزيز بثياب حمر ، وقد جعل الحنية صفراء ، فكانت كأنها خارجة منها ، فاستحسن البازورى ذلك منهما وخلع عليهما ووهب لهما كثيراً من الذهب .

وأما مصنوعات الخزف ، فإننا نقتطف هنا بعض جمل عنها من المحاضرة التى ألقاها حضرة الأستاذ المرحوم على بهج بك مدير دار الآثار العربية . وكان مندوباً للحكومة المصرية فى مؤتمر تاريخ الفنون الجميلة الدولى العام ، الذى انعقد فى شهر سبتمبر سنة ١٩٢٢ بمدينة باريس . عن نتيجة عمليات الحفر فى أطلال القسطنطينية ، وخصوصاً ما كان منها ذا علاقة بالأبنية وزخرفها والمصنوعات الخزفية وطلائها . قال بعد كلام طويل : « وجدنا من بقايا مصنوعات الخزف على الخصوص عدداً عظيماً جداً دخل منها فى دار الآثار العربية من القطع النفيسة ما أفردنا له قاعتين ، وكان الموجود من ذلك لا يتجاوز مائة قطعة قبل الحفر ، أما الآن فلا يقل عن خمسة آلاف قطعة ، وفى وسعنا أن نقول إننا نملك

الآن مجموعة لا تقوم ؛ بل لا مثيل لها في العالم ، حتى إنني رأيت من الضروري أن أجعلها موضوع بحث مستقل ؛ فوضعت له مؤلفاً في مائة صفحة ، تتبعه ألواح عددها مائة وخمسون .

ومما هو حري بالذكر هنا أن العرب راعوا في كل هذه الزخارف الروح الدينية الناطقة ، وأن نضرة الدنيا وزخرفها وبهجتها وزينتها صائرة إلى الزوال ، وأن الجمال الباقي والنعيم المقيم اخلد إنما هو في الدار الآخرة ؛ وذلك بما استعملوه في النقوش والتراويق من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، والأشعار الناطقة بهذا المعنى ، الأمر الذي جعل الفن يسير الدين جنباً إلى جنب ، حتى قال علماء الفرنجة إنهم لم يروا ديناً ائتلف مع الفنون ائتلاف الدين الإسلامي معها ، فكان شعارهم في فنونهم هذه كما قال شاعرهم :

تأمل سطور الكائنات فإنها من الملاء الأعلى إليك رسائل
وقد خط في لوح الوجود راعها ألا كل شيء ما خلا الله باطل
ولعل هذا ، وما رسخ في نفوسهم من كراهة التماثيل التي تأصلت عندهم منذ الانتقال من عبادة الأصنام والأحجار إلى عبادة الله الحق ، كان الصارف لهم عن عمل التماثيل ونحت الأحجار ، وعلى الأخص ما كان كاملاً من إنسان وحيوان ، ومع ذلك فقد قال أحد المؤرخين الفرنسيين ، وقد قال حقاً : « إن هذا لم يضرهم شيئاً ، فقد كان عندهم من حسن البيان ودقة الوصف ما يغني عن إقامة هذه التماثيل ، بل كانوا يصورون في اللفظ ما لعله يخفي في المشاهدة » .



مقامة من نحاس مطعم بالذهب والفضة ، ومزينة بزخارف نباتية وهندسية
 موزعة توزيعاً منتظماً ، وعليها كتابات نسخية دقيقة ، وأخرى كوفية يتخللها
 فروع نباتية . وهي أجمل مقامة إسلامية في العالم ، وقد صنعت برسم السلطان
 الملك المنصور محمد المتوفى سنة ٧٦٤ هـ - ١٣٦٣ م

التربية والتعليم عند العرب

المرية والتعليم عند العرب (*)

نمبر

لعل من الخير أن أذكر للقارئ أن الباعث الذي حداني إلى التفكير في إلقاء هذه المحاضرة، إنما جاء إثر رحلة جميلة قمت بها سنة ١٩٢٨ في جزيرة « رودس » عروس البحر الأبيض المتوسط .

ولما كان من عادتي التوجه إلى البلد الذي به نشأت، وفيه ترعرعت، عقب كل رحلة قمت بها خارج الوطن العزيز، فقد قصدت إلى « عمروس » مسقط رأسي، ومستقر شبابي، كيف لا وهي :

بلاد بها حل الشباب قماحي

وأول أرض مس جلدى تراها

وبينما أنا جالس ذات يوم على حافة جدول تحت دوحة وارفة الظلال، أجيل الطرف في جمال الطبيعة، وأملأ النفس من روعة جلالها، مع طالب في دار العلوم - هو ابن أخي عبد الحميد العمروسي - فسألته: ألك في مدارسك كتاب تصغي قلوبنا عنده إلى حكمة بالغة، أو فكرة صائبة، واجو منعش أو المسكان يهتف بالمطالعة، ويثير الشوق إلى الحقائق العلمية، ويهيب بالنفس إلى العمل بعد الدعة والاستجمام؟

(*) ألقى هذه المحاضرة بقاعة الجمعية الجغرافية الملكية في شتاء عام ١٩٢٩، ونشرت في مجلة « المعرفة » ج ١، ٣، ٢

فما كان أسرع صاحبي إلى داره حيث أحضر كتاب (أدب الدنيا والدين)^(١) وناولني إياه .

وكتاب أدب الدنيا والدين هذا مختار للمطالعة في المدارس الثانوية والعالية، لأنه سفر قيم هاد للتي هي أقوم من الأدب والدين ومكارم الأخلاق .

تصفحت فهرس الكتاب فاسترعى نظري بابان، أولهما: وسأذكر طرفاً مما يتأدب به المتعلم ويكون عليه العالم، وثانيهما: فأول ما يكون عليه العلماء من الأخلاق ... الخ .

أخذتهما بقوة وعزم، ورويت فيهما الفكر، ووازنت بين أهم أصول التربية والتعليم عند العرب في ذلك الوقت، وبين ما تقوم عليه تلك الأصول في الأمم الحديثة المتمدينة؛ وما كان أشد دهشتي وأعظم إعجابي حينما رأيت تقارب العقليتين وتماثل الفكرتين: ففكرة علماء التربية الحديثة، وفكرة علماء العرب من قبل نيف وثمانية قرون، في أهم أصول التربية والتعليم.

ذكر المؤلف - رحمه الله - في الفصل الأول طرفاً من أهم الصفات التي يجب أن يتحلى بها كل من المتعلم والعالم، والروابط التي يجب أن

(١) صاحب كتاب « أدب الدنيا والدين » هو الإمام أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري المعروف بالماوردي، توفي ببغداد سنة ٤٥٠ هـ، وقد ترجم كتابه إلى اللغة الفرنسية حديثاً.

تجمع بينهما حتى تنتج التربية أثرها النافع ، ويؤتي التعليم أصيب الثمار .
وسنقصر الكلام على ثلاث منها ، ونشفعها بخاتمة وجيزة عن
الغاية من التربية والتعليم في القرن العشرين :

الطرفة الأولى :

« اعلم أن للمتعلم في زمان تعلمه ملقاً وتذلاً ، إن استعملها غم ، وإن
تركها حرم ؛ لأن الملق للعالم يظهر مكنون علمه ، والتذلل له سبب
لإدامة صبره ، وبإظهار مكنونه تكون الفائدة ، وباستدامة صبره
يكون الإكثار ؛ وقد روى معاذ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه
قال : ليس من أخلاق المؤمن الملق إلا في طلب العلم » .

أقول : والملق في اللغة : التحجب ، والتودد ، واللفظ الشديد ،
وتملقه وتملق له ، تطف إليه ، وأن تعطى باللسان ما ليس في القلب .
وليس من شك في أن أول واجب على المتعلم : التودد إلى معلمه ،
والتقرب منه ، واغتنام الفرص لإظهار ما يكتنه له من الحب والإعظام ؛
فاذا قام المتعلم بهذا الواجب ، لم يلبث المعلم أن يدنيه منه ، ويغدق عليه
من علمه ونصائحه وعطفه ما يضمن له الفوز والنجاح .

وقد كان المتقدمون يجلون المربين وينزلونهم أسمى المنازل ،
ويرون لأولى العلم درجة دونها درجات الملوك وحمة التيجان ؛ وفي
الحديث الشريف « وقروا من تتعلمون منه ، ووقروا من تعلمونه » ،
وروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : « لا يقام لأحد إلا لذي علم
أو لذي سن أو لذي سلطان » .

وقيل : إنه لما وقعت الفتنة بالبصرة في عصر بني أمية سنة ١٠١ هـ ، ورضى الناس بالحسن البصري أن يكون حكماً ، اجتمعوا عليه وبعثوا إليه ، فلما أقبل قاموا جميعاً إجلالاً له ، فقال يزيد بن المهلب : كاد العلماء يكونون أرباباً ، أما ترون هذا المولى كيف قام له سادات العرب ! أما إذا بنى صرح التربية على غير هذا الأساس - وهو إعظام المتعلم للمعلم ، والحب المتبادل بينهما - كان التعليم عقيماً لا يؤتي ثمرأً ، ولا يجنى الناس منه خيراً ، وهذا ما حدا الفيلسوف الفرنسي (ديدرو) إلى الانقطاع عن تعليم أحد أبناء الأصدقاء ، فلما قيل له في ذلك قال : ماذا تريدون أن أعلمه وهو لا يحبني ؟^(١)

ومن قول الإمام الماوردي - مؤلف كتاب (أدب الدنيا والدين) - في هذا الصدد : « ومن آدابهم (آداب المعلمين) ألا يعنفوا متعلماً ولا يحقروا ناشئاً ، ولا يستصغروا مبتدئاً ، فإن ذلك أدعى إليهم ، وأعطف عليهم ، وأحث على الرغبة في ما لديهم » .

ومما يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله : « علموا ولا تعنفوا ، فإن المعلم خير من المعنف » .

ومن آراء الإمام الغزالي في تربية الطفل وتأديبه : الاقتصاد في لومه وتعنيفه عند وقوع الذنوب ، وفي ذلك يقول في كتاب (إحياء علوم الدين) :

(1) Que voulez-vous que je lui apprenne ? Il ne m'aime pas.

« ولا تكثروا القول عليه بالعتاب في كل حين، فإن ذلك يهون عليه سماع الملامة، وركوب القبائح، ويخفف وقع الكلام في نفسه ». ومن آرائه « أن يزجر المتعلم عن سوء الخلق بطريق التعريض لا التصريح، وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ، فإن التصريح يهتك حجاب الهيبة، ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف، ويهيج الحرص على الإصرار ».

ويقول إمام المؤرخين وعمدة المربين، فيلسوف عصره الإمام ابن خلدون: « من كان مرباه بالعسف والقهر - من المتعالمين أو المماليك أو الخدم - سطا به القهر، وضيق على النفس في انبساطها، وذهب بنشاطها، ودعا إلى الكسل، وحمل على الكذب والخبث، خوفاً من انبساط الأيدي بالقهر عليه ».

ولقد كننا - ونحن طلاب علم - نستثقل العلم الذي يدرسه معلم لانحس من أنفسنا مودة له، وتنصرف عنه، ونحب العلم الذي يدرسه معلم نحبه ونميل إليه، لعجزنا - في هذه السن - عن التفرقة بين شخص المدرس وبين المادة التي يدرسها.

وكنا - ونحن حديثو عهد بمهنة التدريس - ندخل بعض الفصول منشرحى الصدور، طيبي النفوس، على حين ندخل فصولاً منقبضين متبرمين؛ ولم يكن لذلك من سبب سوى وجود روابط الألفة والمودة بيننا وبين المعلم في الحال الأولى، وعدم توافرها في الثانية؛ ولكنا لم نلبث - بالمرانة والمراس - أن ذللنا هذه الصعاب، وأرشدتنا التجربة

إلى أن المعلم إذا أوتي كفاية علمية ، وسجاجة خلقية ، ثم ألم بطبائع
النشء وتعرف ميولهم ، وتببع غرائزهم ونحائزهم ، لا أفراداً ووحداً
فحسب ، بل جماعات وزرافات ^(١) ، وجمع إلى ذلك حسن التصرف ولباقة التأدية
والحكمة والحزم ، أمكنه أن يذل كل هذه الصعاب ، وأن يستحوذ على
الأفئدة ، فيوجه المتعلمين إلى كرائم الفضائل ، ويسلك بهم سبيل
الكمال .

وعلى المعلمين أن يعنوا كل العناية بتكميل مانقص من علمهم ،
وتوسيع نطاق معارفهم ، والتماس خير الوسائل لحسن تفهيمها لتلاميذهم ،
وإسداء النصيح لهم في كل مايتعلق بشئونهم ، وعليهم أن يكونوا - كما
أسلفنا - ذوي خبرة بطب النفوس ودوائها ، وعلاج الطبائع وشفائها .
وخير المدرسين من كانت صلته بالتلاميذ ناشئة عن محبتهم له ،
وإجلالهم إياه ، وشعورهم بعظيم فأدته ، وعن عطفه هو عليهم ، وتحريره
إفادتهم .

(١) لأن كل فصل من فصول المدرسة في الحقيقة مجتمع صغير ، له تفكير
خاص وروح خاص يختلفان عنهما في كل فرد من أفرادها على حدته ، (والذي
ابتدع هذه الفكرة الجديدة - فكرة نفسية الجماهير أو روح الجماعات - هو
الدكتور جوستاف لوبون صاحب كتاب « مدنية العرب ») .
وعلم نفس الجماعات هذا - وإن كان لا يزال في طور الطفولة - إلا أنه خطأ
خطوات في بضع السنوات الأخيرة ، ووضع قواعد من الأهمية بمكان للمدرسين
في معالجتهم أحوال الطلبة ، وللآباء في تصرفاتهم مع أبنائهم ، ولكل من يتولى
شئون الناس في أمر جليل أو غير جليل .

أما ذلك المعلم الذى يظن تلاميذه أعداءاً ما من صداقتهم بد ،
والذى لا تربطهم به إلا صلة هى خليط من الخوف والبغض ، والذى يرى
أن التدريس عمل رسمى جاف ، ووظيفة يؤديها لينال أجرها ، غير شاعر
بالتبعة الملقاة على عاتقه ، ولا آبه بالناحية الأدبية فى أحوال الطلبة
وأخلاقهم ، فيبهات أن يعود عمله بغير الضرر البالغ ، والعاقبة الوخيمة ؛
فما كانت القسوة على المتعلمين ، ولا بث روح الذعر لتأتيا بغير تعويدهم :
الجن ، والنفاق ، والكذب ، وعدم القيام بالواجب عليهم إلا مكرهين ،
ونفودهم من العلم وإعراضهم عنه ، وأن يكنوا فى قلوبهم الحقد على
هذا النظام العنيف الذى وصل بهم إلى تلك الغاية .

وهنا يجدر بنا أن ننوه بالكلمة البليغة ، التى ألقاها حضرة
صاحب المعالى « محمد حامى عيسى باشا » وزير المعارف العمومية ، على
طلبة دار العلوم العليا ، فى العام الماضى ، مقتطفين منها هذه الفقرة
النفيضة وهى :

« أيها الطلبة !

« اذكروا دائماً رسالة المعلم فى الحياة ، تلك الرسالة ستضطلمعون
بأعبائها قريباً ، وأنها رسالة روحية لا تؤدى إلا بالإخلاص فى العمل
مع التزود من العلم والتمسك بالفضيلة ، وقدروا عملكم فى تربية الناشئة
قدره ، واصعدوا بها إلى ذروة الكمال ، فستقبل الأجيال القادمة فى
ذمتكم » .

وفى كلمة واحدة : أرى أن حب الطفل إلى درجة الولع والإغرام

به كما يغرم الانسان بولده وسليله ، هو نصف التريسة والتعليم ؛
أما النصف الآخر : فطرق تدريس وأساليب تعليم .

الطرفة الثانية :

ثم قال الإمام الماوردي في الطرفة الثانية مانصه :
« وليحذر المتعلم التبسط على من يعلمه وإن آنسه ، والإدلال
عليه وإن تقدمت صحبته ، وقد قيل لبعض الحكماء : من أذل الناس ؟
قال : عالم يجري عليه حكم جاهل
« وينبغي ألا يظهر الاستكفاء منه ، والاستغناء عنه ، فإن في ذلك
كفراً بنعمته ، واستخفافاً بحقه ، وربما وجد بعض المتعلمين قوة في
نفسه — جودة ذكائه ، وحدة خاطره — فقصده من يعلمه بالإعانات
له ، والاعتراض عليه ، إزراءاً به وتبكيئاً له ، فيكون كمن تقدم فيه
المثل السائر لأبي البطحاء :

أعلمه الرماية كل يوم فلما استد^(١) ساعده رماني
وهذه من مصائب العلماء ، فمن انعكاس حظوظهم أن يصيروا
عند من يعلمونه مستجهلين ، وعند من قدموه مسترذلين .

ثم أردف ذلك بقوله : « وليس كثرة السؤال في ما التبس إعنائاً ،
وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم : العلم خزائن ، مفتاحه السؤال ،
فلسألوا رحمكم الله ، فإنما يؤجر في العلم ثلاثة : القائل ، والمستمع ، والآخذ .

(١) استد : صار سديداً

وقد قيل لابن عباس رضى الله عنهما : بم نلت العلم ؟ قال بلسان سؤال ،
وقلب عقول « اه .

فالسؤال المباح للمتعلم هو الذى يزيل عنه لبساً ، وينير أمامه
طريقاً ، أما السؤال الذى يقصد به الإغنيات والتبكيكيت ، فيعد خروجاً
من جانب المتعلم على المبدأ المتقدم ذكره ، وهو أن التعليم يجب أن
يقوم على التوقير والحب المتبادلين بين المعلم والمتعلم .

وختم الماوردى هذه الطرفة بملاحظة جديرة بالاعتبار والتبصر ،
وهى قوله : « وينبغي ألا تبعثه معرفة الحق له على قبول الشبهة منه ،
ولا يدعوه ترك الإغنيات له إلى التقليد فى ما أخذ عنه » .

فترى أن الإمام الماوردى فتح بذلك للمتعلم باب الاجتهاد وإعمال
الفكر ، وأباح له تحليل ما تلقاه عن معامه وتقليبه على وجوهه حتى يستوثق
من صحته ويطمئن قلبه إلى صدقه ، ولم ير للمتعلم أن يلغى عقله ، ويمحو
شخصيته ، فيرى أن قول معامه دليل وإن لم يستدل ، وأن اعتقاده
حجة وإن لم يحتج ، كما يقول بعض المشاركة : قال الشيخ . وكما كان
علماء أوربا يقولون Magister dixit .

وذلك لعمرى مبدأ يجب التمسك به حتى يخرج التعليم رجالاً
مفكرين قادرين على إقامة الحجة البالغة ، واستنباط الأدلة الواضحة ،
ذوى آراء يعتد بها ، لا مقلدين يلوكون كلام المعامين بلا تفهم ، ويرددونه
كما تفعل الببغاء .

هكذا يقرر الأستاذ الإمام الماوردى . ومن قبل ذلك يرى

المتصفح لتاريخ التشريع الاسلامي في أقدم عصوره ، أن تقديس حرية الرأي ، وتفهم الأحكام تفهماً صحيحاً ، إنما كان من أهم ما تأسست عليه علوم الأولين من قومنا ، وقامت عليه آراء الباحثين من أساطين ديننا ؛ وأنت إذا تدبرت كتاب الله تعالى ، فلما تجد موضعاً خلا من الحث على التدبر والتفكير والتعقل والانتفاع بتلك الجوهرة الفريدة : جوهرة العقل . وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب إلى قاضيه أبي موسى الأشعري ، دستور القضاء ، ذلك الدستور الخالد على الدهر ، فكان مما قال فيه : « ... ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس ، فراجعت فيه نفسك ، وهديت إلى رشدك ، أن ترجع عنه ، فإن الحق قديم ، والرجوع إلى الحق خير من التماذي في الباطل . الفهم ، الفهم ، عند ما يتلجلج في صدرك ما لم يبلغك به كتاب الله ولا سنة نبيه صلى الله عليه وسلم . اعرف الأمثال والأشباه ، وقس الأمور عند ذلك ، ثم اعمد إلى أحبها عند الله ورسوله ، وأشبهها بالحق » .

لقي عمر رجلاً ، فقال : ما صنعت ؟ قال : قضى عليّ بكذا وزيد بكذا ، قال : لو كنت أنا لقضيت بكذا ، قال : فما منعك والأمر إليك ؟ قال : لو كنت أردك إلى كتاب الله أو إلى سنة رسوله لفعلت ، ولكنني أردك إلى رأيي ، والرأي مشترك ^(١) ؛ فلم ينقض ما قال علي ولا زيد .

(١) وهذا ما يعبر عنه الفرنسيون اليوم بقولهم : Les opinions sont libres ومعناه : الآراء حرة .

وعلى ذكر ذلك لا بد لي أن أصرح إخواني المدرسين بحقيقة طالما نهت إليها في تقاريرى أيام كنت مفتشاً في المدارس ، وهى تلخص فى أن كثيراً من مدرسى مدارسنا لا يميلون إلى مناقشة الحقائق العلمية التى يلقونها على التلاميذ ، وتقليبها على وجوهها لتحريضها أمامهم ، وحشهم على إنعام النظر وإعمال الروية ، واستخلاص ما يمكنهم استخلاصه منها ، حتى يتعودوا التفكير فى ما يعرض لهم من مختلف الشئون فى حياتهم العملية ، بل هم فوق ذلك قد يحظرون عليهم السؤال وإن كان ضرورياً لإزالة غموض فى بعض عناصر الدرس ، بدعوى أن المقرر طويل ، وأن الترخيص للتلاميذ فى المناقشة مما يعوقهم عن إتمام ذلك المقرر ، مع أن التعليم فى نظر المربين - من عهد سقراط إلى اليوم ، وإلى ما شاء الله ، وشاءت التربية الصحيحة - ليس هو تقديم الحقائق العلمية إلى النشء معبدة مهياة ، وتكديسها فى أذهانهم أكداً مجتمعاً بدون إنعام النظر فيها ، والاتفافع بها ، وإنما هو تهيتهم لقبولها ، وإرشادهم لاستكشافها ، وهدايتهم إلى العثور عليها .

ومما عرف عن أستاذنا الإمام الشيخ محمد عبده - رحمه الله - أنه كان فى دروسه يقصد إلى إعداد أذهان جديرة بفهم كتاب الله ، ومن أجل هذا كان يبقى أياماً طويلة فى تفهم الآية الواحدة من القرآن الكريم ، وتعرف مراميها ، والوصول إلى أسرار التشريع والتكليف بروحه ، وكان الطلاب جد حريصين على أن يستمعوا التفسير جميعه فى حياة الأستاذ ، فكان رحمه الله - فى بعد نظره ووافر حكمته - يقول



المرحوم الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده

لهم : إني لن أعيش حتى أفسر لكم كتاب الله جميعه ، ولكنني أعني في حياتي
بتهيئة أنفسكم ، وتسهيل طرائق البحث عليكم ، ولفتكم إلى الأعلام
المنصوبة أمامكم ، ثم أعرض عليكم الأمثال وأسوق الأمسي^(١) لما يجب
أن يفهم عليه كتاب الله ، وأدعكم بعد ذلك إلى أنفسكم .

وقد حدث في العام الماضي أن بعض أعضاء مجلس النواب الفرنسي
ضيقوا الخناق على وزير المعارف الميسو (هريو) أثناء مناقشة المناهج ،
وشكوا نقص منهج الفلسفة في المدارس الثانوية - وكانوا هم قديماً
أساتذة الفلسفة بها - فأجابه الوزير - بعد طول الجدل - جواباً
أفهمهم وألزمهم الحجة ، ونال استحسان المجلس ، وهو قوله :

« سادتي ! ليس التعليم كأساً تدهق ، وإنما هو مشكاة تضاء »^(٢) .
يريد أن يقول إن التعليم ليس كمأ ولكنه إجابة وإتقان ، فالقليل
الجيد منه خير من الكثير الغث .

وهكذا كان العرب يرون التعليم ، فقد كانوا يكرهون في الطالب
أن يكون خامد الروح ، يقبل ما يلقى إليه دون مناقشة ، أو يمنعه
الحياء أن يسأل عما يجهل ، فعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : نعم
النساء نساء الأنصار ، لم يكن يمنعهن الحياء أن يسألن عن الدين
ويتفقهن فيه .

(١) الأمسي : مفردة أسوة وهي الأنموذج .

(2) L'enseignement n'est pas une coupe à remplir. C'est un foyer à allumer.

وعلى ذكر وجوب تحصيل العلوم بالتفهم لحقائقها أقص حادثاً غريباً وقع في شهر أكتوبر الماضي بمجمله : أن الدكتور (ماكدونالد) الاستاذ بجامعة (هارفورد) ألقى محاضرة انتقد فيها طرق التربية والتعليم ، وحث الطلبة على الإكثار من المناظرة والمناقشة في المسائل العلمية ، لأنها خير الوسائل للحصول على ملكات العلوم والحدق فيها ، واستدل في ما استدل بنبذة لابن خلدون ، نقلها من كتاب فرنسي ثم ترجمها إلى الانكليزية ؛ ونظراً لنفاضة تلك النبذة ، الدالة على رصانة آراء ابن خلدون في نقد التربية والتعليم في زمانه ، بعث الدكتور (شارلس واطسن) مدير الكلية الأمريكية بالقاهرة ، بتلك النبذة إلى ناظر الكلية لترجمتها إلى اللغة العربية ، وينشرها في مجلة التربية الحديثة وشفعها بخطاب منه قال فيه : إنه دهش كثيراً لهذه النبذة وعجب من أن ابن خلدون الذي عاش في القرن الخامس عشر ، اهتدى بفطنته ونور عقله إلى نقد طرائق التربية والتعليم في زمانه نقداً عامياً صحيحاً ، لا يزال هو النقد العلمي الصحيح الذي يصبو إلى التربية في العصر الحاضر ؛ وهما هي ذى النبذة الثمينة الصادرة عن ابن خلدون :

« . . . وبقيت فاس وسائر أقطار الغرب خلواً من حسن التعليم من لدن انقراض تعليم قرطبة والقيروان ، ولم يتصل سند التعليم فيهم ، فعسر عليهم حصول الملكة والحدق في العلوم ؛ وأيسر طرق هذه الملكة فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة في المسائل العلمية ، فهو الذي يقرب شأنها ويحصل مرادها ، فتجد طلاب العلم منهم — بعد ذهاب الكثير من



صورة العلامة ابن خلدون

كما تخيلتها لجنة تخليد ذكراه في العام الماضي بمناسبة مرور ستمائة عام على ولادته

أعمارهم في ملازمة المجالس العلمية — سكوتاً لا ينطقون ولا يفاوضون ،
وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة ، فلا يحصلون على طائل من ملكات
التصرف في العلم والتعليم ، ثم بعد تحصيل من يرى منهم أنه قد حصل ،
تجد ملكته قاصرة في علمه ، إن فاض أو ناظر أو علم ، وما أتاهم
القصور إلا من قبل التعليم وانقطاع سنده ، وإلا فحفظهم أبلغ من حفظ
سواهم ، لشدة عنايتهم به وظنهم أنه المقصود من الملكة العلمية « اه .
نعم والله إنه ليصدر بهؤلاء المعلمين — الذين أشرت إليهم آنفاً ،
والذين يحرصون عنايتهم في إتمام المقرر كيفما كان ، دون الاهتمام بتربية
الملكات وإغناء قوى الملاحظة ، والتفكير ، والمناقشات العلمية —
أن يتدبروا قول ابن خلدون الذي اهتدى بنور بصيرته منذ
سنة قرون تقريباً إلى أن أيسر الطرق لتحصيل العلوم والحذق فيها ، إنما
يكون بفتح اللسان بالمحاوراة والمناظرة في المسائل العلمية ، أما التعليم
بطريق الحفظ فلا يجدي نفعاً في الحصول على ملكات العلوم وبخاصة
ملكة التصرف ، وبعد النظر ، وتكييف الظروف ، فلقد شاهدت — غير
مرة — أساتذة يدرسون لصغار تلاميذ المدارس الأولية عين الدروس التي
تلقوها في المدارس العالية ، بلا تبديل ولا تغيير ، ذلك لأنهم لم ترب
فيهم ملكة التصرف ، ولم يتعودوها ، وصعب على الإنسان هجران ما تعود .
أجل ! يجدر بأساتذتنا أن يسيروا في تعليمهم على السنن القويم
الذي رسمه لهم الإمام ابن خلدون ، وأن يعلموا أن الغرض من تدريس
العلوم المختلفة في المدارس الأولية والابتدائية والثانوية ليس تخريج

إخصائين في تلك العلوم ، بل الغرض منه تمرين التلاميذ على التفكير والنظر الصحيح إلى الأشياء والحكم عليها حكماً صحيحاً بواسطة تلك العلوم ، أو بعبارة أخرى : ليست تلك العلوم المختلفة غايات ومقاصد تطلب لذاتها ، وإنما هي وسائل ووسائل تتضافر كلها للوصول إلى نتيجة مشتركة واحدة ، هي تهذيب العقل وتقويم الفكر ، ويجب عليهم منذ اليوم ألا يتعلقوا بأهداب دعوى إتمام المقرر بعد أن فوضت إليهم لجنة المناهج العامة البت في أمر المناهج ، وبعد أن جربوها سنة كاملة وأقروها وأثنوا عليها .

الطرفة الثالثة :

وهي طرفة هامة جداً لأنها تتناول جوهر التربية وتمس أهم معضلاتها وأدق مشكلاتها وهي بنصها :
« ينبغي للعالم أن تكون له فراسة يتوسم بها المتعلم ليعرف مبلغ طاقته وقدر استحقاقه ليعطيه ما يتحملة ذكؤه أو يضعف عنه بلادته ، فإنه أرواح للعالم وأنجع للمتعلم ؛ وقد روى ثابت عن أنس بن مالك ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن لله عباداً يعرفون الناس بالتوسم ، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إذا أنا لم أعلم ما لم أر فلا علمت ما رأيت ، وقال عبد الله بن الزبير : لا عاش بخير من لم ير برأيه ما لم ير بعينه » .

وإذا كان العالم في توسم المتعلمين بهذه الصفة ، وكان بقدر استحقاقهم خبيراً ، لم يضع له عناء ، ولم يخب على يديه صاحب ، وإن لم يتوسمهم

وخفيت عليه أحوالهم ومبلغ استحقاقهم ، كانوا وإياه في غناء مكده
وتعب غير مجد .

وقال بعض العلماء : « كل علم أكثر على المستمع ولم يطاوعه الفهم ،
ازداد القلب به عمى ، وإنما ينفع سمع الآذان إذا قوى فهم القلوب
في الأبدان » اهـ

هذه الجملة - على قصرها - أثارت في نفسى أمرين خطيرين : الأول
خرج مركز المعلم وصعوبة موقفه وعظم التبعة الملقاة على عاتقه في
المجتمع ، والثانى الطريقة المثلى التى يجب عليه أن يسلكها في تقويم
عقول الناشئين وتهذيب أخلاقهم .

ولكى نفهم موقف المعلم فى الأئمة من موقف غيره من العاملين
خيرها ، كالمهندس والطبيب وغيرهما ، ولكى ندرك الصعوبة التى يلقاها
والعقبات التى يصادفها بالنسبة لهؤلاء ، يجب أن نلم بالفرق بين العلم
والفن ، فنقول : إن العلم والفن شكلان مختلفان من أشكال التفكير ،
والفرق بينهما كالفرق بين النظرى والعملى ؛ فالعلم يبحث فى النظريات
والنواميس العامة دون أن يلبس الكائنات ، إلا ريثما يلاحظ
ليستنبط ويقتن ، بخلاف الفن فإنه يلقى بنفسه فى أحضان المحسوسات
لبطبق تلك القوانين العامة على الكائنات على اختلاف أنواعها ، وفى
الظروف المختلفة التى تحيط بكل حالة منها على انفرادها .

فعلم الطبيعة مثلاً يضع القوانين العامة للجاذبية والحرارة والكهرباء

والمغناطيسية، بصرف النظر عن استقراء الأجسام التي تظهر فيها تلك الخواص ، فلا يتبعها فرداً فرداً لمعرفة أحوالها وخواصها .

أما الفن فإنه يصرف همه إلى تطبيق تلك القوانين العامة والاستفادة منها في رفع الأثقال مثلاً ، ونقل الأجسام من مكان إلى آخر ، بحيث إن كل مسألة تؤخذ على حداثها وتحل وفق ما يناسبها .

وبينما العالم يسبح في هدوء وسكون في عالم الحق الفسيح بعزل عن الناس ، يشحذ ذهنه ويرهف فكره في استنباط الحقائق وتقنينها ، وليس له من غرض سوى اتباع شهواته العقلية ، والتوغل في الفتوحات العلمية ، والتعمق في ميادينها المجهولة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، إذا بالفنى يضع نفسه وسط الأشياء لغرض معين محدود ؛ فالربى مثلاً ينصب نفسه وسط الناس لتعليمهم وتلقينهم الحقائق العلمية وفقاً للقواعد التي وضعها علماء التربية ، وهي مهمة - ولا شك - أشق من مهمة العالم ، لأنه باتخاذها إياها مهنة له قد أخذ على نفسه أن يهذبها ويرتبها حتى يجعلها سائغة تقبلها عقول الناس ؛ ولهذا يتخير الأساليب السهلة ، ويتوخى الطرق الشائقة التي تترك أكبر أثر في نفوس المتعلمين ، مع العناية بتمحيص تلك الحقائق تمحيصاً دقيقاً ، وتخليصها من كل ما يشوبها من الشكوك والتأويلات الباطلة ، فيكرر ويعيد - دون ملل أو كلال - حتى يصل بالتعلم إلى غاية ما يريد ؛ وتلك مهمة دائمة تستوعب العمر وتستنفد الحياة ، فكما ذلت صعاب بدا غيرها ، وكما دوويت علل ظهرت علل ؛ ومن هنا ترى البون شاسعاً

بين مهنة المدرس وبين مهنة المهندس - مثلاً - في الصعوبة التي يلقاها كل منهما؛ فالمهندس يعمل على أجسام خامدة وأرقام صامتة، ويصل إلى نتيجة حاسمة، وليس لجسم من الأجسام أن يشذ عن القاعدة؛ أما المدرس فيعني بأجسام ذات أرواح وعقول وشعور وميول، تختلف في شخص عنها في الآخر. ولكل واحد أحوال خاصة تستدعي علاجاً خاصاً؛ ولذلك كان (أفلاطون) يقول: «إن (أرسطو) يحتاج إلى لجام، أما (زين-كرات) فإنه يحتاج إلى مهراز».

وقصارى القول: إن الصفة البارزة في المعلم هي الفراسة والنظر الصحيح إلى المتعلمين وتوسمهم - كما يقول الإمام الماوردي رحمه الله - حتى يرسل شعاع فراسته إلى عقولهم وميولهم وسلوكهم وأخلاقهم، فهم يختلفون في العقول اختلافهم في الوجوه، وإن اختلافهم في الإحساس والشعور أوسع وأعظم، فلكل واحد منهم شعور خاص وميول خاصة، كما أن له لغة خاصة وتعبيراً خاصاً، وطرقاً للتفكير غير طرق أخيه وزميله. فالشرف - مثلاً - الذي يظنه الإنسان لأول وهلة فضيلة عامة في الناس وبدرجة واحدة، فإن تقديره يختلف كذلك في إنسان عن تقديره في آخر؛ فقد ذكر التاريخ أن القائد الروماني (كانون) قتل نفسه عقب انتصار (يوليوس قيصر) عليه في موقعة (بوتيك)، بينما سلم أقرانه القواد الآخرون الذين تربوا معه تربية عسكرية واحدة وهزموا معه في تلك الموقعة، دون أن يروا في الخضوع للقوة والاستسلام للغالب خطأ من كرامتهم أو مساساً بشرفهم.

ومن نصائح الإمام ابن خلدون الغالية في هذا الصدد « أن لا يؤخذ الغلمان جميعاً بطريق واحدة ، وأن لا يعاملوا معاملة واحدة في العلاج والتهديب ، وإنما يجب أن يختلف علاجهم باختلاف أمراضهم وطبائعهم وأسنانهم وبيئاتهم » ، قال : « وكما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم ، كذلك المربي لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكتهم وأمات قلوبهم ، وإنما ينبغي أن ينظر في مرض المريد وفي حاله وفي سنه ومزاجه وما تحتمله نفسه من الرياضة ، ويبني على ذلك رياسته » اهـ

وهنا يجب على أن أنبه الأذهان إلى هذه الملاحظة الدقيقة ، وهي أن فكرة اعتبار الطفل فرداً مستقلاً ذا شخصية مستقلة يحتاج في تقويمه وتهديبه إلى علاج خاص ، تلك التي فطن لها فلاسفة العرب لم تكن معروفة قط عند الأمم الأوربية في القرون الوسطى ، بل كان المعروف عندهم أن التثقيف واحد للجميع ، فكان التلاميذ يفكرون بطريقة واحدة ، ويشعرون بكيفية واحدة ، كأنهم أفرغوا في قالب واحد ، وكان المدرس يعطى درسه لتلاميذه كأنهم كتلة واحدة ، دون أن يفكر في تكييفه وتنويعه وفقاً لطبائعهم وأمراضهم وأحوالهم وأسنانهم ؛ وكانت العقائد الدينية تحظر كذلك أن يفكر إنسان بتفكيره الخاص ، وأن يشعر بشعوره الخاص ؛ ولم تظهر في أوربا كلها فكرة اعتبار الطفل فرداً مستقلاً ذا شخصية ذاتية إلا في عصر النهضة أو إحياء العلوم في القرن الخامس عشر ؛ ولكننا نحن الشرقيين

نفتخر بما كان عليه أسلافنا في تقرير هذه الفكرة والعمل بها بطريقة فعلية ، كما أشار إليها ابن خلدون في ما نقلناه ؛ وهذا ما حداً أساطين التربية والتعليم في أمريكا إلى التنويه به والاعجاب بآرائه كما أسلفنا .

وعلى الربى - فوق ذلك - أن يكون منزهاً عن الأغراض المادية والمعنوية ، لأنه نصب نفسه لهذه الحرفة الشريفة كما قدمنا ، وعليه أن يجد في عمله ويسعى إلى الخير جهده ، وليس عليه أن تتم المطالب ؛ فإن من أغرب أمور هذه المهنة أنها تهيب نتيجة جهودها ، وتخشى عاقبة أمرها ، فقد يحقق الربى حين يظن النجاح حليفه ، وقد يكون انتصاره إخفاقاً تاماً وهزيمة منكورة ؛ وهذا ما حدث للربى (فناون) حين عهد إليه بتأديب (دوق برجونيا) ولى عهد لويس الرابع عشر ، فإنه بدل أن يخرج منه للمملكة ملكاً حازماً ، أخرج لها قسيساً زاهداً ؛ ذلك أنه وجه كل جهوده - عن صدق نية وحسن اعتقاد - إلى ناحية الزهد والورع ، فنجح في ذلك نجاحاً تاماً ، إلا أنه أخطأ خطأ فاحشاً في التوسم وبعد النظر ؛ فقد كان من أوجب الواجبات عليه أن يبت في تأميره - قبل كل شيء - روح النشاط وحب العمل والتسيطر والتسلط ، وما إلى ذلك من الصفات التي يجب أن تتوافر في من هو مرشح لتولى السلطنة والهيمنة على أمور أمة بأكملها .

وقد تأتى الخيبة من طبيعة التاميز الجامدة وعقله الخامل ، وهذا ما حدث للربى الفرنسى (بوسويه) مع ابن لويس الرابع عشر

نفسه؛ فإنه لم يحصل منه - بعد العناء الشديد والجهد الجهد - على نتيجة تذكر .

من أجل هذا كله وجب على المربي - قبل كل إنسان - أن يعنى بعمله عناية تامة ، وأن يبذل الجهد الجهد فى سبيل تذليل مسائل العلم وتبسيطها ، وتمهيد الطرق لتفهمها للنشء تفهيماً صحيحاً ، وعليه فى الوقت نفسه أن يشتغل لوجه الله خالصاً ، وألا ينتظر مكافأة على جهوده سوى شعوره أنه قام بما وجب عليه نحو أمته وبلاده بقدر ما وصل إليه الجهد ، واتسعت له الطاقة ، وإذا قدر له النجاح وأخرج للأمة رجالاً نافعين ، فقد تمت له السعادة ، ونال الحسنى وزيادة ؛ لذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم : « يا على ، لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من الدنيا وما فيها » ، وفى رواية أخرى « خير لك مما طلعت عليه الشمس » .

ذلك هو الموقف الدقيق الذى يقفه المعلم من تلاميذه ، شرحته شرحاً يتفق وأهمية نظرية التفرد أو التوسم كما يقول الإمام الماوردى .
بقى أن ننظر فى تطبيق تلك النظرية وترسمها فى معالجة أمور التربية والتعليم فنقول : يجب أن تسير تربية الأطفال بطيئة متدرجة متصاعدة كما تتدرج الطبيعة نفسها فى ظهور قوى الطفل النفسية ؛ فيبدأ بتربية الجسم والعمل على إنمائه بالطرق الصحية ، ثم يعنى بأمر التربية الخلقية التى تتناسب مع أسنان الأطفال ؛ ثم تأتى بعد ذلك تربية الحواس ،

فيدربون على دقة الملاحظة والمضاهاة حتى يتسنى لهم استنباط الكليات من الجزئيات ، والقواعد والتعاريف من الأمثلة ، وبذلك ينتقل من المحسوس إلى المعقول ، ومن البسيط إلى المركب ؛ فعلى الربى أن يترث والأيتعجل فيكلف الطبيعة فوق طاقتها ؛ والطبيعة البشرية - كما يقول (روسو) - هادية من تلقاء نفسها إلى الحق والباطل ، كما أنها ملهمة الخير والشر ، ولا شئ يصدها عن سواء السبيل ، ويبعدها عن إدراك الغاية التي هيأها الله لإدراكها ، إلا التربية الناقصة البتراء التي نعاها (مونتين) على القائمين بأمر التربية في زمانه ، حيث يقول :

« لقد كانت حكمة الأمة الفرنسية مضرب الأمثال من قديم الزمان ، وإننا حتى اليوم لا نرى أذكى من أبناء فرنسا الصغار ، ولكنهم للأسف لا يلبثون - متى صاروا رجالا - أن يخيبوا الآمال ، ويخلفوا الظنون ، ويغشاهم من الغباوة والبلادة ما يلفت الأنظار ويحير الأفكار ، وقد قال لى بعض الثقات : إن المدارس التي يختلفون إليها هي التي تفسد عقولهم وتعمى أفئدتهم » .

وقد نحا الرواى الشهير (الكسندر دوماس) نحوه في الإيزراء بالتربية في زمانه ، حيث يستفهم أحد الممثلين فى إحدى رواياته قائلا : لماذا ينقلب أطفالنا الظرفاء المهذبون رجالا غلاظ الأكباد خبثاء الطوية قساة القلوب ؟ فيرد عليه ممثل آخر قائلا : لا بد أن يكون السبب فى ذلك التربية .

لذلك ينصح (روسو) للمعلم أن يحو شخصيته أمام الأطفال ، وأن يقتصر عمله على النصح والإرشاد والهدى إلى التي هي أقوم ؛ وهذا ما يعبر عنه (روسو) بالتربية السلبية .

وهو ينحى باللائمة الشديدة على التربية التي تدفع الطفل إلى العلم دفعا ، وتكلفه حمل ما لا طاقة له بحمله ، وفهم ما لا قبل له بفهمه ، وإدراك ما لا تقوى عليه مداركه ، ويصفها بأنها تربية متعسرة ؛ لأنها تحاول أن تنقل الطفل فجأة من طور الطفولة إلى طور الرجولة ، وتريد أن تلقنه - وهو طفل - حقوق الرجال وواجباتهم .

وقد سبق (روسو) إلى نقد هذا النوع من التربية فلاسفة العرب ؛ فهذا صاحب (أدب الدنيا والدين) يهيب بها وينادي بذمها ، ويراها تأتي بعكس المقصود منها ، وأنه بها ينقلب النور ظلاما والبصر عمى ، وذلك حيث يقول :

« إن كل علم كثر على المستمع ولم يطاوعه الفهم ازداد القلب به عمى ، وإنما ينفع سمع الآذان إذا قوى فهم القلوب في الأبدان » .

غير أن الناس في كل زمان وفي كل مكان يتغاضون - للأسف الشديد - عن هذه القضية البديية الواضحة الجلية ، فيتجاهلها الآباء في البيت ، كما يغفلها المدرسون في المدرسة ، فتراهم يسكرون جداً بتلقين أبنائهم ألفاظاً وعبارات لا يفهمون لها معنى ، ولا يقيمون لها وزناً ، وهم مع ذلك يسرهم جد السرور أن يسمعوها منهم كما يسمعون البغاوات . ومن ثم تنشأ في الأولاد عادة قبيحة لها أسوأ الأثر في تربية

الأفراد والأمم، وهى التكلم بالألفاظ دون الاهتمام بمدلولاتها ومعانيها؛ ذلك أن القائمين بتربيتهم حشوا أذهانهم بألفاظ وعبارات حشواً، وحشروها فيها حشراً، غير عالمين أن ذلك مما يؤخر فيهم قوة الفهم، ويضعف ملكة العقل والإدراك، ويكون حجر عثرة فى سبيل التربية فى ما بعد.

لاحظ ابن القرية تجده أقوم فكراً، وأحسن أداءً، وأفصح منطقاً من ابن المدينة، لأنه يعيش فى بيئة هادئة ساكنة لا يكاد يراه أهله إلا قليلاً نظراً لاشتغالهم بالحقول، فلا يتعلم إلا ألفاظاً قليلة محدودة، ثم هو لقلتها يكون على بينة من معانيها وفهم واضح لمراميتها بخلاف ابن المدينة.

وقد أدرك ذلك من كان قبلنا من مفكرى العرب وحكائهم، فنصحوا لمن عهدوا إليهم بتربية أبنائهم من المعلمين، أن يقتصدوا فى عرض الأفكار عليهم حتى لا يشغلهم تزاوجها عن فهمها، وأن يتثبتوا من فهمهم لما يعرض عليهم من الألفاظ والتراكيب حتى لا يستعملوها إلا فى مواطنها اللائقة ومواضعها المناسبة.

ولنعرض فقرة من كتاب عمرو بن عتبة لمعلم أولاده حيث يقول :

« ليكن أول إصلاحك لولدى إصلاحك لنفسك، فإن عيونهم معقودة بعينيك، فالحسن عندهم ماصنعت، والقبيح عندهم ماتركت. عامهم كتاب الله، ولا تملهم فيه فيتركوه، ولا تتركهم فيه فيهجروه.

روهم من الحديث أشرفه ، ومن الشعر أعفه ، ولا تنقلهم من علم إلى علم حتى يحكموه ، فإن ازدحام الكلام في القلب مشغلة للفهم .
وجعل الإمام الماوردي (صاحب أدب الدنيا والدين) من شروط بلاغة الكلام ، أن يكون بين الألفاظ ومعانيها مناسبة ومطابقة ، وفسر المطابقة بأن تكون الألفاظ كالقوالب لمعانيها ، فلا تزيد عليها ولا تنقص عنها .

وقال بشر بن المعتمر في وصيته في البلاغة :

« إذا لم تجد اللفظة واقعة موقعها ، ولا صائرة إلى مستقرها ، ولا حالة في مركزها ، بل وجدتها قلقة في مكانها ، نافرة عن موضعها ، فلا تكررهما على القرار فيه »

وقال بعض البلغاء : « لا يكون البليغ بليغاً حتى يكون معنى كلامه أسبق إلى فهمك من لفظه إلى سمعك »

وهذا ما يجب على الأهل والمعلمين أن يفتنوا له ، وأن يعنوا به العناية كلها ، حتى لا يكون كلام أطفالهم وتلاميذهم اليوم ، وكلامهم وهم رجال الأمة غداً ، هراءً في هراء ، فإن الكلام ميزان دقيق في تقدير الرجال والحكم على كفايتهم العامة والخلقية .

الغرض من التربية والتعليم

في القرن العشرين

شغلت الأمم والجماعات بالبحث في التربية ووسائلها، وعن العلماء بتحديد الغرض منها ليتخذوه نهجاً يضيء لهم طريقهم كي يسيروا في تنشئة الأفراد على النهج القويم؛ وقد تباينت الآراء في تحديد ذلك الغرض تبعاً لاختلاف وجهة النظر إلى مقاصد الحياة، ومطالب الأفراد والجماعات، وسنة التدرج الحيوي والعقلي والعلمي؛ وليس غريباً أن يكون هذا التباين في العصر المتعاقبة والبيئات المختلفة. فالتربية شديدة الصلة بالحياة ونظامها، وهي من أقوى دعائم القومية وأظهر مميزات الأمم.

وإن الذي يتتبع مآلته التربية من مراحل في الغابر والحاضر، يجد أن الغرض من التربية كان مصطبغاً في كل عصر بصبغة تبين ما كان لأهله من نزعات، وتنم عن وجهات من النظر مركزة على مشارب الأمم وحاجاتها ومقدار اعتدادها بالفرد وحقوقه، والجماعة ومطالبها. فقد اتجهت التربية في العصور القديمة إلى العناية بالمجتمع ورعاية كيانه والاهتمام بما يكفل للأمة البقاء من غير اعتداد بالفرد، وما له من حق في الحياة، ثم تبدلت الحال في أواخر دولة اليونان فأعادت نظم التربية الفرد شيئاً من عنايتها واهتمت بثقافته إلى حد ما.

جراجهل والجمود ذيله في القرون الوسطى - على الأفراد والجماعات في أوربا، وظلت كذلك حيناً من الدهر، كان فيه الشرق الاسلامي في نهوض عقلي، حتى هبت من سباتها فسارت في نظم التربية وأغراضها نحو غايات مختلفة من اهتمام باللغة وآدابها تارة، وعناية بالحقائق الحيوية في مظاهر متعددة تارة أخرى؛ وغايتهم من كل هذا أن يستعيدوا المجد العالمي والعقلي الذي كان لأسلافهم، وأن يضعوا عن العقل البشري الأغلال التي كانت عليه.

طاف بعد هذا النهوض على أساليب الحياة ونظم تنشئة الأفراد طائف أخذ جذوتها وشل حركتها، فذب فيها الجمود حتى أتيح للتربية من حمل لواءها وقاد جيشها، وظل المصلحون وعلماء التربية يعملون على إنقاذ الفرد مما كان قد طوقه من أصفاد، ناهجين طرقاً شتى، فنادى بعضهم بالرجوع إلى الطبيعة، ونادى آخرون بجعل أساس التربية دراسة الفرد وطبائعه والاهتمام بتكميل مواهبه، وهم في كل ذلك يرمون إلى الاهتمام بالفرد وإنقاذه من مخالب المجتمع الذي كان الفساد قد تسرب في نواحيه. وفي أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن انتهجت التربية وأغراضها النهج الذي كان قد بدأ به السالزون في بلاد اليونان، وذلك هو العناية بالمجتمع ومصلحه، وكان إلى جانب هذا أيضاً الاهتمام بالفرد وثقافته وإعداده للحياة العملية، ليكون مفيداً لنفسه ولأمته؛ ذلك لأن الفرد إنما يعيش للمجتمع وبالمجتمع، فالفرد وحده بناء الأمة، والأمة منبع خير الفرد وظله الوارف.

ذلك هو الغرض السائد الآن، والذي تعمل على تحقيقه الأمم الراقية وهو : إعداد الفرد للمجتمع.

وتحقيق ذلك يتطلب أن تكون التربية نوعين : عامة ، وخاصة ؛ فالتربية العامة تكون بتربية جميع أفراد الأمة على السواء تربية قومية واحدة ، تربط بعضهم بعضاً ، وتجعلهم مجموعاً واحداً متماسكاً متشابه الأفكار والأخلاق والعقائد والعادات الموروثة عن أسلافهم الصالحين. وبذلك يكون للأمة شعارها الخاص من التربية، كما أن لها شعارها الخاص من الدين واللغة والحال الاقتصادية وغير ذلك .

ذلك هو أرقى أنواع التربية وأسمى ماتجه إليه همه المربين. وهذا النوع من التربية يغرس في النشء في المراحل الأولى للتعليم - كالتعليم الأولى والتعليم الابتدائي - حتى تنطبع فيهم التومية الصحيحة ويشربوا في قلوبهم مميزات أمتهم ، وهم في إبان نشأتهم ، فتأصل في نفوسهم وترسخ في طباعهم ، وتصبح غريزة فيهم ، وسجية لهم . يقول المربي العربي في ذلك : « اطبع الطين ما كان رطباً ، واغمر العود ما كان لدناً » . وهل اللدونة والطراوة إلا في غض الشباب وريعان الصبا ؟

والتربية الخاصة هي متمم لا بد منه للتربية العامة ، لأن مرافق المجتمع متعددة وحاجاته مختلفة ، وهذا يستدعي ألا تسير التربية في طريق واحدة كما سارت التربية العامة ، بل لا بد أن تختلف مناهجها وفق اختلاف الحياة نفسها ، فتخصص طائفة في الفروع المختلفة

فى الحياة العقلية والعملية والاجتماعية ، وغير ذلك من العلوم والفنون .
يتلخص مما تقدم أن المثل الأعلى للتربية الحديثة فى القرن العشرين
هو العمل على تكوين رجلين فى رجل واحد ، أو إيجاد روحين فى
شخص واحد : رجل المهنة ورجل الاجتماع .

وهذا الرأى يخالف رأى علماء التربية فى القرن التاسع عشر ، فقد
كانوا يرون أن الغرض الأسمى نفسى ، وهو تنمية ما أودع فى الفرد من
قوى نفسية وعقلية وجسمية ، والوصول بها إلى أقصى حد من الكمال ،
تنمية متناسبة متناسقة ؛ فعمل المربي - فى رأيهم - ينحصر فى تعهد
هذه المواهب الفطرية وتوجيهها وتوجيهها صالحاً . فالتربية - فى نظرهم - تابعة
من الباطن ، وليست شيئاً آتياً من الخارج .

وحوالى سنة ١٩٠٠ تدرج البحث ، وظهرت فى عالم التربية فكرة
جديدة ، ألا وهى تأثير الحياة الاجتماعية فى التربية والتعليم . وقد تعهدوا
نفر من كبار المربين فى أول القرن العشرين ، وانبروا لنقد رأى المربين
فى القرن التاسع عشر ، وذهبوا إلى أن التربية تستطيع أن تصل بالفرد
إلى الاستعداد لأى عمل من أعمال الحياة . فالفرد - فى نظرهم - مستعد
بفطرته للتفكير والحركة على السواء ، وأنه يفكر إذا وجه للتفكير ،
ويلعمل إذا وجه للعمل ، وليس هناك أفراد خلقوا للتفكير ، وآخرون
خلقوا للحركة إلا فى أحوال استثنائية تغلب فيها الوراثة .

وبعد ، فحياة المجتمع وسد حاجاته وتعهد مطالبه هى المثل الأعلى الذى
يجب على المربين رعايته والاهتمام به ، حتى تصل الأمة إلى درجة الكمال .

التربية في الأسرة

التربية في الأسرة (*)

عناية الأمم الراقية بالتربية :

تعنى الأمم الراقية بتربية أبنائها وأخذها بإيام بأفضل أساليب التربية والتعليم حتى يشبوا ويتعرعوا ؛ ذلك أنهم يؤمنون أصدق الإيمان بحسنات التربية والتعليم ، وأثرهما البالغ في النفوس ، ويعلقون عليهما أكبر الآمال في تحقيق سعادة الوطن وبنيه .

وليس أدل على ذلك الإيمان ، من أن قادة الفكر في تلك الأمم مجمعون على أنه يستحيل على أمة أن تأتي عملا جليلا ، أو تنفذ فكرة خطيرة ، إلا إذا اعتمدت - في ما تصبو إليه - على التربية والتعليم ؛ وذلك برغم تعدد المذاهب وتباين الآراء في هذا العصر ، الذي أصبح مجالا لمختلف الأفكار ، ومتباين الآراء .

أ - فرجال الدين يقولون : إن مستقبل الدين يتوقف على التربية والتعليم .

ب - ورجال السياسة يعتمدون عليها في تغليب آرائهم وانتصار أفكارهم .

ج - والمستنيرون من سواد الناس يرون في نشرها بين طبقات

* ألقى هذه المحاضرة بدار «الاتحاد النسائي» في يوم ٥ فبراير سنة ١٩٣٣ ،

ونشرت بمجلة « المعرفة » : ج ٩ و ١٠ ص ٢

الشعب فوزاً لقضية الأخلاق ، وإعلاءً لشأن بلادهم ، ورفعاً لمكانتها بين الأمم .

دولة الطفل :

لذلك توجهت أفكارهم جميعاً إلى الطفل ، فخطوه بسيّاح من العناية والرعاية ، وغذوه بالمعلومات النافعة المهدبة ، التي تفي بحاجات الفرد والمجتمع معاً ، حتى أصبحت كل أسرة - في السهر على أبنائها وتعهد شؤونهم - كلزارع اليقظ النشيط الذي يتعهد غرسه بالحرث والسقي ، كي يأتي في الغد بأوفر نتاج وأجود حصاد .

وقد صدر الكاتب الفرنسي (فيل. كس توما) كتابه « التربية في الأسرة وذنوب الوالدين » بديباجة ممتعة استهلها بقوله :

« بينما ممالك كثيرة تهى وتدول ، إذ بالقرن التاسع عشر يرى دولة جديدة نشأت بين أحضانه ، وأخذت قدمها تترسخ فيه يوماً فيوماً ... تلك هي دولة الطفل »

من هذا نرى أن القرن التاسع عشر امتاز مما تقدمه من القرون بأنه عصر الطفل .

فالشعراء في فرنسا - من عهد (فيكتور هيجو) إلى اليوم - اهتموا جد الاهتمام ، وعنوا أيما عناية بدراسة نفسية الطفل الغامضة ، وميوله المتغيرة ، وأفكاره المتقلبة ، وراقبوا صعوده تدريجياً من عالم الخفاء والظلمة إلى عالم الوضوح والنور ؛ وقد حذا حذوهم في ذلك :

الكتاب ، والفلاسفة ، والعلماء ، والأطباء ، فالتفوا جميعاً حول مهد
الطفل ، يرقبون حركاته وإشاراته وابتساماته ، ويدونون تجاربهم
حتى أخرجوا للناس صورة حقيقية للطفل ، تختلف تمام الاختلاف
عن الصورة التي صورها له علماء القرون السابقة ، والتي كان للخيال
والمبالغة فيها أثر كبير .

أجل ! وجد في كل جيل من الأجيال السالفة كتاب وشعراء
أحبوا أبناءهم حباً عظيماً ، وحنوا عليهم حنواً كبيراً ، فدرسوا طباعهم ،
وترجموا عن عواطفهم ، مثل (بلوتارك) الكاتب اليوناني القديم ،
الذي عاش في منتصف القرن الأول للميلاد ، فإنه بعث إلى صديق له
بكتاب معروف في عالم الأدب - عقب موت ابنته الوحيدة - يصف
فيه رقة شعورها وصفاً مؤثراً ، إذ يقول : إنها كانت تتوسل إلى
مرضعتها أن تمنح ثديها لا للأطفال الصغار الذين كانوا يلعبون
ويرتعون معها خصب ، بل للدمى (العرائس) التي كانت تلهو بها
وتفرح برويتها ، والتي كانت تجلسها معها على مائدتها ، وتغدق عليها
أرق وأعذب ما عندها من عبارات المداعبة والملاطفة ، كأن فطرتها
السليمة تحس وجوب مقابلة الإحسان بالإحسان .

وبهذه المناسبة أذكر أبياتاً « لحطان بن المعلى » يصف
عطفه على بناته :

لولا بنيات كزغب القطا رددن من بعض إلى بعض
لكان لي مضطرب واسع في الأرض ذات الطول والعرض



جان چاك روسو
(۱۷۷۸-۱۷۱۲)

وإنما أولادنا بيننا أ كبادنا تمشي على الأرض
لو هبت الريح على بعضهم لامتنتعت عيني من الغمض
ولما مات « ذر بن عمر بن ذر » وقف أبوه على قبره ، فقال :
« يا ذر ! إنه قد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك ، لأننا لاندري
ما قلت ولا ما قيل لك » ، ثم رفع يديه إلى السماء ، وقال : « اللهم إني
قد وهبت لك ما قصر فيه مما افترضت عليه من حق ، فهب له ما قصر
فيه من حقك ، واجعل ثوابي عليه له ، وزدني من فضلك ، إني إليك
من الراغبين » .

ولا بد أن يكون عدد هؤلاء الأفراد قد أخذ يزداد شيئاً فشيئاً
بتوالي العصور حتى بلغ حداً لا يستهان به في القرن الثامن عشر ، تحت
تأثير تعاليم (روسو) وفلسفته في تربية الطفل ؛ ولكننا نعلم أنه
برغم انتشار تعاليم ذلك الفيلسوف في أغلب الأسر والمدارس ، فقد
كانت الملاطفة والمداعبة يستران وراءهما ضرباً من الشدة والمحاشنة ،
وكان الولد عبداً مملوكاً ، والوالد سيده مالكا .

أما اليوم ، فقد تبدلت الحال غير الحال ، وأصبحت للولد حقوق ،
بعد أن لم يكن عليه إلا واجبات ؛ فصار ذا شخصية حقيقية ، له أن
يتمتع بالحرية والاحترام ، وبجميع الحقوق التي تساعد على نمو قواه
الجسمانية والعقلية ، كما أصبح شخصاً اجتماعياً ، ينتظر له في الغد أن
يكون عضواً عاملاً في المجتمع ، له مالنا ، وعليه ما علينا .
لهذا لم يكن بد للحكومة - التي هي في الحقيقة مرآة الرأي العام -

من أن تغير نظمها وفقاً لهذه الأفكار الجديدة ، وتعنى عناية خاصة بكل ماله علاقة بتعليم الأطفال وتهذيبهم ، فجعلته في متناول الجميع ، لأن الجميع لهم الحق فيه ، وجعلته بالجمان وإجبارياً ، وصيرته شائعاً لذيداً ، حيث أصلحت المباني القديمة ، وأنشأت مدارس جديدة على طراز جديد جميل ، كما نقحت المناهج تنقيحاً اخترلها إلى النصف ، وخلصها من الشوائب والزوائد ، وجعلت القناعة في العلم والاكتفاء بالقليل منه أساساً للتعليم في المدارس الابتدائية .

ولكى تجنى ثمار هذا كله ناضجة شهيّة ، عمدت إلى إعداد المعلمين المهذبن الأكفاء ، وبذلت — عن سخاء وطيب خاطر — الأموال الطائلة في هذه السبيل ، علماً منها أن الاتفاق عن سعة في هذا الباب هو الغنى بعينه .

ولما أعدت المعلم الكفء منحتة ثقها وأعطته الحرية التامة في تدريس المناهج ، فإذا شاء قدم موضوعات على أخرى ، وإذا شاء حذف منها أو أضاف إليها ، ثم هو بعد ذلك يوجه من تلقاء نفسه التعليم الوجهة الصالحة المنتجة بما يناسب البيئة التي يعيش فيها الأطفال ، فإن كانت زراعية علمهم أصول الزراعة وأحوالها بصفة خاصة ، وإن كانت صناعية أو تجارية وجههم إلى الصناعة أو التجارة تهيهتهم لكسب العيش — فيما بعد — بمزاولة العمل الحر ؛ لأن التعليم يجب أن يكون معيناً على كسب القوت ومهدباً في آن واحد .

هكذا سارت فرنسا متعاونة — شعباً وحكومة — على النهوض بالتربية

والتعليم، فقطعت شوطاً بعيداً في هذه السبيل، كأنهم فهموا - جميعاً - تلك النصائح الغالية التي جادت بها قريحة مواطنهم (كوندرسيه) الفيلسوف والكاتب الفرنسي الشهير، إذ يقول :

« على قدر النصيب الذي تناله الأمة من التربية والتعليم، تكون مقدرتها على حكم نفسها بنفسها، مما يقوم دليلاً على أنها جديرة بأن تعيش أمة حرة »

ولكن رغم هذا التعاون القوي، والتضامن الشديد بين الحكومة وبين الشعب، فإن الخبيرين بشئون التربية يذهبون إلى أن النتيجة التي وصلوا إليها لم تأت متناسبة مع الجهود العظيمة التي بذلت، وأنهم لا يزالون بعيدين عن النتيجة المرجوة والغاية المنشودة، فلم تزل الأصوات ترتفع بالشكوى من نقص التربية في جميع مناحيها البدنية والعقلية والخلقية . فعلى من تقع التبعة ياترى ؟ يقول المسيو (فيلكس توما) رداً على هذا السؤال : « إن المتهم الأول هو الحكومة دائماً ، لأنها لن تبرأ من النقد واللوم مهما أجادت ، لأنها ممثلة في أشخاص ، والأشخاص يستحيل عليهم الكمال »

ويرى أنه يجب علينا أن نذهب في بحث السبب الرئيسي إلى أبعد من هذا ، فنجد في الأسرة ، وفي الأخطاء الكبيرة والذنوب العديدة التي يرتكبها الوالدان في تربية أبنائهما قبل المدرسة ، إما بسبب الجهل وهو الأغلب ، وإما بسبب الإهمال والأثرة وحب الذات ؛ ومن ثم ينشأ معظم الشر الذي يئن منه المجتمع .

الصحة والزواج :

يقول بذلك مسيو (فيلكس توما) ، ويرى - في هذا الصدد - أن أكبر الذنوب التي يقتربها الوالدان وأخطرها ، إهمالهما مراعاة الصحة قبل الزواج . فهل من الإنسانية والمروءة والتبصر في عواقب الأمور أن يسرف الإنسان في الملاهي والملاذ حتى تختل بنيته ، وتعتل صحته ، ويفسد عقله ، ثم يقدم على الزواج لينسل بذرية ضعيفة ضئيلة ، تشكو - طوال العمر - الآلام والأمراض التي ورثوها عن والديهم ، دون أن يكون لهم في ذلك أى دخل ، وقديماً قيل « غير جنى وأنا المعذب » ؟

لذلك اهتمت بعض الأمم الراقية بالأمر اهتماماً عظيماً ، وحرمت عقد قران رجل على امرأة إلا إذا أثبت كلاهما - طبيباً - أنه خلو من الأمراض الفتاكة المشهورة ، حرصاً منها على سلامة النسل وحفظه من الأمراض العقلية والعاهات الخلقية .

أما إذا ترك الأمر - كما هي الحال في معظم البلدان - إلى حكم الشهوات والمصادفات ، وخالف الناس نوااميس الطبيعة وخرقوا قوانينها ، فإنها لا بد تتأثر لنفسها ، ولا نلوم في ذلك إلا أنفسنا إذا ما حل انتقامها بالمساكين الأبرياء .

فإذا رجع الناس إلى صوابهم وثابوا إلى رشدهم في مسألة الزواج - وقد رأوا نتائج الخطيرة وتبعاته الثقيلة - لعنوا قبل أى اعتبار آخر بأمر الصحة ؛ ولكن ذلك ليس عندهم بالأمر الهام !

يقول أفلاطون : « إنك إذا محضت الناس النصح في هذا الصدد ، فكأنك تخاطب صمًّا لا يسمعون ، لأنهم ينقادون إلى الشهوة العمياء دون الإصغاء إلى نداء العقل وهدى التفكير » .

نعم ، إن الغنى والحسب والجاه والجمال أمور جبلت النفوس على طلبها في الزواج ؛ ونحن لا نلومهم على الجرى وراءها ، ولكننا نلومهم على اكتفائهم بها وإغفالهم أمر الصحة التي يجب أن تكون الدعامة التي يقوم عليها صرح الزواج .

ولنفرض الآن أن شرط الصحة قد تحقق في الزوجين وتم الزواج ، فهل نكون بذلك قد وصلنا إلى كل ما نريد ؟ كلا ، فإن هناك واجبات هامة تبدأ ببدء الحمل ، وتقتضيها حياة الطفل أثناءه ، ومعظمها منصب على الأم وحدها ، فيجب عليها أن تتجنب كل ما من شأنه أن يضر بصحة طفلها حسًّا ومعنى ، بل يجب عليها أن تبحث عن كل ما ينميها ويقويها ، فما من عمل تأتبه أثناء الحمل ، أو فكري يمر بخاطرهما إلا وله أثره في طفلها ، حتى إنه يحدث أحياناً أن الطفل يمكث طول حياته يعاني أمراضاً وآلاماً نشأت عن أن أمه زاولت — وقت الحمل — أعمالاً أنتجت فيه ما أنتجت ، وإن لم يكن لها في نفسها إلا أثر وقفي .

وإني أسوق إلى القراء مثالين تاريخيين ، يستدل منهما على أن الاستعدادات المختلفة التي تولد مع الطفل : كالخوف ، والشجاعة ، والكسل ، والغيرة ، والحسد ، أو الميل إلى عمل

معين دون آخر ... إن هي إلا نتيجة انفعالات نفسية قامت بنفس الأم ، أو أثر لأعمال كانت تأتينا أثناء الحمل .

المثل الاول : حدث أن أحد زعماء الحركة الفكرية في إنجلترا في

القرن السابع عشر ، وهو (توماس هوبز) ، عاش طول حياته يشكو ألم الانكماش والخوف ، ويعزوها إلى انزعاج أمه عندما اقترب الأسطول الأسباني (أرمد) من شواطئ إنجلترا ، وكان إذ ذاك جنيناً في بطن أمه ؛ فليس عجيبيّاً - إذأ - أن تتأثر فلسفته بهذا ، فإنك إذا قرأت مؤلفاته ، تجد أن سياسته الفلسفية تدور حول فكرة أساسية واحدة هي : الاضطراب والخوف ، فيقول مثلاً : إن الناس في سبيل تخلصهم من العيشة وفق الحال الوحشية الأولى - التي كانت كلها فوضى واضطراباً - قد تنازلوا عن حرياتهم ، وقبلوا أن يعيشوا تحت سلطة الفرد المطلقة ، ورضوا بالاستبداد ، لأنه وإن كان شراً في ذاته ، فقد خلصهم من شرور الحال الأولى ، وهي أنكي وأمر ؛ ولذا عد من الفلاسفة المتشائمين .

المثل الثاني : خاص بماري ستيوارت بنت جيمس الخامس ملك

اسكتلندا - فيما بعد جاك الأول ملك إنجلترا - من أميرة فرنسية هي ماري دي لورين .

تزوجت (ماري ستيوارت) بفرنسوا الأول ملك فرنسا ، وترملت بعد ذلك لسنة ، وعادت في سنة ١٥٦٠ إلى وطنها الأول ، واقرنت بابن عمها (هنري دارنلي) ، وكان أصغر منها سنّاً ، ولكن لم يمض على عقد الزواج إلا قليل ، حتى أسفت على حدوثه لما تبينته من ضعف بنية

زوجها الشاب ، وفساد أخلاقه ؛ كما تألم هو أيضاً منها ، لأنها أبطأت في منحه امتيازات الملكية وحقوقها ، واتهم في ذلك أحد حاشيتها (رزّو) ، ففتك به ذات يوم على مرأى منها ؛ ومع شدة تألمها لهذا الحادث الفظيع ، فقد تظاهرت لزوجها بالصفح عما فعل ، ولكنها لم تلبث أن دبّرت له مكيدة لقي حتفه فيها ، ثم تزوجت من القاتل له ، فغضبت عليها بلادها ، وزج بها لذلك في أعماق السجون ، وصادف أن مرت كل هذه الأهوال ، وهى حامل في (جاك) الذى صار - فيما بعد - جاك الثانى ملك انجلترا ، فكان لذلك جباناً تضرب بجبينه الأمثال ، حتى إنه كان يرتعد إذا رأى سيفاً يسيل من غمده أمامه .

والتجارب الحديثة التى أجراها العلماء ويجرونها كل يوم على النفس ، تؤيد هذه النظرية كل التأييد ، فهل هناك حقيقة أمهات يقدرن هذا الموقف قدره ، فيكثرن أثناء الحمل من مراقبة عواطفهن وأفكارهن ، والعمل على ضبطها واستجماعها بالتزام الهدوء والسكينة ، حتى لا يكدرن صفو الطفل فى منبته ومستقره ؟

ألا يجب على الأم فى هذا الظرف العجيب - الذى تغرس فيه بذور الغرائز ، وأصول الاستعدادات والميول فى نفس الطفل - أن تعزل الحياة الاجتماعية العامة بعض الشيء ؛ فلا تنقيد بتلك الزيارات الطويلة المملة للأقارب والأباعد ؟ ألا يجب عليها ألا تسرف فى غشيان دور الخيالة والتمثيل ، وأن تقتصد فى التأنق والتجمل ، إذا كان فيهما

ما يضيق على الجنين الخناق في مسكنه ومضجعه، فتعوق بذلك حركة الدورة الدموية فيه، وتوقف نموه بعض الشيء؟

وأول واجب عليها إذا رزقت طفلاً، أن تغذيه بلبنها إذا كانت صحيحة معافاة، لأن لبنها هو الغذاء الطبيعي الوحيد، الذي يناسب بنية طفلها وحاجاته، وهو الذي يقيه الأمراض التي تهدده؛ أما إذا وكأت أمر إرضاعه إلى مرصعة أجنبية، فإن أقل ما يقال في هذا: إن إدخال لبن أجنبي في الأسرة، هو إدخال دم أجنبي فيها، ووراثه أجنبية كذلك؛ ذلك أن الناس لا يهتمون إلا بلبس المرصعة وغذائها دون أن يعنوا بقياس درجة ذكائها، وتبين ميولها وعاداتها وأخلاقها مما يؤثر تأثيراً كبيراً في نفس الطفل وعقليته.

يقول (هربرت سبنسر)، في أهمية الغذاء واختيار الأغذية، ومعرفة القيمة الغذائية لكل طعام، والوقوف على أسرعها هضمًا، وأسهلها تمثلاً بالبنية، وأنسبها لتركيب الأجسام، مع مراعاة البيئة التي يعيش فيها الإنسان، والأعمال اليومية التي تفرض عليه: «إن الأم ذات السيادة والسيطرة، هي التي تعرف كيف تتغذى».

إن هذا القول، وإن كان فيه شيء من المبالغة المقصودة، إلا أن التاريخ والتجربة يؤيدانه إلى مدى بعيد، وقد أجريت تجارب في بعض مدارس فرنسا حديثاً، أسفرت عن أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين نوع الغذاء والأخلاق، إذ شهدوا أن درجة تقدم التلاميذ ونجاحهم في الدرس، وخضوعهم للنظام، كانت تنمو وتطرّد باطراد الغذاء المنظم

الذى كان يقدم لهم ؛ أما السير على غير هدى فى اختيار الغذاء وتحديد كميته للأطفال والرجال ، فينشأ عنه انتشار أمراض المعدة ، واضطراب الجهاز الهضمى ؛ وقد شوهد أنها أكثر انتشاراً فى الطبقات الغنية منها فى الفقيرة .

والهواء النقي غذاء ضرورى للطفل ، كاللبن وغيره من الأطعمة الأخرى سواء بسواء ، فقد يستغنى الإنسان عن الأكل والشرب ساعات وأياماً ، ولكنه لا يستطيع بحال أن يستغنى عن استنشاق الهواء بضع دقائق ؛ فيجب على الأبوين أن يعنيا برياضة طفلهما كل يوم فى المتنزهات ، حيث الهواء الطلق والشمس والخضرة ، وأن يباشرا ذلك بنفسهما كما يفعل الانجليز ، خاصتهم وعامتهم .

والقارىء يعرف - بلا شك - مقدار الضرر الذى يلحق الطفل إذا وكل أمره إلى الخادmates ، فقد رأيتهن مراراً وتكراراً يتركن الطفل فى عربته يبكى ويئن تحت أشعة الشمس المحرقة ، يستغيث ولا يغاث ، على حين تلهو الخادمة بالمحادثة مع الرجال من الخدم وغيرهم ، ثم هى بعد ذلك تأتى وتوسعه شتماً وسباً ولكماً أحياناً .

والغرض الذى ترمى إليه الأسرة الانجليزية من تربية أبنائها فى هذه السن ، والذى يجب أن يكون غرض كل أسرة من الأمم ، هو أن يشب الأطفال أصحاء البنية ، أقوياء الأجسام ، وأن يتعودوا - بالمران والدربة - العادات الحسنة والأخلاق القويمة .

وعلى ذلك تنحصر مهمة الأسرة في التربية البدنية والخلقية
لا غير ، أما التربية العقلية فتأتي بعد ذلك ، لأن العقل لا يظهر إلا في
سن متقدمة .

لذلك كان المربي الانجليزى « توماس أرنولد » يقول : « إن
التعجيل بالأطفال إلى طلب العلم وشحن قرائحهم بمسائل علمية
لا يفهمونها ، قد يودى بغضاضتهم ونضرتهم ، ويطفئ فيهم البادرة
ونور البديهة ، ولن يلاقى الأطفال في حياتهم الأولى وبالأشراً عليهم
من سبق عقولهم لأبدانهم » .

وكان - وهو ناظر لإحدى المدارس - يرتع ويلعب مع تلاميذه
الصغار ، ويخرج معهم فيترامون جميعاً بكرات الثلج ، ويسبحون في
الماء ، ويتسابقون في الجذف بالزوارق ، وكان يقول : « إننا نرى إلى خدمة
الجسم وتقويته إلى أقصى حد مستطاع ، لا للتباهى به أو استخدامه في
قضاء ما رُب شخصية ، بل لغرض أسمى وأرفع ، هو حماية الضعيف
ونصرة العدل في العالم أجمع ، وفتح الدنيا ، وورثة الأرض ومن عليها » .
ثم يقول : « وحيث إننا نريد أن ننصب أنفسنا خير إلا إنسانية ، فأول
ما نفرضه على أنفسنا هو أن نكون أعزاء الجوانب أقوىاء السواعد » .
وفي هذا كان يقول « عروة بن الزبير » من ألف وثلاثمائة سنة
لولده : « يا بني العبوا فإن المروءة لا تكون إلا بعد اللعب » ، والمروءة
هى القيام بما فوق الواجب ، كنجدة المستغيث ، وحماية الضعيف .
وإلى القارىء صوتاً من أمريكا في هذا الصدد .

يقول (أميرسون) : « يجب على الإنسان أن يكون حيواناً قوياً ، إذا شاء أن يكون النجاح حليفه في هذه الحياة ؛ وإن الأمة التي تريد أن تتبوأ مقعد صدق بين الأمم الراقية ، يجب أن تتألف من أفراد كالحيوان بأساً وقوة » .

والواقع أن سلامة النفوس تتوقف إلى حد بعيد على صحة الأجسام ؛ فمن النادر جداً أن نجد ذكوة متوقداً في جسم خامد . والمشاهدات اليومية تدل على أن التردد في الأعمال من شأن ضعاف الأجسام ، أما الأقوياء الأصحاء فهم موطن الجرأة ، والإقدام ، والثبات . ويشاهد في مجال الأخلاق كذلك أن الحلم ، وطيبة القلب ، ورحابة الصدر ، لا تكون إلا حيث الصحة ، أما ضعف الجسم واضمحلال البدن فإنهما مدعاة لسرعة الغضب وضيق العطن ، ومبعثة للظلم والجور في كثير من الأحيان .

تقف عند هذا القدر من التربية البدنية ، لنقول كلمة ختامية في موضوع التربية الخلقية ، وهي لا تقل عن الأولى خطراً واعتباراً .

التربية الخلقية :

إن الولد الصغير يتأثر منذ الولادة بالبيئة التي يعيش فيها ، وينظر إلى ما حوله من الأشياء نظرة المتحير المدهوش الذي يجهل فيها كل شيء ، ويريد أن يقف منها على كل شيء .

والذي يساعد على تأثره بالبيئة المحيطة به ، مروته العظيمة وقابليته السريعة لانطباع صور الأشياء في ذهنه وبقائها فيه زمناً طويلاً .

ومخ الطفل في سنيه الأولى يحفظ عدداً عظيماً جداً من الألفاظ والعبارات بسرعة مدهشة ، ثم هو يقلد تقليداً محكماً كل ما يصدر عن والديه والمحيطين به ، فابتساماته الأولى وإشاراته الأولى محاكاة وتقليد ليس غير ؛ وكذلك المشي فإن الولد يمشي مشية أبيه ويتكلم ألفاظه وعباراته ، وكذلك البنت تلبس مثل أمها وتمشي مشيتها وتنطق بلغتها ، حتى إذا كان في نطقها بعض العيوب فإنها تنقله عنها .

وبالاختصار نقول : إن مخ الطفل في هذه السن الصغيرة يشبه - في سرعة التقاطه صور المرئيات - الآلة المسجلة ؛ بل هو يتحدى أعظم تلك الآلات سرعة ودقة ، ففيه تنطبع الأقوال والحركات والإشارات كلها كما هي بلا تغيير ولا تبديل ، ودون تمييز بين الخبيث والطيب ، أو الصالح والطالح .

فواجب الوالدين والأهل إزاء هذه الآلة المسجلة البديعة أن يتخيروا أحسن ما عندهم من الألفاظ والعبارات التي يتكلمون بها أمام الأطفال ، ويعنوا بالألّا يقع نظرهم إلا على النماذج الحسنة والمثل الصالحة . ولندكر على سبيل التمثيل حالتين هامتين :

الأولى : يجب على الأهل أن يجتنبوا - ما استطاعوا - المنازعات والمخاصمات الزوجية أمام الأطفال ، فإنها تنقش في أذهان الأطفال ويبقى أثرها فيها مدى الحياة ، بخلاف الزوجين فإنهما لا يلبثان أن

ينسيا كل ما وقع من هذا القبيل بينهما لكثرة مشاغلها ، ولأن الحياة الزوجية لا تخلو منها .

الثانية : قد يبيح الإنسان لنفسه في منزله أن يتكلم بالفاظ وعبارات لا يستطيع أن يتكلم بها في المجتمع ، فإذا خلا إلى زوجه قد يتناول مثلاً سير الناس بشيء من الذم والقدح ، كما هو المشاهد في كثير من الأحيان ، فإذا قيل ذلك أمام الأولاد الصغار غرس في نفوسهم أقبح العيوب وأشنع العادات ، كالغيبة والحسد والحقد وما إلى ذلك .
هذا هو الشق السلبي من التربية الخلقية في الأسرة ؛ لأنه يكفي أن يمتنع الوالدان عن ارتكاب مثل تلك الهفوات لتكون بيئة الأسرة بيئة صالحة لتنشئة الأطفال تنشئة حسنة .

والشق الثاني إيجابي : ويجب على الوالدين إزاءه أن يبتثا في نفوس أبنائهما بعض الفضائل الخلقية الأساسية التي تقوم حائلاً منيعاً أمام رغائب النفس فتمنعها السقوط في شهواتها .

وتلك الفضائل هي بمثابة الضابط الذي ينظم أحوال النفس ، كما أن المجموع العصبي في الجسم هو الضابط الذي ينظم حركات أعضائه المختلفة ويوزع عليها جهودده ، كل عضو بنسبة العمل الذي يؤديه للمجموع .

وإن طبيعة الطفل نفسها هي التي تملئ علينا نوع الفضائل الخلقية التي يجب أن نغني بثها فيه ، ونقشها في ذهنه نقشاً يبقى فيه مدى الحياة .

إننا إذا تأملنا تلك الطبيعة ، ودققنا النظر في أطوارها وأحوالها لا نلبث أن نتبين فيها خصلتين بارزتين :
الأولى : عدم الاستقرار ، وسرعة التنقل من فكرة إلى فكرة ،
ومن عاطفة إلى عاطفة ، ومن عمل إلى آخر ، دون مناسبة أو رابطة ؛
فتراه يغضب ويرضى ، ويضحك ويبكى على التوالى ، بسرعة مذهشة ،
وبلا داع ، أو لداع تافه لا يذكر .

وهذا التزق ، وهذا الطيش ، كانا من أهم مميزات الإنسانية
في طورها الأول ، ولا يزالان ظاهرين في الأمم المتأخرة التي لا تزال في
أحط درجات الحضارة والعمران . فبينما ترى الرجل منهم يتهيج بسرعة
لأقل الأسباب وأوهاما ، إذ به لا يلبث أن يهدأ ويسكن لكلمة
بسيطة توجه إليه ، وبينما هو عدو مبين ، إذ به صديق حميم ؛ وتلك
حال يعرفها السائحون والكاشفون ، وكثيراً ما يستغلونها لفائدتهم ،
وإنجاح مشروعاتهم في تلك البلاد . وقد قطعت الإنسانيّة شوطاً
بعيداً في هذه السبيل ، وظلت أجيالاً وقروناً حتى انتقلت من الخفة
والطيش إلى الرزانة والاستقرار ، اللذين نشاهداهما الآن في أفراد
الأمم الراقية .

هذه هي سبيل الأمم في التدرج في الرقي ، وتريد التربية أن
تتدرج بالطفل في هذه السبيل ، ولكن على أن تقطع في بضع سنين
الأدوار التي قطعها الإنسانيّة في عدة قرون .

وعلاج الأطفال في هذه النقطة يسير لا يحتاج إلى عناء كبير ؛
 ذلك أنه يوجد في الطفل — بجانب نزقه وخفته — ميل كبير إلى
 التعود السريع ، فتراه إذا أتى عملاً جملة مرات يألفه ويعتاده ويواظب
 عليه بدقة مذهشة ، لدرجة أنه يغضب إذا اضطر للعدول عنه . فإذا
 أجلسه إلى المائدة في محل معين أياماً متتالية ، فإنه يسرع إليه ويجلس
 فيه من تلقاء نفسه ، وإذا اعتدى عليه أحد من إخوته وانزعجه منه ، فإنه
 يغضب ويغادر حجرة الأكل ؛ وكذلك يتعود الأكل بأدوات مائدة
 معينة ، ويحب ألا يخدمه إلا الخادم الذي اعتاد أن يخدمه ، وهكذا .
 الخصلة الثانية : ميله الفطري إلى تجاوز الحد في كل مقصد وبلوغ
 الغاية في كل مأرب ؛ فإذا أحب شيئاً ، فإنه يذهب فيه إلى أبعد مدى —
 إلى درجة النهم — وإذا منع منه ، فإنه يغضب ويبكى ويتمرغ على
 الأرض ، كما يقول « دارون » ، ويضرب وجهه بيديه ، ويدفع كل ما
 يعترضه من الأشياء في طريقه ، حتى ليخيل للإنسان أنه إذا تركه وشأنه
 على هذه الحال مات غيظاً وكداً . فالتربية الحقة تحتم وضع حد لهذه
 العواطف الثائرة ، التي إذا لم يكبح جماحها في الأطفال منذ الصغر ،
 ألقت بهم في هاوية سحيقة لا منقذ لهم منها .

ولقد صور الشاعر الألماني العظيم جوته — منذ مائة عام
 تقريباً — مقدار تملك العواطف للإنسان إذا لم تحد ... في شخصية

(فاوست) الذى يحدثننا التاريخ عنه بأنه رجل عاش فى القرن السادس عشر للميلاد ، وكان مثالا بارزاً للتعطش الزائد إلى ملاذ الحياة جميعاً ، والانسياك فيها ، وبلوغ أقصى الغايات فى كل ما يريد من علم ونفوذ واستمتاع ، فكانت عاقبة هذا الشره غير المحدود ، أن عاش طول حياته يعانى أشد الآلام ، ويقاسى أمراً الأحران ؛ وقصته مشهورة معروفة وهى تبسط كل ما أجملنا .

وقد توصل علماء النفس فى هذا العصر - بعد البحث والتنقيب والتجريب - إلى معالجة هذه الخصلة فى الأطفال ، وقرروا أن الطفل فى سنه الأولى يكون فى حال عقلية شبيهة بعقلية النائم بطريق الإغواء أو الإيحاء المغناطيسى .

التنويم المغناطيسى :

نعرف أنه يشترط لنجاح التنويم المغناطيسى شرطان أساسيان : الأول : أن النائم يكون فى شبه تبعية تامة للمنوم ، فتراه كأن إرادته قد سلبت ، وكأن عقله قد ألغى وخلا من كل فكرة ، وكأنه قد أصبح فى عزلة تامة عن الوسط المحيط به ، فلا يرى إلا شخص المنوم ، ولا يسمع إلا كلامه ؛ وعلى ذلك فكل فكرة يوحى بها إليه تدخل ذهنه فلا يجد فيه فكرة أخرى تنازعها أو تعارضها ، فيطيعها وينفذها بالفعل .

الثانى : يجب على المنوم أن يوحى إلى النائم الأفكار بصيغة الأمر « إني أريد » ، وأن يشعره بأن أمره نافذ لا محالة ، وأن واجبه أن يطيع

ويعتدل لهذا الأمر ، أما إذا خاطبه بغير صيغة الأمر الحاسم ، بأن شرع يناقشه في الفكرة الموحى بها ، فقد زالت كل سلطة له عليه . وهذان الشرطان متوفران في الطفل في علاقته مع المربي والوالدين .
أولاً : لأنه في هذه السن الصغيرة ، في حال تبعية لمربيه ولوالديه شبيهة بتبعية النائم للمنوم السابقة الذكر ، فإن ذهن الطفل ، وإن لم يكن خالياً من كل نقش (Table Rase) إلا أن مافيه من ميول وغرائز وتصورات شيء يسير لا يستطيع أن يقف حائلاً دون دخول الأفكار الجديدة فيه ، ولذلك كان الطفل سريع التأثر بالقذوة والمثل ، سهل الانقياد ، شديد الميل إلى التقليد والمحاكاة .

الثاني : لأنه إذا خاطبه المربي بصيغة الأمر ، فإنه يمتثل أوامرهِ ويطيع نصائحه بلا تردد ولا توان .

والتجارب البسيطة الآتية تؤيد ذلك كل التأيد :

إذا وقفت أمام طفل عمره سنتان ونصف سنة ، وقد شرع في أكل قطعة من الخبز ، وقلت له بصوت عال وبدون إبداء أى سبب : « الآن قد شبع الطفل » ، والحال أنه لم يتناول إلا اللقمة الأولى ، فإنه يلقى بقطعة الخبز الباقية إلى المائدة وينفض يده منها ، ويظهر أنه شبع تماماً . وقد أمكن بالطريقة عينها إقناع أطفال في سن الرابعة بأن الأم الذى يشكون منه عقب وقوعهم على الأرض - مثلاً - قد زال تماماً ، وأن ما بهم من عطش زائد قد أطفئ وزال كذلك ؛ كل هذا بشرط أن يكون الكلام الموجه إليهم في هذا الصدد بصيغة الأمر القاطع ،

ومن غير إزعاج الطفل وإيقاع الرعب في قلبه .

بهذه الطرق الحكيمة ، والأساليب العلمية الصحيحة ، يجب أن نأخذ النشء من بدأ حياتهم حتى يشبوا على ضبط أنفسهم وكبح جماحها ، ويتعودوا إيقاف كل رغبة من رغباتها عند حد معين ، فلا يطلقون العنان لواحدة منها حتى تتعدى طورها وتجاوز حدها ، فتضر بالمجموع ضرراً قد يورده موارد الخسران والهلاك ؛ فحياة الفرد كحياة الأمة : توازن قوى ، يحتوى بعضها بعضاً ، ويدفع بعضها بعضاً ، فإذا اختل هذا التوازن أعقبه الهلاك والفناء .

يقول مسيو (أميل دوركين) في كتابه (التربية الخلقية) : «إن أمة لا تفرح بالفن ، ولا تتذوق جماله ، أمة متوحشة ، ولكنها من جهة أخرى ، إذا لم تُشغل إلا بالفن خاصة ، مهملة بذلك شئونها الحيوية الجدية الأخرى ، بَشَرها بأن عمرها قصير وأيامها محدودة » .

وقصارى القول : إن النشاط الإنساني يجب أن يخضع في جميع نواحيه لنظام خاص ، وأن تتف كل ناحية منه عند حد معين ، وغاية محدودة ؛ فكما أن الإنسان إذا أراد أن يطفىء ألم الجوع - مثلاً - أخذ مقداراً معيناً من الغذاء ، كذلك الحال في المعقولات ، فإن الاجتهاد في تحصيل العلم إلى أقصى مدى ، يضر أولاً بالمجموع العصبي ذاته ، كما يضر بقوة الإرادة التي تأخذ - طبعاً - في الضمور والاضمحلال كلما غلا العقل وتوغل في كسب العلم .

التربية في إنجلترا

التربية في إنجلترا*

وموازنتها بالتربية في فرنسا

منذ عشر سنين أذكر أني قمت مثل هذا المقام بين جملة من المتخرجين في دار العلوم وطلابها، شارحاً شيئاً من آراء هربيرت الألمانى في التربية؛ واليوم أشرف بأن أقوم أمام جماعة المعلمين لأذكرهم ببعض ما يعلمون من آراء الانجليز في التربية والتعليم، والموازنة بينها وبين التربية والتعليم في فرنسا، على ما اتسعت له الطاقة وبلغ الجهد، لعلنا نجد في شيء من ذلك نقعاً للغلة، وإنهاضاً للتربية في بلادنا إلى مثل منزلتها العالية في الأمم الراقية.

وإن المعلومات التي سأذكرها لكم مستمدة من كتب فرنسية وضعها سنة ١٨٩٥ كتّاب فرنسيون تربوا في إنجلترا ودرسوا طرق التربية فيها، وعرضت كتبهم على المجمع العلمى فأقرها ونالت بذلك صبغة رسمية أو شبهة بها؛ وسترون من نص حديثها أنها كثيراً ما تؤثر الطرق الانجليزية على غيرها، وليس ذلك بدعاً فالفرنسيون لا يأنفون أن يحتذوا أمة من الأمم في فرع من الفروع إيثاراً للحق وضناً بالنفع واعترافاً بالفضل لأهلها، وما أعدّ لهم إذ يقولون: «أعطِ ما لقيصر لقيصر» ولئن يسّر الله لى غداً العثور على معرفة صحيحة في طرق التربية عند

* ألفت هذه المحاضرة على ملأ من رجال التعليم بنقابة المعلمين في يناير سنة ١٩٢١ ومايو سنة ١٩٢٥.

الأمريكان أو اليابان لا تقدمن في موافاتكم بها وإيقافكم عليها إن رأيت فيها ما يصلح من حالنا ويُقَوِّم من عِوَجنا .

« فالحكمة ضالة المؤمن ينشدها حيث يجدها » ، وتعلمون أن الأمة كالفرد لن ترق رقيها وتنزل منزلتها حتى توازن بين أسبابها وأسباب غيرها من الأمم الراقية ، أما إذا اعتزلت من عداها من الأمم فإن مثلها يكون كمثل الماء الراكد تنتابه عوارض الفساد ويصبح قرارة لجرائم الأمراض .

ولقد عامت بطول الاختبار أن علم التربية - على جلالة قدره وعظيم منزلته وجمال أثره في النفوس - يتركب من عدة قضايا صغيرة واعتبارات وملاحظات تظهر لأول وهلة أنها تقه لا يؤبه لها ، ولكنها مع المداومة وطول الأناة قد يكون لها من النتائج ما لا يكاد يتصوره الإنسان .
قل أن يقرأ الإنسان حكاية أو يسمع فكاهة دون أن يجد فيها غرضاً من أغراض التربية المتشعبة ويضيفها إلى باب من أبوابها المتفرقة .
ألا إن مجال فن التربية واسع المدى ، بل لا حد له ؛ ولا غرو فهو ضوع الإنسان ، وهو ذلك اللغز المغلق الذي حارت البرية في فهم كنهه والوصول إلى غوره

وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

نظام التربية والتعليم في إنجلترا :

إن نظام التربية والتعليم في إنجلترا يختلف اختلافاً ظاهراً عنه في فرنسا وفي غيرها من سائر الأمم الأخرى .

والإنجليز يتمسكون به ويحرصون عليه أشد الحرص ، ولن يقدر أحد من المصلحين على نقد قاعدة أو عادة منه أو نقض عقيدة من عقائده ولو كانت أشبه بالخرافة ، إلا أن يسلك إلى غرضه سبيل الملاينة ، ويبذل من الحكمة والمصانة قدراً عظيماً ، فإن لم يفعل فإنه يؤذن بحرب ويؤذى بكل لسان .

وإنا لباحثون في الأطوار التي يمر بها الشاب الإنجليزي والبيئات التي يجتازها من بداءته الأولى إلى أن يضع قدمه في معترك الحياة لنوفى الموضوع بعض حقه من البيان والشرح ، فنقول :

يمر الإنجليزي من مدرج طفولته إلى أن يكون كهلاً بيئتين عظيمتين ، كتأهلهما عالم في ذاته كامل في عده ، وهما البيت والمدرسة ، فيصقل فيهما صقلاً ويصاغ صوغاً يبقى أثره فيه مدى الحياة .

وفي كلا الوطنين يعني بتربيته تربية كاملة جامعة بين إنماء الجسم وتهذيب الخلق وتثقيف العقل ، لأن الانكليز لا يفرقون - كغيرهم - بين التربية والتعليم ، ولا يستطيعون أن يتصوروا في أنفسهم أن يقتصر عمل البيت أو المدرسة على تخريج رجال أفاضل مهذبن لا علم عندهم ، أو علماء متبحرين لا أخلاق لهم ولا خير فيهم .

فالتربية والتعليم عندهم يمتزج بعضهما ببعض ، لا ينفصل أحدهما عن الآخر ، حتى إن لغتهم نفسها - على سخائها - لا تجود عليهما إلا بكلمة واحدة جامعة للمعنيين هي كلمة (Education) أى تربية .

وإذا كانت الحكمة الإلهية قد جعلت تدرج الإنسان في أدوار

حياته سائراً على خطة معينة، فكان نمو جسمه وتيقظ وجدانه سابقين ظهور العقل، وجب على المربين أن يحتذوا مثالها ويجروا على رسمها بادئين بتربية البدن وتهذيب الخلق ومعقبين بتثقيف العقل، والآن نجلز تلاميذ الطبيعة فهم مغرمون بتقليدها في كل شيء .

التربية البيئية :

يتألف المجتمع الراقى الانجليزى من قبيلين من الناس : العصامين وهم الذين عرکوا الدهر وذاقوا حلو الأيام ومرها، ودرسوا أخلاق الأمم في مدرسة الحياة العملية (Self made men)، والعظامين المرتبّين في المدارس الذين تقيّئوا ظلال العلم في الجامعات العتيقة (University men)، وكلاهما من قبل منسّأ على أساس واحد فيه طابع التربية البيئية .

البيت :

عند الانجليز لفظ وجيز هو (Home) يعبرون به عن البيت ، وهو عندهم لفظ حسيب قيم ، قد يقل وجود كلمة تماثله في اللغات الأخرى . ذلك البيت بمعناه المفهوم عند الانجليز هو الحرم المقدس الذي لا يأوى إليه إلا أفراد الأسرة ، وله في قلب كل انجليزى منزلة لاتساميها منزلة ، يلهج بذكره أينما حل أو رحل ، ويطرب لسماع أحاديثه العذبة وذكرياته المحبوبة التي يعتقد أنه وحده الذي يحس جمالها ويدرك كنه تأثيرها ، ويتغنى بمجده وشرفه شعراً ونثراً بأنه حتى يتمتع الإنسان فيه بالراحة الهادئة والاستقلال التام ، وينعم بالأمن الذي لا وحشه معه والصفاء الذي لا كدر فيه .

فاذا دخلته هموم الدنيا الخارجية أو سمح أحد الزوجين لأجنبي - بعيد عن الجد والأدب - أن يطأ بقدميه عتبة فهو ليس بالبيت المنشود وإنما هو بناءٌ سُقِّف بسقف وأُضِيء من الداخل بمصباح ، أعنى أن له صورة البيت وليس بيت .

البيت الخلق بهذا الاسم عندهم هو ذلك الحرم المقدس المحفوف من جوانبه برعاية الله ، لا يعتوره الفساد من بين يديه ولا من خلفه ، ولا يدخله إلا من يقابل فيه بالترحاب من المخلصين من الآل والأصحاب .
وقد ترجمته بالبيت لأن البيت يأتي بمنى العيال ، فيقال « بيت الرجل عياله » ، ويأتي أيضاً بمعنى الشرف فيقال « بيت العرب شرفها »
عُمَيْرُ الْبَيْتِ :

وعُمَيْرُ الْبَيْتِ هو الزوج القابض على زمامه المتصرف في أموره ، يدير شئونه على ما يرى غير مدافع ولا منازع ، فهو الذي أسسه وشيد دعائمه ، والقانون والاجتماع يلقيان على عاتقه تبعة القيام بأعبائه وهديه إلى التي هي أقوم حتى يبلغ به أقصى درجات الكمال ، لا يسأل على ذلك أجراً إلا الطاعة والاحترام ، فهو يريد أن يكون أباً محترماً قبل أن يكون أباً محبوباً ، وقد انطبعت هذه الإرادة في نفوس بنيه وذويه حتى إنك لتسمع الشاب الانجليزى - أكثر ما يكون - يخاطب أباه بكلمة sir أى سيدى ، كما يخاطب الخادم سيده ، وقد لاحظ كاتب أمريكى - مع شئ من الدهش والاستغراب - أن المرأة فى إنجلترا تعتبر الرجل أرقى منها مكانة وأسمى منزلة ، فقال : « إن إنجلترا هى جنة الرجال »

والسبب في هناء الانكليزي في بيته ورغد عيشه أنه: أولاً يعرف كيف يحترم نفسه ، ثانياً أنه هو الذي أسس البيت وشيد دعائمه على نفقته فكان سيده، لأن أكثر الانكليزيات يتزوجن فقيرات لا يقدمن مهرأ، فلهذا ترى الانكليزي محترماً في بيته، أما الذين يطلبون المال من الزواج فهؤلاء لهم أن يطمعوا في المال كما يريدون ، ولكن هيهات أن يطمعوا في الشرف، بل لابد لهم من النزول عنه لمن اشتريه منهم بأموالهن، ولا ريب في أن النزول عن الشرف نزول عن الحياة، فإن الشرف غذاء النفس كما أن الطعام غذاء الجسم، فهما في قوام الحياة سَيَّيان؛ والله در الإمام علي إذ يقول: «احتج إلى من شئت تكن أسيره ، واستغن عن شئت تكن نظيره ، وأحسن إلى من شئت تكن أميره .»

وقد أكد ذلك الاحترام ما خوّله القانون إياه من السلطة التامة ، والتصرف المطلق في أموال الأسرة بأكملها ، فأمره طاعة، وإرادته ماضية على زوجه وولده ، لا يقتر على نفسه ابتغاء التوسعة عليهم ، ولا يتكالب على جمع المال ليتركه من بعده لهم .

وقصاراهُ أنه ملزم بمقتضى الرسوم القومية والقانون أحياناً - بردّ ضيعة بعينها أو وصية خاصة إلى بكر أولاده ، كما صنع أبوه من قبل ، وبعد ذلك هو مَلِك مطلق في مملكته، محترم بين رعيته احتراماً يكاد يكون دينياً . ولا كذلك الأب الفرنسي، فإنه في أسرته أشبه برئيس منتخب في مجلس نيابي أسس على المشادة والمناقشة . يقول مستر همرتن في كتابه (الانكليز والفرنسيون) المطبوع سنة ١٨٩١: «سألت فرنسياً

من أصدقائي: مabal أولادك يكلمونك بحرية تامة دون أن يظهر عليهم أنهم متأثرون بهيبة السلطة الأبوية؟ فأجبتني: وكيف ننتظر منهم احتراماً واعتباراً، ونحن قد علمناهم احتقار معتقدات آبائنا وأنظمة أجدادنا؟ إننا لم نغرس في قلوبهم خلة الاحترام.

قال: «وأما نظرية الانكليز في احترام الأبناء للآباء فتؤخذ مما يلي: عرفت شاباً كان لا يذهب إلى الكنيسة إلا نادراً، ولما رزق أربعة من الأولاد وبلغ البكر منهم سن العاشرة، أخذ يذهب إليها بانتظام، لا اعتقاده أن الدين من أزم الأمور العاملة في التربية، وأن من الواجب عليه أن يكون قدوة حسنة لأولاده كلما شبوا وترعرعوا. وكان يلعب (التنس) يوم الأحد في حديقته، فأبطل هذه العادة أيضاً تعزيراً لما يتلقاه أولاده في المدرسة من احترام ذلك اليوم، وترك العمل فيه اقتداءً بالخالق جل شأنه على ما يعتقدون، واستن لنفسه من ذلك الحين السُّنة الآتية: احترام إذا شئت أن تُحترم».

الزوج الانجليزية:

أما المرأة الانجليزية فتمتاز بالشجاعة والإقدام والصبر على احتمال المشاق، لانتهم كثيراً بما يأتي به الغد ولا تهاب ما قد تضمه لها الأيام والأسفار البعيدة من المبالغات والمفاجآت، فهي ظل زوجها حيث سار، تشاطره الخفة في الحركة، والمضاء في العزيمه بما أوتيت من بسطة في الجسم ومتانة في الخلق، فهي زوج تحرص قبل كل شيء على القيام بواجبها نحو زوجها على أفضل ما يكون، ثم تُغني بترية أولادها على أكل

وجه وأتمه، فهي زوجة قبل أن تكون أمًا، بخلاف المرأة الفرنسية فإن حبها لولدها يقدّم كل شيء، ثم يأتي بعد حبها لبعلمها، حتى كأنما هي أم قبل أن تكون زوجًا، وقد تغلو في ذلك إلى حد الإخلاق إلى الراحة والأمن والاكتفاء بقليل من سعادة داخلية يسيرة، فلا تجشم زوجها صعب الأسفار وركوب الأخطار، لأنها لا تبتغي الانفصال عن أولادها والتغرب عن أوطانها، فكم من هم ثبطت، وأعمال أحبطت، ومشروعات أبطلت، يركونها إلى الدعة وإفراطها في الحنو على أولادها.

ذهب العالم الطبيعي الفرنسي (ملن أدواردز) لزيارة أكسفورد مرة، فأخذ الدهش من قلة ما يدرس فيها من العلوم، وبينما كان ذات ليلة يستريح مع من كانوا مكلفين مرافقته، وكان من بينهم أستاذ علم الجيولوجيا، وهو معروف بالصراحة التامة، إذ قال لهم: ما بال الشبان الانكليز لا يتعلمون في المدرسة إلا قليلا من اللاتينية واليونانية، ويقضون بقية أوقاتهم في لعبة الكريكت والسباحة والجذف، ثم يصبحون من غير عناء رجالا من الطراز الأول، وحكاما حاذقين، وسياسيين محنكين كبامرستون وغلادستون؟ فأجابه أستاذ علم الجيولوجيا من فوره "They have got English Mothers" أي: ذلك بأن لهم أمهات إنجليزيات. والجواب على بعده من الظرف والمجاملة اللائقة بالضيف، فإن فيه أكبر قسط من الحقيقة، لأن الأم المهذبة من أهم العوامل الناهضة بالأولاد إلى ذروة السعادة والمجد. ولقد أحسن شاعرنا «حافظ» إذ يقول:

والأم مدرسة إذا أعدتها أعددت شعباً طيب الأعراق

الأم الأنكليزية تشغف بأولادها ، وتقوم بالواجب لهم خير قيام ، فترضعهم بنفسها وتشرف على حركاتهم وسكناتهم كامل الإشراف ، ولكن لا يرى على وجهها أو من خلال أعمالها ذلك الخنو الزائد وتلك الشفقة التي تفيض عادة من غيرها من الأمهات ؛ فهي تسير في تربيتهن على قاعدة قوية وخطة مرسومة ، فتدعهم منذ نعومة أظفارهم يكابدون الحوادث ويمسسون الأخطار بأنفسهم ويتعرفون ماحولهم ، ليميزوا الخبيث من الطيب ، وليفرقوا بين الغث والسمين ، واضعة نصب عينها أمراً مهماً ، هو غرس بذور الرجولة في نفوسهم وتكوين مبادئ الشجاعة والشهامة في طباعهم ، حتى إن الواحد منهم إذا همَّ بالبكاء عند وقوعه على الأرض ابتدرته بقولها له "Be a man" أي: كن رجلاً ولا تبك ، فإن البكاء المسموح به لأختك عار عليك . يسمع الطفل عشرين مرة في اليوم « كن رجلاً ولا تبك فإن البكاء عار على الرجال » فتؤثر في نفسه بالتكرار والاستمرار ، وقد شوهد كثير من الأطفال قبل أن يعرفوا القراءة والكتابة ، بلغ من تربيتهم على هذا النمط أنهم يملكون أنفسهم ويضبطون عواطفهم حتى إنهم ليسكون عن البكاء إذا مسهم الضر أو نالهم أذى ، وبينما هم كذلك يدرجون في مدارج الرجولة ويدربون على تذليل العقبات ، إذ بالشاب الفرنسي لا يزال غراً لا يعي من ذلك شيئاً لوجوده بين اثنين : أم لا تدعه لحظة يعاني المصادفات ويقاوم الطبيعة ، ممسكةً رجله حتى لا تزل قدماه إذا كان صغيراً ، قابضة على زمامه كي لا يركب شططاً أو يأتي غلطاً إذا كان كبيراً ، وأب يظل نهاره

يكدرح في جمع ثروة يتركها له من بعده، فهو بين أبوين: أم تسعده الحال، وأب يكفل له المستقبل.

مطبعة مرام (أ) ومرام (ب)

مدام (أ) باريسية تقطن باريس وتربي أولادها على النمط الفرنسي طبعاً.

ومدام (ب) باريسية أيضاً، ولكنها سكنت مدينة لندن، فربت أولادها على الطراز الانكليزي.

وحدث أنهما حضرتا معاً في العطلة الصيفية إلى ريف فرنسا وأقامتا بقريتين متجاورتين.

وكانت المسافة بين منزل مدام (أ) ومدرسة ابنتها خمسمائة متر، حين كانت المسافة بين منزل مدام (ب) ومدرسة ابنتها أربعة كيلو مترات، ولكن مدام (أ) - مع قرب مدرسة ابنتها من المنزل - كانت ترافقه إليها ذهاباً وحيئة لا تقتر عن ذلك يوماً واحداً.

أما مدام (ب) فقد وكلت ابنتها في ذهابه إلى المدرسة البعيدة عن منزله إلى نفسه، فكان (وهو في سن ابن صاحبها) يخرج من البيت وحده مبكراً متأبطاً كتبه كالرجل المعتمد على نفسه، ويقطع الكيلو مترات الأربعة ذهاباً ومثلها إياباً دون أن يشغل بال أمه به.

تلك هي شفقة الأم الفرنسية، وهذه شجاعة الأم الانكليزية، وكلاهما أمر حسن تحمد المرأتان عليه، وإن أثرنا الثانية على الأولى. ولكن ماذا ترون في الأم المصرية التي تسلم بناتها وبناتها إلى

الخدم ، وهم كما نعهد من أجهل الناس وأحطهم تربية وأسوأهم أخلاقاً ؟
 لماذا لا نصحب أبناءنا وبناتنا إلى مدارسهم ومواطن حاجاتهم ،
 ونشفق بهم - وهم أفلأذا كبادنا - أن يقبض على أزمستهم من الخدم
 من يخشى أن يؤثر فساد أخلاقهم فيهم ؟
 لعمرى إنها ثمة في بناء تريتتنا المنزلية لا بد من سدها ، وعلة من
 عللنا الاجتماعية لا بد من علاجها ، لأننا ناهضون والناهض لا يدع
 فاسداً إلا أصلحه ، ولا يعرج على معوج إلا قومه ، ولا يلوى على
 شعث إلا كملته .

المرسة الانجليزية :

يرزق الانجليزى عادة جماعياً غيراً من الأولاد يجهئون متتابعين ،
 فيعنى بوضعهم في حجرة منعزلة خاصة بهم تجرى عليهم فيها أحكام التربية
 في سنينهم الأولى ، وتسمى بالمربية (Nursery) ، والعوامل الأساسية التي
 يجب أن تتوافر في المربية ثلاثة : الأم والمربية والهواء ، وقد وصف
 الشاعر الشهير (راسكن) المربية الراقى ، ذا كراً عهد طفولته
 فقال : إنه حجرة في الطبقة الأولى من المنزل فسيحة الأرجاء ، متجددة
 الهواء ، وفيرة الضوء ، تامة النظافة ، غاية في السذاجة ، ينام فيها الطفل
 ويأكل ويرتع ويلعب ، لا يخشى كسراً لآنية ثمينة أو إقلاق راحة أمه
 المريضة أو التهويش على أبيه المنكب على عمله ، بها حوض كبير
 يستحمون فيه كل صباح بالماء البارد ليزدادوا قوة ونشاطاً ، ويراعى في
 لباسهم السذاجة والسعة والنعومة ، إذ ليس الغرض منه الزينة والتباهى

بجمال الثياب ، بل الغرض الوقاية من البرد والمطر والهواء مع تمتع الأعضاء بالحركة الحرة والجري واللعب على ما يشتهي الأطفال ، وهم يأكلون معاً في مواعيد مقررّة ، وطعامهم غير متأنق فيه ولا متكلف ، ويخرجون كل يوم للتنزه صيفاً وشتاءً مستنفيدين الساعات في الجري والوثب والظفر وتسلق الأشجار والتدحرج على الأعشاب ، متحمّلين في ذلك تبعّة أعمالهم ، وعليهم وحدهم يقع الضرر الذي ينجم عن عدم إعمال الروية والتبصر في عواقب الأمور قبل البدء في تنفيذها .

هذا هو المرّبي الحائز جميع الشروط ؛ وما كاد يصفه كاتب شهير كراسكن ويشير به ، حتى تبعه قومه في كل ناحية واتخذته جميع الأسر أنموذجاً صالحاً يقتدون به وينسجون على منواله ؛ والانكليز أكثر الناس اتباعاً لأقوال حكمائهم وعلمائهم وأسهلهم قياداً واستسلاماً لأوامر رؤسائهم ، فإذا قال راسكن فالقول ما قال راسكن ، وإذا قال سبنسر فالقول ما قال .

وتلك الطاعة المنبعثة عن الرضا ، الخالصة من شائبة الإكراهي من صنع التربية الانكليزية التي أتقنت غرس النضائل الاجتماعية العالية في نفوس أفراد الأمة ، لأنها الأساس الذي يقوم عليه بناؤها . وأذكر على سبيل الاستطراد حكاية لا تعزب عن ذهني كلما ذكرت الطاعة :

اشتهرت قبيلة عبس بالحكمة في القول والسداد في الرأي ، فقليل

لرجل منهم : « ما أكثر صوابكم ! » فقال : « نحن ألف رجل وفينا حازم واحد وكلنا نطيعه فكأننا ألف حازم »

وبينا الطفل الانجليزى يشب فى المرَبى على مبادئ الديمقراطية الصحيحة ، يعيش فيه كفرد من أفراد المجتمع ، له ما لهم وعليه ما عليهم ، لاسلطان له على أحد من إخوته ولو كانوا أصغر منه سنًا ، نجد الطفل الفرنسى يعيش فى حضن أمه ملازمًا لها ملازمة الظل للعود ، حتى لقد يلهمها عن العناية بالتزين والتجمل ، ويجلس إلى المائدة مع أمه وأبيه وإخوته متى استطاع الجلوس ، فهو ش عليهم ببكائه ، ويوسعهم من تدلله وصغبه ، والكل خاضع لأوامره ومنفذ لرغائبه ، فعجيب ألا يشب هذا على حب الذات وقلة الاكتراث للتبعات .

إذا انتهى طور الطفولة انتقل الأولاد منه إلى مدرسة هى فى نظر الانكليز أم المدارس نفعًا وأنجعها فى نفوس النشء ، ألا وهى الأسرة . كثير من الأمم يعتقدون أن الخير كله فى معالجة أبنائهم بالذهاب إلى المدرسة ، ويظنون أنه خير مكان يقضى فيه الطفل شطرًا وافرًا من عمره ، أما رأى العام فى انكلترا فلم يذهب مذهبهم ولم يرد أن ينتهج مسلكًا يناقض النواميس الطبيعية وبديهيّات المنطق .

يقول الانكليز : كيف يعقل أن يكون بيت الانسان أقل البيئات ملاءمة لأولاده ومعاشرته أقل فائدة من معاشرة الغرباء ؟ ألا إن الانكليز يعدون عيبًا وعارًا ألا يكون الإنسان هو المدرس الأول

لابنه ، وألا تكون بيوتهم مجهزة بكل أداة صالحة للإعداد الكامل للطفل وغرس أصول الفضائل في نفسه ، فكأنني بهم يقولون :
« ماحكٌ جلدك مثل ظفرك »

فتول أنت جميع أمرك »

وإن كثيراً منهم ليسيتون الظن بالمدارس ، ويرون أنها أردأ البيئات وأقلها صلاحاً تهديب الأخلاق لاختلاط السليم فيها بالأجرب . لذلك لا يكر الانكليز بفصل أولادهم عن البيت إلى المدرسة إلا قبيل العاشرة من عمرهم ، من بعد أن ينقش على صحائف أفئدتهم صورة جميلة من البيت وذكريات الطفولة ، لا يزال يطويها وينشرها ويتغلغل في نواحي نفسه حب الوطن مهما بعدت الدار وشط به المزار .

فليس عجباً أن يجمع الانكليزي بين متناقضين : إنفاق زهرة العمر وريعان الشباب مهاجراً متغرباً تشرق به قاصية الأقاليم كالذين لا أهل لهم ولا وطن يضمهم ، والإغرام في آن واحد ببيتته والولوع بحب وطنه ، رافعاً عقيرته متغنياً بهما أينما حل أو رحل .

وإذا لم تتمكن الأسرة من القيام بهذا الواجب لأسباب قاهرة ، أو كان الأولاد قد نضجت أفكارهم ونزعوا إلى علم أوسع ومعارف أرق مما يتهيأ لهم في منازلهم وتحت رعاية آبائهم ، يرسلون إلى مدارس خاصة (Private Schools) يقوم بشئون التربية فيها رجل وامرأته ؛ أما الرجل فمن أفضل الناس رقة حاشية ، وكمال أدب ، وكرم عشرة ، وحسن معاملة ، فهو ممن يسميهم الانجليز (gentlemen)

ولقد أحسن الشاعر العربي في وصف ذلك السرى المقصود بتلك
الكلمة الانجليزية ، حيث يقول :

ومن ذا الذى ترضى سجاياه دائماً

سوى الفاضل الندب الأديب المحرب

تراه بماء اللطف طَهَّر ثوبه

وزين حَوَّاه بخلق مذهب

إلى هذا السرى الذى أكثر ما يكون أستاذاً من أساتذة الجامعة
(Aggrégé) ، يدفع الوالد ولده وفلذة كبده ، واثقاً من أنه سيتعهد بذور
الصلاح فى نفسه ، ويجعل يومه خيراً من أمسه ، ويغرس فى نفسه مكارم
الأخلاق ومحاسن الشيم ، عالماً أنه لن يسمع ابنه معه هُجراً فى قول ، ولا
يرى منكراً من عمل . يقبل هذا السرى فى داره من عشرة إلى عشرين
تلميذا يعيشون معه ويقوم بتربيتهم وإعدادهم للتعليم الثانوى ، وإذا
اضطُر إلى قبول أكثر من هذا العدد تخلى عن بعض أعماله الأخرى ،
أو استعان بسرى آخر من إخوانه المدرسين .

وأما الزوجة فهي من فضليات النساء ، تشرف على كل ما هو قوام
للحياة الداخلية من مأكل وملبس وما يتصل بهما من الشؤون .

وهذا الطراز من المدارس كثير الانتشار جداً فى إنجلترا ، وتقتصر
هنا على ذكر اثنتين منه نضربهما مثلاً لقومنا ، لعل فريقاً منهم ينصبون
أنفسهم لخدمة بلادهم لهذا النوع من التعليم ، وفيه عدا ذلك لهم الحرية
والغنى والشرف الدهر كله :

أولهما مدرسة (Bowden Hose School) بالقرب من (Harrow) وهي تقبل التلاميذ من سن السابعة إلى الخامسة عشرة، ويتقاضى أستاذها عن كل تلميذ مرتباً يتراوح بين الثمانين والمائة جنيه في العام .
والثانية مدرسة في (Isle of Wight) قام بتأسيسها جماعة من خريجي (Cambridge) واشتروا لها قصر الكونت (Yarborough) وتبلغ مساحته سبعمائة فدان انكليزي ، ولا تقبل هذه المدرسة - على اتساعها المفرط - أكثر من خمسين تلميذاً .

وفيها قسم لتعليم الحياة الاستعمارية (Colonial Life) فيمرّن الأطفال في هذا القسم على الأعمال الزراعية ويُعطون ضيعة يقومون بإدارة شئونها ويعلمون اللغات الذائعة (الحية) وخاصة الهندوستانية ، ويمنح الطالب الذي يبلغ سن السابعة عشرة حق اصطيد طيور المدرسة .
وشجاعة تلاميذ تلك المدارس يضرب بها المثل .

حكى مسيو (تين Taine) في كتابه (Notes Sura 1. Angleterre) أنه رأى غلاماً صغيراً ممتطياً برذوناً ووراءه أخواته الكبيرات ، وفيما هم سائرون في وسط الحقول إذ رأوا ثوراً ضخماً يتطاير الشرر من عينيه ، فالتفت الغلام إلى أخواته وقال لهن : أيتها الفتيات اتبعنني ولا تحفن مكروهاً .

مما تقدم يرى أن الدعامة الكبرى التي يرتكز عليها صرح التربية الانجليزية إنما هي الثقة بالأطفال بمجرد أن يدرجوا ويفهموا ، إذ يولكون إلى أنفسهم في جميع أمورهم : في المربى ثم في البيت ثم في المدرسة .

نعم يثقون بهم في أعمالهم فيتركون لهم الحرية التامة في اختيار السبيل التي يسلكونها ، بعد إيضاح الجادة لهم وإنارة الطرق أمامهم ، فإذا لم يجيدوا الاختيار ، فعليهم وحدهم يقع الضرر ، وكذلك يثقون بكلامهم فهم صادقون في حديثهم مصدقون في أهلهم وخلقائهم ، إلا أن تقوم حجة على غير ذلك .

وتلك هي الطريقة المثلى التي هداها إليها المُرَبِّيُّ الكبير الدكتور (توماس أرنولد) من أكثر من نصف قرن ، كما سنذكره بعد ، وهم يدينون بها ويحرصون أشد الحرص عليها . والغرض الذي يرمون إليه من اتباع هذه الطريقة هو توعيد أولادهم النشاط في العمل ، والصراحة في القول ، والاستقلال في الرأي ، والدُّرْبَة على الثقة بالنفس والاعتماد عليها ، وإيقاظ الشعور بالتبعة فيهم وقدرهم إياها منذ الصغر قدرها ، فهم واثقون بأنفسهم وجديرون بالثقة فيهم : « They are self reliant and reliable » هذه هي أهم الفضائل التي يجهز الانجليز بها أبناءهم للنزول إلى معترك هذه الحياة ، لأن الولد أولاً لا يعتمد على ميراث من أبيه الذي خوله القانون حرية التصرف في أمواله ، وكثيراً ما قدياً تُتَى على رأس المال . والأب الانكليزي من جهة ثانية لا يرى حقاً عليه الإنفاق على أولاده وتعليمهم إلا إلى سن السادسة عشرة من أعمارهم ، ثم يتركهم لأنفسهم ويلقى حبلهم على غاربهم ماعداً البكر منهم وإن كان ذلك في غير الأسر العالية والعشائر الغنية .

لهذا وذاك ينزل الشاب الانكليزى إلى ميدان الحياة ، وليس يخامر فكره أقل شك فى أن عبء حياته كله ملقى على عاتقه ، وأن سعاده معلقة على جده وسعيه ، وأن ليس له سلاح إلاّ الاعتماد على نفسه . فهو مسوق إلى العمل بقانون الضرورة ، مضطر إلى السعى بحكم الحاجة ، والحاجة تفتق الحيلة .

ومما يجدر بنا أن نلاحظه ولا نغضى عنه ، أن أخذ الانكليز أنفسهم بالتربية على هذا الوجه من المغالاة فى الاعتماد على النفس والاعتماد بالذات (Individualism) ، من شأنه أن يضعف الرابطة القومية فيهم .

لذلك كانت الأسرة الانكليزية محصورة بين جدران البيت منتهية بانتهاء حدوده ، فلا يكاد الانكليزى يعرف ذلك الجيش الجرار من ذوى قرابته وأولى رحمه من الأعمام والأخوال والعمت والخالات ، ومن يدلى إليهم بسبب أو يمتنون إليه بلحمة النسب ، وهو يقول فى أولاد العم : مانفع أبناء الأعمام ؟ إنهم لآصدقاء ثقلاء ، وإن الصديق الحق هو من وقع عليه اختيارك واصطفيته لنفسك .

وإن مثل الحكاية الآتية لبرهان على صحة ما نقول :

تقطن مدينة لندن أسرة إنكليزية مؤلفة من أب وأم وابنتين ، ويتم أعضاء هذه الأسرة ابنان انفصلا عن محيط دائرة المنزل ، يحترف أحدهما مهنة الزراعة على بعد نصف ساعة من لندن ، ويتجر الثانى فى الماشية ببلاد الناتال ، فرعلى الأول ستة أشهر كاملة لم يحسّ به الشوق

أثناءها إلى أن يزور أهله بمدينة لندن على قرب مزارهم منه :
 وأقرب ما يكون الشوق يوماً إذا دنت الديار من الديار
 أما الثاني : فكان مبلغ ذكراه وحنينه إلى أهله أن يكتفى في كل
 عام بكتاب واحد يبعث به إلى أمه أعطف الناس عليه وأبرهم به ،
 وكذلك كانت حال سائر الأسر المقيمة بلندن ، فإن البنين على رقة
 عواطفهما ، كانتا إذا جرى بينهما الحديث عن أخويهما البعيدين عنها لا يبدو
 منهما ما يدل على أنهما متألمتان لجفائهما ، متأثرتان من عدم مكاتبتهما .



التعليم الثانوى

إذا بلغت سن الطفل الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة، وأصبح - بفضل
المران فى البيت أو فى المدرسة الخصوصية والدربة على العمل - فتى
قادرًا على احتمال معايشة الغرباء ودفع أذى الخلطاء، ألحق بالمدارس الثانوية،
وتسمى عندهم بالمدارس العامة (Public Schools) وهى كثيرة غير
أن المشهور منها تسع وهى :

Eton. Harrow' Rugby' Wellington' Winchester' Westminster.
Charterhouse etc.

وقد امتازت هذه المدارس بتربية أبناء الطبقات الحاكمة والأسر
الغنية، فأخرجت بامرستون وغلادستون وأمثالهما من نوابغ الانجليز
وحكائهم .

وهذه المدارس التسع هى التى نفذت فيها لأول مرة طريقة الوصايا
التي هى أساس التربية الانجليزية

وإنى لا يسعنى فى هذه العجالة الطواف بتفاصيل كل واحدة منها،
لأن هذا يستغرق عدة محاضرات، لذلك أقصر الكلام على إحداها، وهى
مدرسة Rugby لا حرازها قصب السبق فى إدخال إصلاحات هامة فى
التعليم الثانوى فى انجلترا بفضل نبوغ ناظرها الحكيم الدكتور
(توماس أرنولد)

والغرض الأول من التربية فى هذه المدارس، هو إعداد الطفل

لأن يكون في المستقبل رجلاً شريفاً شجاعاً، ووطنياً عاملاً.
ومن المثليين الآتين يتبين مقدار الارتباط بين طلاب المدارس
وذلك الغرض الجليل :

١ - كتب أحد الطلاب بمدرسة (Rugby) في صحيفة المدرسة الثانوية
مقالاً جاء فيه : إننا معشر الطلاب نكوّن اجتماعاً حقيقياً نعيش فيه
لا نتعلم فحسب، بل نتعلم ونعمل ونحيا كأطفال سيكونون في الغد رجالاً .
٢ - وقال (توم بروان) في كتاب Tom Brown School days (حياة
توم بروان المدرسية) وهو كتاب وضعه أحد خريجي هذه المدرسة
أتى فيه على حياة الشاب الإنجليزي من بدايتها في المدرسة إلى دور
الزواج ، وهو كتاب كثير الانتشار بين المتعلمين في انكلترا ، وكل واحد
منهم يقرأ فيه صفحة ماضية من حياته الخصوصية ، وصورة مطوية
من ذكرياته المدرسية .

قال في أول الكتاب : إنه وصل إلى المدرسة في الساعة الثالثة بعد
الظهر راكباً عربة (لأن ستة الخطوط الحديدية التي تتقاطع الآن
في Rugby لم تكن أنشئت بعد) ، وبعد أن استقر به المقام تذكر
النصائح التي ألقاها عليه أبوه قبل مغادرته البيت ، وكذلك تذكر مصاحته
إياه باليد لأول مرة في حياته ، بدل التقبيل الذي من العادة أن تحيي به
الأطفال ، وفي ذلك رمز إلى أن الذي يسلكه أبوه في المدارس العامة رجل
ينبغي أن يُحيي بتحية الرجال .

أما تلك النصائح التي زوده بها أبوه فإنها آية في الحكمة وغاية في

السداد ، فقد قال أبوه : إني ترددت طويلاً في اختيار الكلمة التي أجعلها له عظة ماثلة بين عينيهِ في سفره ، فقلت في نفسي :

إذا أنا نصحت له باجتنب ملهيات الطريق وضبط النفس من الوقوع في المفسد ، فربما لا يفهم لما أقول معنى ، ولعلّ بذلك أكون نهته إلى ما كان مصروفاً عنه . وإذا نصحت له بالجد في الدرس والتشمير في تحصيل العلوم ليصبح عالماً ، فليس ذلك غرضي أو بالحرى ليس ذلك إلا جزءاً من الغرض الأكبر الذي أنصبه له وأتمنى أن يناله . وبعد خواطر جالت ثم زالت وقع في نفسي أن أوصيه بأن يكون رجلاً شجاعاً ، شريفاً ، نشيطاً ، وطنياً ، سرياً ، مسيحياً « Christian Gentleman » ولا أتمنى له المزيد .

من هذين المثلين يتبين أن الغرض الأول من التربية الانكليزية إنما هو تكميل النفس بالفضائل العالية وتحليتها بالأخلاق الكريمة . أما تكوين العقل وتثقيفه بالعلوم والمعارف فليس إلا جزءاً من ذلك الغرض الأسمى ، فهم أحق من يتمثل بقول شاعرنا :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت

فإن هم ذهبوا أخلاقهم ذهبوا
والآن أرى من الواجب أن أقول كلمة عن ذلك المربي الكبير الدكتور (توماس أرنولد) الذي كان ناظراً لهذه المدرسة أربع عشرة سنة ، حارب في خلالها كثيراً من الطرق العقيمة ، التي كانت متبعة في المدارس الانكليزية ، ونجح في وضع مبادئ جديدة حازت الرضا من الإنجليز

عامة وسرت من مدرسته إلى سائر المدارس الأخرى .

وإذا تناول البحث مسألة التربية والتعليم في إنجلترا فإنهم يبدءون باسم (توماس) مقرونًا بالآجل والاحترام ، ومع أنه قدمضى على وفاته نحو ثمانين سنة ، فهم لا يزالون إلى اليوم يقدسونه ويعظمون ذكره كما كانوا يقدسونه في أول يوم بدا لهم فيه سر إصلاحاته الحكيمة ، التي لم يسبروا غورها البعيد إلا بكرة الأيام ومر الأعوام .

كان (توماس أرنولد) في أول أمره قسًا خامل الذكر ، ذا روح متوقدة وغير مشتعلة ، ظل يجاهد في سبيل التربية زمانًا دون أن يشعر بنبوغه أحد ، وكان ذا نظر ساحر يقرأ في الوجوه ما تكنه الضمائر ، فكان لا يقوى أحد أن يكتمه أمرًا أو يخفي عنه سرًا ، هذا إلى أنه كان ذا تأثير يشبه تأثير المغناطيس ، فكان لا يجتمع به أحد إلا اجتذبه إليه وسحره بتعاليمه . وقد قرأت في دائرة المعارف الإنجليزية أنه لما خلت وظيفة ناظر مدرسة Rugby سنة ١٨٢٨ طلب إلى مجلس إدارة هذه المدرسة الالتحاق بها وشفعه بشهادة قال كاتبها : « إذا وقع الاختيار على المستر أرنولد فإنه سيغير وجه التربية ويقلبها رأسًا على عقب في جميع المدارس العامة في إنجلترا » وهاك النص الإنجليزي :

« If Mr. Arnold Were elected he Would change the face of Education all throug the public Schools of England »

ولقد صدقت فراسة ذلك الكاتب في أرنولد ، وكأني به يقول له

بلسان البارودي :

وَقِيَتْ بِمَظْنِ الْكَرَامِ فِرَاسَةً بِأَمْرِي وَمَثَلِي بِالْوَفَاءِ جَدِيرٌ
وقد بقي يعالج تربية النشء بما أوتي من حذق ومهارة، ويبحث فيهم
روحاً ومبادئه الجديدة حتى أخرج لبلاده فتیاناً شداداً نافعين، ورجالاً
قادة كانوا هم أبلغ إعلان لفضله وعلو كعبه وأكبر عامل في إذاعة صيته
في أركان البلاد الإنجليزية .

وكان (توماس أرنولد) من ذلك الصنف من الشبان الذين يهتمون
بالشئون العامة كل الاهتمام، ويتتبعون سير الحوادث في بلادهم بكل
نشاط وإمعان، فكان لا يكاد يمر يوم إلا ويؤلف في التاريخ (تاريخ
الرومان)، ويكتب المقالات الرائقة في المجالات العلمية ويكتب الجرائد
السياسية، ثم يجد مع هذا من الوقت ما يكفي لإدارة مدرسته إدارة
حكيمة .

وكان يقول في هذا الصدد: « إنني كلما شحذت ذهني بالمسائل الخلقية
وجلوته بالمرانة على الكلام في أمم الأمور السياسية، عاد ذلك بالفائدة
الجمّة على مدرستي » .

وفي سنة ١٨٤١ وصله كتاب من (اللورد ملبورن) رئيس الوزارة
إذ ذاك، يعرض عليه وظيفة مدرس للتاريخ الحديث في جامعة أكسفورد،
فقبل شاكراً وفرح لذلك فرحاً شديداً، وأقبل الطلاب على درسه إقبالا
وكانوا يتنافسون في الحصول على مذكراته وطبعها ونشرها بين الناس .
ولكن مع الأسف لم تدم سعادة الطلاب به طويلاً، فما هلت سنة
١٨٤٢ حتى وقع غير المنتظر، وحدث ما ليس في الحسبان، إذ فوجئوا بنبأ

وفاته بذبحه صدرية لم تمهله إلا بضع ساعات ، بذل له في خلالها كل إسعاف وكل علاج ، ولكن ماذا يفيد العلاج إذا حم القضاء وجاء الأجل ؟ وقد استولى الهلع على طلاب المدارس الذين كانوا يتفانون في حبه ، وأخذوا يتساءلون - فيما بينهم - عن رحي العمل في المدارس : هل ستظل دائرة بعد أن وقف محركها الأكبر ، وخفت صوت سائسها الحكيم ؟ وإنا نذكر هنا طرفاً من آرائه السديدة في التربية فنقول :

١- ليس من مذهب توماس أرنولد في التربية مراقبة الأطفال مراقبة دقيقة ، وقد قال في ذلك : « إنى أريد أن أعلم الأطفال أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم ، وذلك لعمرى خير من أن أحكمهم بنفسي »

ذلك قولٌ حكيم وفكر ثاقب ، يجب أن يتدبره ويفهم مغزاه أولئك المربون الأتوقراطيون الذين يحاسبون الأطفال على الهمة ، ويعاقبونهم على اللثفاته ، ويريدون أن يقبضوا عليهم بيد من حديد .

يقول توماس أرنولد : « إن هؤلاء واهمون في فهم رسالتهم ، إذ ليس الغرض من التربية أن نخرج عبيداً ضعافاً أذلاء ، بل الغرض أن نخرج سادة أحراراً كبار النفوس ، يتمتعون بالرأى والحرية التامة في كل ما نعرضه عليهم من الأعمال . وإن سلبهم هذه الحرية أو محاولة سلبهم إياها لهو عين الخطل والخطر ، فلندع الأطفال ينفردون بأنفسهم ويخلون إلى ما حولهم ويصرفون قواهم ويجولون فيما بين أيديهم من الأشياء ، ليتعرفوا السلطة ويذوقوا طعم الإمارة ويشعروا من نشأتهم بالتبعة التي هي دائماً قرينة الرياسة ولازمة لها »

٢ - حدث في المدرسة مرة ما اضطراب أفضى إلى إبعاد بعض الطلاب فقام توماس يخطب فيهم خطبة شهيرة سجلت له في تاريخ التربية، قال : « ليس من الضروري أن يوجد بالمدرسة أربعمئة طالب ولا مائة ولا خمسون، ولكن من الضروري ألا يوجد بها إلا سادة مهذبون Gentlemen » فكانت خطبته هذه - على قصرها - برهاناً صريحاً على فساد الرأي السائد إذ ذاك في فرنسا وإنجلترا، القائل بأن المدارس تصلح الطبائع الفاسدة، وهو رأي عقيم لأنه يجعل المدرسة ملجأ لصلاح الفاسد وتقويم المعوج، أو يجعلها بؤرة عفنة في نظر الأخيار الصالح من الطلاب . وكان هذا الرأي فاشياً إلى حد أن آباء الطلبة كانوا يعتقدون أنه ليس للمدرسة حق طرد أبنائهم منها إلا إذا ارتكبوا أغلاطاً جسيمة؛ أما توماس فكان لا يرى رأيهم، وقد كتب العبارة الآتية : « إن أول واجب على كل ناظر مدرسة أن يتخلص من الطبائع العقيمة » .

قال يتخلص (to get rid) ولم يقل يطرد أو ينفي، واستعمل كلمة الطبائع العقيمة (unpromising) تنبيهاً إلى أنه ليس من الضروري أن يرتكب الطالب هفوة ليبعد عن المدرسة، بل يكفي أن يظهر من اختبار غرائزه أن وجوده في المدرسة لا يفيدُه وقد يضر غيره بالاحتكاك والمخالطة .

ولذلك كان توماس إذا ظهرت له أعراض تلك الطبائع يكتب رجاءً إلى والد الطالب، أن يسحب ولده من المدرسة . والذي يتأمل كلام توماس

في هذا المعنى يرى أنه ينصح بإخراج رجال نابغين ولو لم يتجاوزوا الأصابع عدداً ، بدل إخراج عدد عديد من المتوسطين من الرجال ، أو بعبارة أخرى : أنه يفضل أقلية عالية ممتازة على أكثرية منحطة أو متوسطة .

وهذا بعينه هو قانون تنازع البقاء القاضى ببقاء الأصلح أو الأنسب Natural Selection ، الذى كان ينادى به (دارون) و (هو كسلى) فى الأنواع الحيوانية والنباتية.

يريد أن نولد أيضاً أن يطبق هذا القانون على التعليم حتى لا يخرج من المدارس إلا النابغون الفضلاء الصالحون للبقاء .

(٣) رأي في التربية البدنية :

كان يقول : «إن جثمان الأطفال يجب أن يكون مجالاً قوياً لثوران غرائزهم وجولان عقولهم ، وإن التعجيل عليهم بطلب التحصيل وشحن قرائحهم بمسائل العلوم ، قد يودى بغضاضتهم ويطفىء البادرة فيهم ، ولن يلاقى الأطفال فى حياتهم الأولى وبالأشراً عليهم من سبق عقولهم أبدانهم وغلبتها عليهم » .

ولذلك كان يحرض على الرياضيات الجسمية ويغلو فى التعريف بمكانها ، وكذلك كان من أكبر همه لما عين ناظراً لمدرسة Rugby أن يأخذ التلاميذ بالرياضة أخذاً ويأمرهم بها أمراً ، لا يألوا جهداً ولا يدخر وسعاً

لأنه كان يشعر جيداً بأن كل طفل سيأتي عليه وقت يجتاز فيه لجة من سورة الشباب وعاصفة من جنون الصبا، تثب عليه فيه الغرائز الرديئة والشهوات الحيوانية، ولن يصبر لهذه الحملة إلا بنجدة من قوته ومنعة من بدنه.

إن العقل بنموه وتسلط نزعاته وتفرق خواطره يحتاج كالبخار إلى أديم منيع وجسد متين يحمل ضغطته ويقاوم تسلطه.

هنا يجب أن أقول إنه عرضت لى أثناء اشتغالى بتنسيق هذه المحاضرة حاجة إلى التمثل ببنت أبي الطيب المتنبي:

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام

كان توماس أرنولد يقول: «إنى أريد أن أجعل من الطفل رجلاً من الوجهتين البدنية والخلقية وهو لا يزال فى طور الطفولة حتى يصبر لهجوم تلك الغرائز وينتصر عليها». لذلك ترى الفتيان الانجليز يبلغون منتهى نمو الجسم وهم فى سن الثامنة أو التاسعة عشرة، مع أن النمو الطبيعى للجسم لا يتم عادة إلا فى سن الثلاثين، فكان كل هم أرنولد فى المدارس الثانوية الإسراع فى أن يربى للطفل عضلات قوية وجسماً متيناً ليضع فيه نفساً بسيطة جريئة حرة مستقلة معتمدة على ذاتها، ومجموع تلك الصفات هو ما كان يسميه الرجولة الصحيحة (True Manliness)، وكان يقول: «إن غرس بذور تلك الصفات فى نفوس الأطفال من حداثة سنهم

خير من محاولة وضع معلومات علمية في تلك الأدمغة الصغيرة تُنسى بسرعة ، لأنها وضعت فيها قبل الأوان .

والرجل الذي هذه آراؤه في التربية البدنية ، كان عضواً في جمعية الرياضة البدنية المسيحية (Muscular Christians) ، وكان الغرض الذي ترمى إليه هذه الجمعية خدمة الجسم وتقويته إلى أقصى حد مستطاع لا للتباهي به أو استخدامه في قضاء ما رُب شخصيته - كما كانت الحال في الجمعيات الأخرى - بل لغرض أسمى وأرفع وهو « حماية الضعيف ونصرة العدل في العالم أجمع ، وفتح الدنيا ووراثتها للأرض ومن عليها » ، وكانوا يقولون :

«إتنا نريد أن ننصب أنفسنا خير الانسانية ابتغاء مرضاة الله، فأول مانفرضه على أنفسنا أن نكون أقوياء السواعد أعزاء الجانب»

ومن وصايا (توم براون) لـ «خوانه :

«أيها الشبان ! اتقوا الله وسيروا سيراً عفيفاً ولا تتعرضوا للمرض فإن في المرض مضيعة للوقت ، والوقت من ذهب ، والسير السريع يقوى البدن ويشفي كثيراً من الأمراض .»

شكا عمرو بن معدى كرب المَعَص إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال : « كذب ^(١) عليك العسل ^(٢) » أي عليك بسرعة المشي ، والمعَص التواء في عصب الرجل .

(١) كذب هنا بمعنى وجب (٢) والعسل : سرعة المشي من عسلان الذئب

أما آية الانجيل «مَدَّ خَدَّكَ الْإِيمَنُ لِمَنْ يَلْطَمُكَ عَلَى خَدِّكَ الْأَيْسَرِ»
فقد نسختها آية أخرى أصبحت شعاراً للأمة الانجليزية وهي : «مَنْ
اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ»
ومن وصايا (براون) أيضاً قوله :

« وتعلموا الملاكمة فقد تحتاجون إليها يوماً (على أنها الطريقة
المستعملة في فض كل ما عساه ينشأ من الخلاف بين الفتيان الانكليزي) ،
أما المبارزة فاجتنبوها ما استطعتم إلى ذلك سبيلاً ، ولكن إذا
دعيتَ إليها وصدفت عنها لفضل دينك فذاك ، أو لأن هذا عمل لا
تحب الدخول فيه فقبول ، ولكن حذار أن ترفض النزال محتجاً بالدين ،
والحقيقة أنك جبانٌ يُرَاع ، فهذا ليس من الدين ولا من الشرف في شيء
وإذا وضعت قدمك في الحرب فسر فيها إلى النهاية ، ولا تدع بلاء إلا
أبليتة في خصمك ولا حيلة إلا احتلت بها له . ولا تقلعن عنه وفيك
عرق ينبض ونفس يتردد » .

ولقد أراد (توماس أرنولد) برأيه في التربية البدنية وإثارة الناس
إلى العمل بمذهبه فيها ، أن ينتاش الأمة الانجليزية من حال سيئة كانوا
عليها ، إذ كانوا إلى سنة ١٨٢٠ منهومين بالطعام والشراب مسرفين في
الإخلاد إلى الراحة والسكينة ، سماناً غلاظاً عرضة للسكتات القلبية ،
والرسوم والتاريخ أعدل شاهد .

ظلت أفكار (توماس) تختمر في رءوس الانجليز رويداً حتى هبوا
من سباتهم وأفاقوا من رقدهم ، وما جاءت سنة ١٨٦٠ حتى دانوا بالتربية

البدنية وأُغْرِمُوا بِحُبِّ الْأَلْعَابِ وَالرِّيَاضَاتِ ، وَاشْتَدُوا فِي ذَلِكَ اشْتِدَاداً
لَمْ يَسْبِقْ لَهُ مِثِيلٌ ، إِذْ آتَسَوْا مِنْ فَرَنْسَا يَوْمَئِذٍ أَهْبَةً وَاسْتِعْدَاداً ظَنُّوا
مَعَهُمَا أَنَّ الْحَرْبَ بَيْنَهُمَا وَاقِعَةٌ لَا مُحَالَةٌ .

فَقَامَ (هَرِبِرْت سَبَنْسِر) وَوَضَعَ قَدَمَهُ فِي الْمِيدَانِ ، وَجَهَرَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ
أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ حَيَوَاناً قَوِيّاً إِذَا شَاءَ أَنْ يَكُونَ النِّجَاحَ حَلِيفَهُ
فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ وَأَنْ الْإِحْتِفَازَ بِالْعَافِيَةِ وَالْحِرْصَ عَلَى السَّلَامَةِ مِنَ الْعَلَةِ
فَرِيضَةٌ مُحْتَمَةٌ وَقَضِيَّةٌ مُسَلِّمَةٌ . وَمَا هُوَ إِلَّا ذَاكَ حَتَّى سَارَ عَلَى أَثَرِهِ الْعُلَمَاءُ
وَالْحُكَمَاءُ وَالْأَطِبَاءُ وَالْفَلَسَفَةُ ، ضَارِبِينَ عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ ، قَائِلِينَ بِهِذِهِ
السَّنَةِ ، نَاصِحِينَ لِلْجَمِيعِ بِاعْتِنَاقِ الرِّيَاضَةِ الْبَدْنِيَّةِ ، وَالْعَنَافَةِ بِالصَّحَّةِ وَالْأَخْذِ
بِأَسْبَابِ الْقُوَّةِ مِنَ الْحَدَاثَةِ إِلَى الْكَهُولَةِ ، وَفِي الْحُلِّ وَالرَّحْلَةِ وَفِي كُلِّ
مَكَانٍ وَلِكُلِّ أَحَدٍ .

وَقَدْ قَالَ الدَّكْتُورُ (كَلِيمَان دِيوكَس) : « إِنَّ قُوَّةَ الْأُمَمِ وَاقْتِدَارَ
أَفْرَادِهَا عَلَى الْعَمَلِ يَتَوَقَّفَانِ عَلَى صِحَّةِ أَبْدَانِهِمْ وَاطِرَادِ تَمَرِينِهِمْ عَلَى الرِّيَاضَاتِ
الْجَسْمِيَّةِ ، وَمَرَّاسِ الْأَعْمَالِ الْبَدْنِيَّةِ » ، فَتَارَتِ الْأُمَمَةُ بِأَسْرَافِهَا وَفِي طَلِيعَتِهَا
طُلُبَةُ الْمَدَارِسِ وَالْجَامِعَاتِ وَالْأَعْيَانِ ، وَأُنْشِئَتْ الْحَمَامَاتُ فِي الْبُيُوتِ
وَالْمَدَارِسِ وَالْأَسْوَاقِ الْعَامَةِ ، وَاخْتِطَّتْ حَقُولٌ وَاسِعَةٌ مَلَاعِبٌ لِلتَّنْسِ
وَالْكِرِيكَةِ ، وَغَطِيَ سَطْحُ الْبَحْرِ بِزَوَارِقِ السِّبَاقِ ، وَمَلَأَتْ الشُّوَارِعُ
بِفِرْقِ الْكَشَافَةِ وَالْمَتَطَوِّعِينَ ، وَوُطِدَ كُلُّ إِنْسَانٍ نَفْسَهُ عَلَى الْعَمَلِ عَلَى
تَرْبِيَةِ عَضَلَاتِهِ وَالْفِرَارِ مِنَ السَّمَنِ فِرَارَهُ مِنَ الْمَوْتِ وَمُحَارَبَتِهِ مُحَارَبَةَ
الْوَبَاءِ .

وقد جعلوا هذه الألعاب الرياضية كمدارس منظمة يتعلم فيها الأطفال الرزانة والثبات والنظر الصحيح إلى الأشياء وقوة الحكم عليها، وتَقْوَمُ سَجِيَّةُ الاحترام فيهم، وإن في طاعتهم رئيسهم (الكاتبين) عن خَيْرَةٍ من أمرهم ورغبة من أنفسهم لدليلا على تقديرهم السلطان المخول للأقوى، والرياسة الممنوحة للأكثر تجربة وخبرة.

وتكون تلك الألعاب في الهواء الطلق في مجالى الطبيعة في الأغوار والأنجاد، بين الأنهار المطردة والأطيار المغردة؛ وبذلك الجهد البدنى القوى يطهر الجسد من السموم المتخلفة عن حياة الجلوس ويصلح الدم الذى أفسده هواء المدينة؛ أضف إلى هذا أنها محت من طباعهم كل ميل إلى الإسراف فى الأكل والشرب، ولا صحة مطلقاً لما قد يتوهم البعض من أنهم يأكلون أكثر من غيرهم، فإن ما يأكله الانكليزى فى اليوم على دفعات يأكله البَطَنون منا فى دفعة واحدة. سأل عبد الملك بن مروان أبا المغور: هلا اتخمت قط؟ قال: لا، قال: فكيف ذلك؟ قال: لأننا إذا طبخنا أنضجنا، وإذا مضغنا دقنا، ولا نكظ المعدة ولا نخليها.

تلك هى الفضائل التى يجنيها الانجليزى من الألعاب، يتعوّدها فى المدرسة منذ صباه وتلازمه ملازمة الظل مدى الحياة. وأثر هذه الألعاب فى الأخلاق على النمط السابق ظاهر لا ينكر، قال به جميع المربين الانجليز بلا استثناء، وتواصوا به، وأغروا الناس باتباعه حتى سرى حب هذه الألعاب فى دماهم وتمكن من نفوسهم، لا يثنون

صدورهم عنها من كِبَرَةٍ ولا يذرونها من عَمَى . وهذا مستر فوست Fawcett ، فى أخرياتِه قد ذهبَت عيناه وكان مع ذلك يترجح ويركب الخيل . و (أتونى ترولوب) وقد لوت الشيخوخة من عوده كان يحضر جواده ليصطاد الثعالب . ويعرف كل انجليزى ما كان من أمر بامرستون وكفنه بالذهاب إلى ميدان سباق أبسوم (Epsom) إذ كانوا يرفعونه إلى ظهر فرسه بجهد وتعب فإذا استوى عليه نسي شيخوخته وملك عِناهُ وأَمِنَ حرانهُ .

إذا أنا أُنبت فى الرياضة البدنية واهتمام الانجليز بها ذلك الاهتمام ، وإعظامهم إياها ذلك الإعظام ، وأخذهم بها من المهد إلى اللحد ، فلقد كانت من أهم العوامل فى نهوضهم وتطورهم ذلك التطور الذى أدهش العالم بأسره .

قال مسيو (Pierre de Coubertin) : « ما كان الانجليز - من مائة سنة خلت ولا من ستين - على ما نراهم عليه الآن من شدة تمسكهم بعبادتهم ونشاطهم فى الخارج وسهولة انقيادهم إلى حكاهم وتقانيهم فى حب وطنهم . ولـكنهم هبوا من رقدهم ونشطوا من عقاهم وقطعوا كل صلة بالماضى وبنوا لأنفسهم ذلك البناء الشامخ وهذا المجد الطريف الذى لم يشهد العالم مثله . ولا ريب عندى فى أن للتربية الصحية المؤسسة على الرياضة البدنية إلى أقصى حد مستطاع وللحرية الحقيقية التامة دخلا كبيرا فى هذا الانقلاب العجيب »

ذلك عن الانجليز، وأما الفرنسيون فكانوا يسخرون من هذه الرياضات الجسمية، ويعتقدون أن العناية بآئماء أجسام الأطفال وتعهدهم بالأبدان بالتقوية مفسدة للأطفال أى مفسدة، إذ يقولون إن المادة هى معين الشر وعتاد الفساد، وإن صفاء البصيرة وبلوغ الأرواح درجاتها من السكالم إنما يكون باهمال الجسم وكسر شرته وإضعاف حيوانيته . وقد غالى (بسكال) أحد فلاسفتهم فى مذهب المتصوفة إلى حد أنه كان يلبس شعاراً من شعر خشن كرهوس الإبر على جلده ، خيفة أن يخدعه الترف أو تلهيه الراحة . وأكثر من ذلك أنه كان يشد حول وسطه نطاقاً من مسامير دقيقة خيفة أن يشعر بلذة التوفيق إلى استنباط حل قضية من الهندسة ، وكان بهامولعاً وعليها مكباً . فكان مذهبهم فى قول أبى الفتح البستى :

أقبل على النفس واستكمل فضائلها

فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

ولم يقلع الفرنسيون عن احتقار الرياضة البدنية والزراية بمن كان يحبها من التلاميذ إلا من عهد غير بعيد .

مذهب فى التربية :

لندع الآن ضرب الأمثلة وسرد الحوادث المختلفة إلى البحث فى الخطة العامة التى جعلها (توماس أرنولد) أساساً لمذهبه فى التربية فنقول :

كانت المدرسة فى نظر ذلك المربى العالم كدار كبيرة من دور القضاء،

يتدافع فيها سيلان : سيل من القوة الهادية إلى الخير ، الصادرة عن قضاة هذه الحكومة ، وهم الناظر والمدرسون ، وسيل من المقاومة العشواء من التلاميذ الذين يرادون على الإئابة إلى القانون والمضى فى سواء السبيل . وكانت الحكمة والحيلة والبلاء الحسن مما يبذله أولئك المدرسون هي القوة التي يجب أن تكون لها الغلبة لتحسن الحال وتلين شكيمة الأطفال ؛ ومن أجل ذلك كان من الكياسة منح نصيب صالح من هذه القوة للجهة التي تنشأ عنها المقاومة بتسليط عدة من زعمائها وتمكينهم بقدر من الحكم تأليفاً لهم واستظهاراً بهم على من عداهم من الأطفال .

وذلك بعينه هو أحد مظاهر المبدأ الإنجليزي العام الذي يمكن تصويره في مثل آخر ، وهو أنه لضمان النجاح في تقرير حال على ماهي عليه ، أو المحافظة على سلامة نظام قائم في نفسه ، لا بد من إغراء الناس به وحملهم عليه وتزيينه لأعينهم حتى يكون فتنة لهم ويكونوا هم حماة له وشيعة على المتكئين عنه . وقد كان الرجاء في تطبيق مبدأ اجتماعي كهذا على جماعة من الأطفال غير كبير لما لا يخفى على الذين مارسوا التعليم وخبروا غرائز الأطفال وسبروا خفة أحلام الشباب . غير أن توماس أرنولد لم يحجم لحظة عن العمل بذلك المبدأ في مدرسته ، وهي جرأة لن يقدم عليها إلا من عظمت ثقته بعلمه وعمله وقوى اعتماده على نفسه ومقدرته . وقد نجح توماس في ذلك نجاحاً باهراً ، فوضع الثقة في المدرسين والمتقدمين من التلاميذ في الفرقة السادسة ، وأقام المدرسين أوصياء على التلاميذ ، وعهد إلى كل واحد منهم بمراقبة

زمرة من التلاميذ الخارجية ، ورياسة بيت من بيوت الداخلية الملحقة بالمدرسة (Boarding Houses) لاتكاد عدتهم تجاوز الثلاثين، يسكنون معه في داره ويأكلون على مائدته، ويظلون في وصايته سبع سنين يدرس فيها طباعهم ويسبر غور خواطرهم فيرشد عقولهم إلى الصواب ويهدي قلوبهم إلى الخير، حتى يصل بهم إلى أقصى ما يستطاع من الرقي والكمال. وقد كانت تلاميذ الداخلية من قبل في عهد أناس مقاولين ليسوا من أمور التربية على شيء ، فوضعوا الكسب المادى نصب أعينهم وتركوا حبيل التلاميذ على غاربهم فيما هو من التهذيب والتعليم، حتى ساءت الحال واضطرب النظام وانحط مستوى الأخلاق. وقد خول توماس تلاميذ الفرقة السادسة سلطة تامة على تلاميذ الفرق الأخرى ، وعينهم معيدين من أول واجباتهم مساعدة المدرسة على حفظ النظام وتوصيل المبادئ القويمة إلى إخوانهم ، لأنه لم يكن يرى رأى معاصريه في ترك الأطفال يستقلون بأمورهم إلى حد أنهم يواجهون الحوادث بأنفسهم ويتصرفون فيها وحدهم خيفة أن تفسد مبادئهم وتهجن عاداتهم وهم في هذه السن قلما يميزون بين النافع والضار، والحسن والقبيح . ولذلك جعل المتقدمين منهم وسطاء بينهم وبين المدرسين، ينقلون إليهم التعاليم الصحيحة، وينشرون فيهم المبادئ العالية، ويحببون إليهم الأخلاق الفاضلة، ويكونون هم البادئين العمل بها، والقائلين لإخوانهم : هلم إلى تقليدنا والنسج على منوالنا .

كان توماس يقول : إن مثل هؤلاء المساعدين كمثل ضباط الجيوش

البرية والبحرية إذا وثقتُ منهم فليس في انكسارها وظيفة أو ثرها على وظيفة ، وإذا لم أثق بمعاونتهم فالاستقالة محتمة .

ويخيل لى وأنا أنقل هذا عنه أنى أمام رئيس حكومة يتكلم عن وزرائه ، وكذلك كان توماس يكثر الاجتماع بهم ويدعوهم إلى شرب الشاي معه ، يخوض فى الحديث معهم ، ويحاسبهم على الفعلة من أفعالهم ، والكلمة تخرج من أفواههم ؛ فكانت هذه الاجتماعات مدرسة ثانية للتفكير فى الحياة والاستقلال فى الرأى والتقدير للعاقبة مع احترام المبادئ المرسومة والقواعد المقررة . وكان الغرض الذى يرمى إليه توماس من وراء ذلك هو تعويد التلاميذ حكم أنفسهم - من حداثة سنهم - على قواعد العدل والتروى والحكمة ، لأنهم بعد المدرسة سيقبلون المناصب ويتسامون زمام الأحكام اذ كانوا من أبناء العلية وأهل الولاية .

وكان لهم عدا ذلك اجتماعات أخرى فى المدرسة يمرنون فيها على الخطابة (Debating societies) واخوض فى فنون شتى من القول على ما يترأى لهم من سياسة ومن أدب وتاريخ ، وإذا كانت الخطابة فى شأن سياسى أخذ الاجتماع صورة مجلس نيابى صغير تجرى فيه المناقشة على التقاليد والرسوم النيابية ، ويتنادون فيما بينهم بنائب مقاطعة كذا ، وحضرة العضو المحترم ، كما يفعل النواب الكبار والوزراء ... يجعلون ذلك ذريعة لدراسة بلادهم ، ومعرفة مواقع أملاكهم . فقد كان المتكلم منهم عن إقليم ما ، يجب عليه أن يلم إلماماً بأحوال ذلك الإقليم تجارية كانت أم اقتصادية أو صناعية أو زراعية أو غيرها ؛ وكان الوزرا

منهم يجلسون أمام المعارضين الذين كثيراً ما كانوا يسقطونهم ، وكان رئيس الوزراء هو الذى يفتح المجلس ، وهو الذى يعلن انفضاضه .

حدثت مسيو دى هبئر (M. de Hubner) النمى أن حرية المناقشة فى تلك المجالس كانت بالغة غايتها حتى فى غير انجلترا من البلاد التابعة لها ، قال : « دخلت مرة إحدى الكليات الهندية والطلاب يتناقشون فى حفلة من هذه الحفلات فى موضوع غريب ، وهو : أليس الأفضل للهند أن تتخلص من النير الانجليزى ؟ وكان المشرفون عليهم من الأساتذة الانجليز ، ومع ذلك لم يقم منهم من ينكر ذلك القول » .

يقول دى كوبرتين الفرنسى : « اننا معشر الفرنسيين لانستطيع أن نسمح لطلابنا بمثل هذه الحرية ، لأن اختلاف الرأى عندنا يؤدى إلى شحناء قد تسوء عاقبتها ، أما عند الانجليز فجالس الخطابات بينهم هى بساط يطوى بما فيه . ولقد يكون الرجل من حزب وابنه من حزب معارض له وليس لهذا الخلاف أقل أثر فى رابطة الأسرة التى بينهما » وإنى لأرى أن تفوق الانكيزى فى هذا المضمار يرجع الفضل فيه إلى كثرة المِرانة وطول المِراس ، فقد أخذوا أنفسهم بحرية المناقشة منذ نعومة أظفارهم ، فصارت لهم عادة راسخة فى كل أطوار حياتهم ، وصارت صدورهم رحبة لقبولها دون أن تؤثر فيها أو تنال منها ، فلقد يتسع مجال الجدال بين اثنين منهم تباعد آراؤهما وتختلف مذاهبهما ، فلا تجد من كلا المتناظرين إلا صدىً فسيحاً وأناة طويلة وقبولا لكل ما يتحرك به لسان صاحبه .

أَبْنِ نَحْنُ مِنْ كَلَمِ الْفَرِيقَيْنِ فِي صَرِيحِ الْمُنَاقَشَةِ ؟

إِذَا أَحْسَنَّا الظَّنَّ بِأَنْفُسِنَا قُلْنَا إِنَّا كَالْفَرَنْسِيِّينَ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ ، وَلَكِنْ لَا نَكْذِبُ الْحَقِيقَةَ إِذَا قُلْنَا إِنَّا أَشَدَّ مِنْهُمْ تَطَرُّفًا فِي تَقْيِيدِ الْمُنَاقَشَةِ ، وَأَضْيِيقَ مَجَالًا لِقَبُولِ صِرَاحَتِهَا وَإِطْلَاقِ الْعِنَانِ لِحُرِيَةِ الرَّأْيِ فِيهَا ، فَإِنَّكَ لَتَجِدُ الْمُنَازَرَةَ بَيْنَنَا مَطْوُوقَةً بِأَغْلَالِ الْجَمَامِلَةِ أَعْنَاقُهَا ، مَغْلُوقَةٌ بِقِيُودِ الْإِحْتِرَاسِ أَيْدِيهَا ، فَإِنْ بَدَأَ أَحَدُ الْمُتَنَازِرِينَ أَوْ لِكُلِيهِمَا أَنْ يَفْكَ عَنْهُمَا رِبْقَةَ تِلْكَ الْجَمَامِلَةِ وَيُطْلِقَا أَنْفُسَهُمَا مِنْ قِيُودِ كِتْمَانِ الرَّأْيِ الصَّرِيحِ وَالْإِفْضَاءِ بِالْفِكْرِ الْحُرِّ ، فَقَلِمَا تَنْتَهِي مَنَاقَشَتُهُمَا بِسَلَامٍ ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّا لَمْ نَعُودَ أَنْفُسَنَا الصَّرَاحَةَ الْكَاشِفَةَ فِي الْمَجَادَلَةِ ، وَلَمْ نَأْخُذْهَا بِالتَّمَكُّنِ مِنْ مَعْرِفَةِ أَسَالِيبِ الْمُنَاقَشَةِ وَآدَابِ الْبَحْثِ وَالْمُنَازَرَةِ .

وَجَدِيرٌ بِمَنْ يَرِيدُونَ أَنْ يَتَّبِعُوا صِرَاحَ كِزِّ الرِّيَاسَةِ وَيَضَعُوا أَنْفُسَهُمْ مِنَ النَّاسِ مَوْضِعَ الزَّعَامَةِ ، أَنْ تَتَّسِعَ صُدُورُهُمْ لِلْمُنَاقَشَةِ وَتَطْيِبَ نَفْسُهُمْ لِسَمَاعِ الْإِتْقَادِ وَالْإِصْغَاءِ إِلَى مَا قَدْ يَخَالِفُ آرَاءَهُمْ ، لِيَسْتَشْفُوا بِوَاطِنِ الصُّدُورِ ، وَيَخْتَرِقُوا حِجَابَ الضَّمَائِرِ ، وَيَقْفُوا عَلَى مَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ قُلُوبُ النَّاسِ مِنْ مُخْتَلِفِ الْآرَاءِ وَشَتَّى الْمَذَاهِبِ ، وَيَعْرِفُوا أَنَّ الْأَلْسِنَةَ تَرْجَانِ الْأَفْتَدَةَ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَعْقِلُوهَا ، وَأَنَّ الصُّدُورَ هِيَ مَقَرُّ الْحُرِيَةِ فَلَا يَضِيقُوهَا مَا فَسَحَهُ اللَّهُ مِنْهَا ، فَإِذَا نَحْنُ أَغْلَقْنَا صُدُورَنَا دُونَ قَبُولِ مَا تَأْتِي بِهِ صِرَاحَةُ الْمُبَآئَنَةِ وَحُرِيَةِ الْمُنَاقَشَةِ فَقَدْ جَنَيْنَا عَلَى الْحُرِيَةِ جُنَايَةً لَا غُفْرَانَ لَهَا .

وَلَقَدْ كَانَ لَنَا فِي خَيْرَةِ سَلَفِنَا أُسُوةٌ حَسَنَةٌ وَقُدُوةٌ صَالِحَةٌ لِمَنْ كَانَ

يريد سعة الصدر وإطلاق حرية الفكر ورياضة النفس على إذعانها لذلك ؛ وإن بين دفات كتب التاريخ والآداب العربية لأمثلة راقية لما كان يصدر عن الخلفاء والملوك وقادة الأمة من حلم لا تحل حُبوته ، وأناة لا تخشى بادرتهما ، فانطلقت الألسنة من العقال ، ونطقت بما شاءت من المقال ، وانتصرت الحرية الفكرية ، وانتشرت الشجاعة الأدبية ، فلقد كان لهؤلاء السادة - نضر الله وجوههم - مقامات حسان وأندية ينتابها القول والفعل ومجالس يشفى بأحلامها الجهل ، يسمعون بها العظات ممن لا يؤبه له وتصغى أسماعهم إلى مرّ الانتقاد وشديد الجدال ممن قديكون ضعيف المنّة ليس له من الأمر شيء . ولقد كان من هؤلاء الملوك من لو شاء لبرى الرقاب وأطار الهامات عن الأعناق بكلمة تلفظها شفتاه فيجرى بها قلم القضاء ولكنهم كانوا أرحب صدرًا وأرقى فكرًا من أن يدفنوا الآراء في الصدور وأن يتدوا حرية المناقشة وهم مطالبون باستحيائها .

ومما يؤثر عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فى رياضته نفسه وكبحه جماحها ، أنه نادى : الصلاة جامعة ، ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال : أيها الناس ، لقد رأيتنى أرفعى غما خلالات لى فكن يقبضن لى القبضه من التمر فأظل اليوم وأى يوم ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : والله يا أمير المؤمنين ما زدت على أن قصرت بنفسك ، فقال ويحك يا ابن عوف ، إني خلوت فحدثتني نفسى فقالت : أنت أمير المؤمنين فمن ذا أفضل منك ؟ فأردت أن أعرفها قدرها .

أما أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان فقد ضربت بحلمه الأمثال

ولهجت بحسن سياسته الألسنة ، ولقد أحاطت به مدة خلافته أحوال
وحوادث لولا حسن دهائه وسياسته وطول أناته وحلمه ما أتبح له أن
يبقى زعيم أمة يعلم أن فيها من لا تقر عينه بخلافته ، ولقد حذا حذوه في
ذلك كثير ممن خلفه من بنى أمية وبنى العباس ، أخذوا بيد الحق وشدوا أزره
وقاموا بنصرة المجادلة والابقاء على حرية المناقشة ، غير مفتونين برأيهم
ولارا كبين لهوام رؤوسهم ، فرأى الناس في أيامهم مجال القول ذا سعة
فقالوا ، وميدان حرية الآراء فسيحاً فجالوا ، فما كتموا عظة ولا أغضوا
العين على قذى ، فأفادوا واستفادوا .

خرج الزُّهرىُّ من عند هشام بن عبد الملك فقال : ما رأيت كالיום
ولا سمعت كأربع كلمات تكلم بهن رجل عند هشام دخل عليه فقال :
يا أمير المؤمنين ! احفظ عني أربع كلمات فيهن صلاح مدلك واستقامة
رعيتك ، قال ماهن ؟ قال : لا تعد عدة لا تنق من نفسك بإنجازها ، ولا
يغر نك المرتقى وإن كان سهلاً إذا كان المنحدر وعراً ، واعلم أن للأعمال
جزاء فاتق العواقب ، وأن للأموال بغتات فكن على حذر . قال عيسى
ابن دأب : فحدث بهذا الحديث الخليفة المهدي وفي يده لقمة قد رفعها
إلى فيه فأمسكها وقال : ويحك ! أعد علي ، فقلت : يا أمير المؤمنين أسغ
لقمتك ، فقال : حديثك أشهى إلي .

فحق لنا أن نقصدى بهؤلاء وأمثالهم ممن أيدوا حرية المناقشة ، وبسطوا
ألسنة الناس في صراحة القول والمباحة ، أولئك الذين يستمعون القول
فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هدام الله وأولئك هم أولو الألباب .

ولعمر الحق إن ذلك منهم لدليل على عقل راجح وعلم غزير ، فإن المرء لا يفسح صدره لسماع رأى غيره إلا إذا هذب العلم نفسه ولطف من طباعه .

وما أحكم الفيلسوف الفرنسي مونتيني (Montaigne) في قوله : « إن مثل الناس في ازدياد تواضعهم ولين جانبهم ، كلما ازداد علمهم ، مثل سنابل القمح تظهر في أول أمرها وهي خلوة من الحب شائخة متعالية حتى إذا امتلأ جوفها وتم نضجها احدودبت سيقانها وانحنت رءوسها » وكان توماس يقوّم التلاميذ بالتقريب والملاينة ، يحترم رأيهم وكلامهم ، ولم يشك في قول صغير ولا كبير منهم كي لا يثلم كرامته أو يكسر شرته ، ولم يعوز أحداً إلى حجة على قول أو شاهد على عمل ، فعنده قولهم صدق وعملهم حق ورأيهم محترم ، وكيفاء هذه الثقة كان لا يطلب إليهم إلا الصراحة في القول واحترام الحق وتقديس الحقيقة . وقد شاع في المدرسة كلها وذاع في أتحاء المدينة أن أكبر جرم يقترفه التلميذ في رجبى (Rugby) هو الكذب على أرنولد ، وجزاء من يفعل ذلك أن يفصل أبداً عن المدرسة ^(١) .

(١) إن فكرة توماس أرنولد في أن المدرسة ينبغي أن تكون أشبه بحكومة غير مركزية (أو لامركزية كما يقولون) *Gouvernement décentralisé* ، تتوزع السلطة فيها على أكثر من فرد واحد ، غير أنه من الضروري أن يشعر التلاميذ بوجود الوازع الأكبر الذى يروونه من حين إلى آخر يشرف عليهم ويتفقد حالهم دون أن يكثر من التداخل في أمورهم . . . تذكرنى بقول العامة (هوب بعضا العز ولا تضرب بها) وقول النبي صلى الله عليه وسلم « علق سوطك حيث يراه أهلك » .

وقد نقش توماس أرنولد في أذهان الأجيال التي رباها شناعة الكذب وقبحه نقشاً لا يحوه كره الغداة ولا مر العشى . وقد سرى مبدؤه هذا وهو (ابتياع الصدق بالثقة) على سهولته سريان الكهرباء في السلك فعم الأسر والأندية ، وأسلم له الانجليز في كل مكان ، وآمنوا بأنه أنجع دواء لاستئصال الكذب من النفوس ، فأقبلوا على أولادهم منذ نعومة أظفارهم يغرسون في قلوبهم حب الحق واحترام الحقيقة حتى امتزجت الصراحة بدمائهم وسرى الصدق في عروقهم . وإن أعظم سوءة يُرَاع لها الانجليزى ويقشعر منها بدنه ، هـى وصفك إياه بالكذاب Liar ولا غرابة في عياف القوم مَعْرِةَ الكذب وغسلهم أنفسهم من دنسه فهو يودى بحياة الأمم كما يودى بحياة الأفراد .

وهذه آثار سلفنا الصالح تفيض بالبراءة من ذلك الخلق (الكذب) والتمدح بالصدق والصراحة والمباهاة بهما والتعلق بأسبابهما، فهذا دريد ابن الصمة على جاهليته في مرثيته المشهورة لأخيه عبد الله يُعزى نفسه عنه بقوله :

وهونَ وجدى أننى لم أقل له
كذبتَ ولم أبخل بما ملكت يدي

وتلك أحاديث الخلفاء وأخبار الوفود ومقامات الأعراب بين أيدي الملوك تنطق بحكمة ألسنتهم والصدق في قولهم وفعلهم والصراحة البالغة في حديثهم .

روى أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قال لعبد الله بن عباس رضى الله عنهما : من ترى أن نوليه جمص ؟ فقال : رجلاً صحيحاً منك صحيحاً لك . قال : تكون أنت ذلك الرجل ؟ قال : لا تنتفعُ بى مع سوء ظنى بك وسوء ظنك بى .

هذه صراحة رجل وإليكم صراحة امرأة :

حج معاوية بعد عام الجماعة فسأل عن امرأة من بنى كنانة كانت تنزل بالحجون يقال لها الدارمية الحجونية ، فأخبر بسلامتها فبعث إليها فلما جاءت قال : أتدرين لم بعثت إليك ؟ قالت : لا أعلم الغيب إلا الله . قال : بعثت إليك لأسألك علامَ أحببت علياً وأبغضتني ، وواليتِه وعاديتني ؟ قالت : أو تعفيني ؟ قال : لا أعفيك . قالت : أما إذ أيت فاني أحببت علياً على عدله في الرعية وقسمه بالسوية ، وأبغضتك على قتال من هو أولى منك بالأمر ، وطلبتِك ما ليس لك بحق ، وواليتُ علياً على ما عقد له رسول الله من الولاء وحبِّه المساكين وإعظامه لأهل الدين ، وعاديتك على سفك الدماء وجورك في القضا وحكمك بالهوى . قال : هل رأيت علياً ؟ قالت : إى والله . قال : فكيف رأيتِه ؟ قالت : رأيتِه والله لم يفتنه الملك الذى فتنك ، ولم تشغله النعمة التى شغلتك . قال : فهل لك من حاجة ؟ قالت : أو تفعل إذا سألتك ؟ قال نعم . قالت : تعطيني مائة ناقة حمراء فيها فحلها وراعيها ، قال : تصنعين بها ماذا ؟ قالت : أغذو بألبانها الصغار ، وأستحيي بها الكبار ، وأكتسب بها المسكرم ، وأصلح بها بين العشائر ، قال : فإن أعطيتك ذلك فهل أحل عندك محل علي بن أبي

طالب ؟ قالت : سبحان الله أو دونه ! فأنشأ معاوية يقول :

إذا لم أعد بالحلم منى عليكم

فمن ذا الذى بعدى يؤمل للحلم ؟

خذيها هنيئاً واذكري فعل ماجد

جزاك على حرب العداوة بالسلم

ثم قال : أما والله لو كان على حيٍّ ما أعطاك منها شيئاً ، قالت : لا

والله ولا وبرة واحدة من مال المسلمين .

ذاك حديث امرأة تساق إليها الدنيا عفواً ، ويكال لها المال كيلاً لتنزل

عن رأيها أو تغير اعتقادها فلم تفعل .

والشواهد أكثر من أن تذكر على ما كان لهذا السلف الصالح

من علو النفس وكرم الأخلاق والتمسك بالمبادئ والدفاع عن الحق

والنفرة الشديدة من التملق للقوة ، وما منا إلا من يعرف ذلك ؛ ولكن

ليس في معرفة الفضائل كفاية ، بل الكفاية أن يعمل بها إلى النهاية

شكوت وما الشكوى لمثلى عادة

ولكن تفيض الكأس عند امتلائها

تلك هي كلمتنا عن التربية في انجلترا والدعائم الكبرى التي يقوم

عليها صرحها ؛ وقد رأينا أن نشفعها بكلمة عن التربية في أمريكا لما بينهما

من تشابه في الطريقة واتحاد في الوجهة .

التربية في أمريكا

التربية في أمريكا

وموازنتها بالتربية في الأمم اللاتينية

نمبر

حضرة صاحب المعالي وزير المعارف ! سيداتي وسادتي !
أبدأ بتقديم الشكر الجزيل لحضراتكم لتبلييتكم دعوة النقابة
وتفضلكم بالحضور لاستماع محاضراتها، ففي ذلك دليل ظاهر على عطفكم
ومعاوتكم لها على المضي فيما اختطته لنفسها من القيام على حركة التربية
والتعليم في البلاد، لعلمكم أن ليس للأمة أن ترقى حتى تسلك هذه السبيل ،
وأن مصر الفتية الناهضة لا بد لها أن تسير إلى الأمام، وأن تحتذى في
سيرها مثال الأمم الراقية ، التي لم تصل إلى ما وصلت إليه من عظمة
ومنعة إلا بعد أن بذلت جهوداً وتجشمت صعاباً وذوقت آلاماً تنوء
بحملها الجبال .

أما الأمم التي لم تمرن طويلاً على عراق الدهر ، ولم تألف مقاومة
الصعاب وتذليلها فسريرة العطب والفناء ، لأن عدم استكمال تربيتها في
ميدان الجهاد والمقاومة يجعلها عاجزة عن دفع عوادي الأيام وطواريء
الحدثان .

وما حياة الأفراد والأمم إلا جهاد دائم ، لذلك كان حقاً على المدرسة
أن تهيم النابتة لهذه الحياة ، وأن تعدّهم بالأساليب الحكيمة لكي يضعوا

قدمهم ثابتة في المعترك ، ولكي يصبروا ويتجددوا ويقاوموا حتى يغلبوا ويفوزوا .

فكل تربية لا ترمى إلى هذه الغاية السامية هي والعدم سواء ، لأنها لا تطابق طبيعة الوجود في شيء ، وكذلك كل تعليم لا يمد النشء بوسائل الكفاح في ميدان الحياة العملية الحققة إنما هو تعليم عقيم لا خير فيه . إن نقابة المعلمين بمثابة على إلقاء المحاضرات وعقد المؤتمرات في شؤون التربية ، إنما تؤدي واجباً عليها نحو العلم الذي هي أمانة عليه ، ورافعة رأيته باليمين إذ تفتح للإصلاح العام باباً وتمهد للرقى طريقاً ، وهي بإذن الله ماضية في هذه السبيل بفضل اتحاد أبنائها وبفضل تضامنهم ونشاطهم وغيرتهم على المصلحة العملية ، تخدمها في غرضها النبيل صحيفتها التي تم عن حسن سعيهم وتنشر مباحثهم على الناس .

وبعد ، فقد كنت يوماً أجيل النظر في الكتب الجديدة بإحدى المكتبات العامة ، فلفتني عنوان ضخمة لكتاب «روح التربية» ، وما كان هذا العنوان ليستهويني وحده إلى اقتنائه لولا أنني أبصرت اسم مؤلفه الكاتب الجليل الدكتور جوستاف لوبون ، الذي نوهه كما تعامون بحضارة العرب وشاد بذكرهم في كتابه الذائع الصيت «تاريخ حضارة العرب» ، والذي ترجم له المرحوم فتحي باشا زغلول كتاب «روح الاجتماع» . أما السفر الذي نحن بصدده اليوم فتمتاز الطبعة الأخيرة منه بفصل ممتع في طرق التربية والتعليم في أمريكا ، نقله عن كتاب (مسيو

بوينز) ناظر مدرسة (شارل روا) من أعمال بلجيكا ؛ الذى ساح فى أمريكا أخيراً ، وشرح طرق التربية والتعليم فيها شرحاً كان له أعظم وقع فى نفوس الأمم الأوروبية جميعاً .

والذى يتصفح هذا الكتاب يتبين منه البون الشاسع بين حضارة أوربا وحضارة أمريكا ؛ وقبل أن يشرح الدكتور جوستاف لوبون تلك الطرق أنحى باللائمة - فى الباب الأول من كتابه - على تعليم الجامعات فى فرنسا ، لأنه مبنى كله على استظهار الكتب دون أن يكون للتأمل والتفكير والبحث والتنقيب أثر فيه .

أما أساتذة الأمريكان فقد نجحوا بأساليبهم الحكيمة فى بث روح الملاحظة فى النشء من بدء حياتهم ، وفى تنمية قوة الحكم ودقة التصور وصقل أخلاقهم صقلاً متيناً دون أن يكون للكتب فى كل ذلك شأن يذكر ، ثم يقول :

« نعم إن فى جامعات فرنسا فئة من نوابغ الطلاب حرروا عقولهم من قيود التعليم العقيم فى تلك الجامعات ، وكوّنوا أنفسهم بأنفسهم ؛ وبفضل جهودهم وحدهم بقيت فرنسا إلى اليوم متبوءة مكانة عالمية بين الأمم ؛ ولكن السواد الأعظم من الطلاب لا يزالون يرسفون فى السلاسل والأغلال التى قيدتهم بها الجامعة ، وسيظلون حياتهم متمسكين بتعاليم أساتذتهم القديمة ، عاجزين كل العجز عن الخروج عليها أو الانحراف عنها ، مع أنهم هم الذين تقوم عليهم حضارة الأمة ، وكان أول واجب على الجامعات أن توجه كل عنايتها إلى توسيع معلوماتهم

وترقية مداركهم، لأنهم عصب الأمة وملاك حضارتها، فكيف ترقى فرنسا إذا ظلت تلك الطبقة الوسطى منها في أسر الجامعة لا تجد من يفك عنها الأغلال وينير لها السبيل ؟

ولقد بلغ من تفشى تلك الطرق العقيمة في التربية والتعليم في فرنسا أن مدرسة من أرقى مدارسها، وهى مدرسة الهندسة (سنترال) التى كان ينبغى أن تكون أبعد المدارس عن الحفظ والتسميع يقنع طلابها من التعليم باستظهار العلوم كلها حتى الرياضيات منها، ولكنها لا تلبث أن تزول من عقولهم إذا فرغوا من الامتحان، لأنها لم تصل إلى أذهانهم إلا من طريق الحافظة.

وهذا المسيو بلتان الذى تربى في هذه المدرسة وهو الآن يشغل وظيفة مفتش بمصلحة المعادن يقول لنا :

«إن التعليم الذى لا وجهة له إلا أداء الامتحان يفقد كل ميزة علمية، ولا ينمى إلا قوة الحافظة، ولما كان طالب الهندسة في بلادنا لا يعمل له إلا أن يحفظ دروسه من الكتب دون أن يكلف عملاً شخصياً يستلزم البحث والتنقيب والابتكار، فليس هناك إذن مقياس صحيح نعتمد عليه في تقدير قيمته العلمية»

ولهذا نرى المتفوقين في الامتحانات غالباً هم أمضى الطلبة حفظاً وأوعاهم ذكراً، وإن كانوا أضعفهم تصوراً وذكاءً، ومنهم تختار الحكومة موظفيها لسبقهم في حلبة الامتحانات، وعلى ذلك فالحكومة في اختيارها الرجال لوظائفها لا تعتمد على صفوة أبناءها من حيث مواهب الفطنة والذكاء.

ولقد وقع في السنوات الأخيرة حادث بيلاد الهند أثبت للانجليز خطأهم في التعويل على الامتحانات. ذلك أن الجرائد الوطنية تدمرت من طريقة تعيين الموظفين للخدمة الادارية العليا Civil Service ، واقترحت أن يكون انتخابهم بالامتحان، فقبل الانجليز هذا الرأي فكانت النتيجة أن فاز (الببوي) من أهالي البنغال على الأوربيين في الامتحانات، نظراً لما اشتهروا به من قوة الحافظة وسرعة الاستظهار ، غير أنهم مالبثوا حين تولوا الحكم أن تجلى فيهم نقص كبير في الأخلاق وسوء تصرف في الإدارة العامة كادا يقودان الهند إلى الخراب لولا أن الانجليز بادروا بالعدول عن هذه الطريقة إلى أسلوب آخر يحرم (الببوي) الاستفادة من هذه الميزة الطبيعية، بعد أن ثبت لهم أن الامتحانات عاجزة عن كشف الخبوء من أخلاق المتحنيين وذكائهم ، وأن استظهار الكتب وحده لا يؤدي إلى سداد الرأي وبعد النظر في الأمور ولا يطبع في النفوس عاطفة العدل والإنصاف .

والحقيقة الناصعة أن الوظائف الادارية الكبرى لا تتطلب نبوغاً كبيراً في العلم ، ولكنها تتطلب - أولاً وقبل كل شيء - أخلاقاً متينة كالعدل والقدرة على ضبط النفس في جميع المواطن .

يقول جوستاف لوبون : إنه حدث له في أثناء زيارته للهند أن تعرف إلى موظف انجليزي كبير كان كثيراً ما يخرج وحده ليلاً إلى الغابات الشاسعة لاصطياد النور ، فسأله عن سبب ذلك ، فقال له : إنه كثيراً ما يشعر بضعف في عزيمته وعجز عن مقاومة نفسه والتغلب عليها ، فلم

يجد علاجاً يعودها الصبر والأناة ورباطة الجأش في أدق المواطن وأخرج المرأى كز خيراً من أن يقضى الساعات بل الليالى يرتقب مرور النمر ليقته ، عالمًا تمام العلم أنه إذا أخطأ المرمى ولم يصبه فى مقتله مدة ثلاث الثوانى التى يمر فيها ، فهو هالك لا محالة .

والتاريخ شاهد عدل على أن الأمم العظيمة لم تقم إلا بالأخلاق القوية وصفات الرجولة الحقّة ، كالتمنّيه والتفكر والرأى والابتكار والنظام والتضامن والثبات والإرادة ؛ تلك هى الصفات الخلقية التى يجب على المرين أن يبتوها فى النشء وينموها على الدوام ، ولن يصلوا إلى هذه الغاية إلا أن يكثرُوا من وضع التلاميذ فى المواطن والظروف التى تحتم عليهم إعمال الفكر والروية قبل الإقدام على اتخاذ قرار حاسم فى موضوع من الموضوعات ، وأن يجبروهم بعد أن صحت عزيمتهم على التنفيذ أن يعضوا فيه إلى النهاية .

عزم الشاعر الانجليزى « وردسورث Wordsworth » مرة على تسلق جبل للتنزه والرياضة ، وبينما هو يصعد إذ هبت عاصفة شديدة ، فاستمر فى الصعود على الرغم من قصف الريح ، وهو يخاطب نفسه بقوله : « إن العدو عن مشروع قام فى سبيله خطر صغير ، هو خطر على الأخلاق كبير » ، فلمتابرة والإرادة هما من أقوم الأخلاق التى يمتاز بها أفراد الأمم الراقية .

نعود إلى الكلام على العلم المدون فى الكتب Science livresque ؛ ذلك العلم الذى ينهه الدكتور جوستاف لوبون على الجامعة . يتساءل : ما العمل

لتلافي ذلك الخطر الدائم ، ونحن من ثلاثين عاماً نرى الناس تضج من عيوب هذا التعليم وآثاره السيئة في البلاد ، وهؤلاء رجال الجامعة هم أسبق من يعترف بهذه الحقيقة المؤلمة ، ولكنهم كلما أرادوا مداواة العلة لا يتوجهون إلا إلى المناهج وتنقيحها ، والحال أن الداء الويل كامن في طرق التعليم لا في مناهجها ؟

يقول مسيوليمان (وهو من أكبر مديري الجامعة) أمام لجنة التحقيق البرلمانية : « إن التعليم عندنا في جميع أنواعه قد هوى إلى قرار سحيق ليس بعده قرار ، ولا أدل على ذلك من الخدمات الجليلة التي قام بها خريجو جامعات ألمانيا للصناعة ، وعجز خريجي جامعاتنا عن مجاراتهم فيها . »
« فألمانيا تخرج كل عام عدداً عظيماً من العمال المتنورين الماهرين الذين تحتاج إليهم أوروبا وأمريكا في مصانعها ومعاملها .

« وبينما العلوم والصناعات تنمو على أطراف ألمانيا إذ بها عندنا في تدهور يزداد يوماً بعد يوم ؛ ومرجع هذا التقهقر في اعتقادي هو أن طرق التربية والتعليم في فرنسا نقلها اليسوعيون عن بلاد الصين ونبتت في مدرسة (لويز لوجران) القديمة التي أسسها هؤلاء القساوسة العائدون إلى فرنسا من بلاد الشرق الأقصى ، ومنها انتشرت في البلاد كلها ، ولا تزال هذه الطرق متأصلة إلى اليوم في نفوس المعلمين مالكة عليهم مشاعرهم جميعاً »

فالعلة إذن إنما هي في وسائل التربية وطرق التعليم لا في المناهج نفسها ، بدليل أن المناهج واحدة أو تكاد تكون واحدة في ألمانيا

وفرنسا، ولكن شتان ما بين النتيجتين فالعبرة بالمدرس الكفء
لا بالمنهاج الجذاب الخلاب .

وعادة السيف أن يزُهِى بجوهره وليس يعمل إلا في يدى بطل

إن الألمان أمة فطنت من زمن بعيد إلى فكرة هي العقدة الحيوية
في التربية والتعليم، ألا وهي حمل مدرسى الكليات على أن يهتموا كل
الاهتمام بالطلاب، وعلى أن يبذلوا ما في وسعهم لتشويقهم إلى العلم .
والسبب في ذلك أن الطلبة هم الذين يقومون بدفع رواتب الاساتذة،
ولما كان لكل علم من العلوم عدد كبير من المدرسين الأحرار، فإن
الطالب يتجه طبعاً نحو الأستاذ الذى يجيد التدريس ويتقن طريقه ؛
لذلك نرى المدرسين يتنافسون في العناية بتثقيف الطلبة وفي اجتذاب
أكبر عدد ممكن منهم إلى دروسهم ليتسع لهم سبيل الرزق، فتراهم
يعمدون تارة إلى الابتكار في طرق التدريس، وتارة في نشر أبحاثهم
العامة القيمة، عاملاً منهم بأن هذه هي الطريقة الفذة التي توصلهم إلى نيل
المناصب العالية والوظائف الدارّة . أما مدرس الكلية في فرنسا فوظف
حكومى يتقاضى راتباً ثابتاً، وليس له أقل مصلحة في أن يستهوى عقول
طلّبه، وأن يشوقهم إلى العلم ويحبّبه إليهم، ولو أنه كان يتقاضى راتبه
منهم لاضطر إلى تغيير طريقه في التعليم وإلا سقط في ميدان المسابقة
وحلّ محله من هو أصلح منه؛ وبفضل هذه المنافسة الحرة في
التدريس أصبحت الجامعات في ألمانيا وقد توافرت لديها هيئة محترمة

من كبار العلماء والمدرسين لا نظير لها في العالم المتمددين .

لذلك يقول جوستاف لوبون :

« إننا إذا أردنا أن نهض من الهوة التي وقعنا فيها ، فعلينا أن نقتل الألمان ، وعلينا أن نبدأ بالسير في الطريق الذي سلكوه ووصلوا فيه إلى النهاية » .

ولقد فكر الألمان طويلاً في الكلمة الحكيمة التي فاه بها (لينينز)

Donnez - moi l'Education et je changerai la face de l'Europe avant un siècle.

ومعناها « سلمنى قياد التربية وأنا كفيل بتغيير وجه أوروبا قبل قرن واحد من الزمان » .

ننتقل بعدهذا التمهيد إلى الموضوع الأصيل وهو التربية في أمريكا

التربية والتعليم في أمريكا :

يقول الدكتور جوستاف لوبون : « إن للموازنة دخلاً كبيراً في تكوين عقولنا وتحصيل معارفنا ، ويجدر بنا لكي ندرك كنه أسباب انحطاط التعليم في الجامعات عندنا أن نوازنه بالتربية في أرقى بلاد العالم تربية ، وأشدها عناية بأمورها ، ألا وهى أمريكا .

« إن المجالات التي تتصدى لشئون التربية في الممالك المتحدة كثيرة ، ولكنها لا تجدنا نفعاً كبيراً لأنهم مدبجوا رعا رجال الجامعات أنفسهم ، ولهم فيها اعتباراتهم الخاصة ووجهة نظرهم الخاصة ، لذلك كان لنشر السفر البديع الذي وضعه حديثاً « مسيو بويز » ناظر مدرسة (الملك شارل)

في طرق التربية الامريكية رنة وضجة بلغت عنان السماء في فرنسا ،
وأعجبوا أيما إعجاب بما علموه من نظريات الأمريكين في التربية ، وقالوا
إن مثل تلك التربية خليقة أن تخلق إنساناً أرقى من إنساننا »
وهاك ما خطته يراعة عالم من أكبر علماء فرنسا « مسيو
لوشاتيليه » ، قرأ هذا الكتاب فعرف للأمريكان في تربيتهم المزايا
الآتية : —

قال : « إن أول عاطفة تملك على الإنسان نفسه عند قراءة كتاب
مسيو بوز عاطفة اغتباط بمحاضرة أرق حقاً من حضارتنا : اعتقاد شامل
وإيمان ثابت بحسنات التربية وفضلها ، حرية تامة تتمتع بها المدارس
على اختلاف أنواعها وتبناها أن تبحر رقى رقيقاً متناسباً ، وأن تُجرى من
التجارب العلمية ما تشاء — بالغة النفقات ما بلغت — ، ثم إجلال المدرسة
إجلالاً يقصوها عن السياسة ويحصنها من المعارك السياسية على شدتها
وحدثها عند الأمريكين ، وأخيراً فلسفة عميقة في التربية تملأ الفرد حياة
ونشاطاً ، وفي كل ذلك دلالة على رقى عقل وتهذيب فكر قل أن
يكون لغير تلك البلاد »

وها كم صحيفة بدیعة من ذلك الكتاب النفیس جمعت أمهات
مسائل التربية والتعليم :

« ينثر المدرس بدقة ومهارة الصعاب أمام التلاميذ مرتبة مدرجة
ليواجهوها ، فينظروا فيحكموا فيظفروا ويفوزوا ، العمل الجسماني يسبق
العمل الفكري دائماً أو يوازنه ، حتى إن أبعد العلوم عن الحس عندنا

وأكثرها جرياً وراء التصور والخيال تقدم إليهم في أشكال محسنة تقع عليها أنظارهم وتلمسها أيديهم ، فيتعاون على سرعة إدخالها في أذهانهم مهارة اليد ودقة الفكر .

فعلم الجغرافيا أعمال يدوية محضة ، ودروس اللغة والآنشاء تعلم في المعامل لشدة ارتباطها بالرسم والحفر والصب ، إذ من الرسوم والصور والمجسمات تنتزع الأفكار وأساليب التعبير .

الحركة في أرق صورها والأشغال اليدوية التي تحترف بها جميع المدارس على السواء وتدين بقيمتها التهذيبية ، هما أحسن درس وخير تمرين للنفس على الصبر والثبات والإرادة .

التعليم كله في كلمة : يعمل الجسم مع العقل جنباً لجنب دائماً . والتعليم الثانوى الذى هو حلقة الاتصال بين طور الطفولة و طور الشباب يسير على هذا النمط بعينه : قرن العلم بالعمل « Instruction par l'action » مع التوسع فى ذلك كلما ارتقت مدارك التلاميذ فتزداد المسائل المطلوب منهم حلها صعوبة ، كلما يزداد الغرض المطلوب الوصول إليه بعداً ، والعقبات عراقاً وكأداء .

تحرير العقل والعاطفة من كل وصية ورقابة . انتقاص سيطرة الأساتذة تدريجاً مقابل نصيب صالح من التبعة والمسئولية تلقى على عاتق الشبان والشابات تدريجاً كذلك ، ذلك هو الغرض الأسمى الذى ترمى إليه التربية .

يقبل التلاميذ على العمل بحرية تامة كأنهم وحدهم في الدنيا بلا رقيب ، ويحبب إليهم السرور يأتي من طريق الجهد والمعاناة والفرح ينشأ عن عراك الصعوبات ومكابدة العقبات ، ويدربون على ضبط النفس والاقتدار على زجرها ومقمعها "Self control" ؛ كل أولئك هو مهمة المدرسة العظمى ووظيفتها الكبرى ، فلا الحقائق ولا النظريات تلقى شفهيًا على التلاميذ ، لأن الأمريكيين ينفرون انفور كله من النظريات المهيأة المجهزة ومن التعريفات والتصورات ، إلا إذا خلقها العمل وأنتجتها التجارب .

لم يبق في المدارس كلها من أثر لتلك الطرق التي ترى الفائدة كلها في تلقين العلوم عن طريق الشرح والكلام ، دون أن يترجمها التلاميذ بالأفعال والأعمال ، ويرى المدرسون أن التعليم على العموم - والعلمى منه على الخصوص - لا يمكن أن يكون تعليمًا منتجًا مفيدًا إذا لم يمرن التلاميذ على كشف الحقائق وحل المسائل العامة بأنفسهم ، وتلك طريقة الاستكشاف من جديد Rediscovery المتبعة في المعامل والمصانع دائمًا ، ولم يبق للدروس النظرية التي تعطى في الفصول بطريقة الإلقاء قبل بدء الدروس العملية التطبيقية أو معها أو بعدها أهمية تذكر . أما المذكرات التي يكتبها التلاميذ بأنفسهم في أثناء الدراسة العملية بالمعامل والمصانع التي يصفون فيها مشاهداتهم وتجاربهم الخاصة ، فإنها قطب الرحى وأساس التعليم والمقياس الصحيح الذي يسر به غور التدريس ، لأنها هي وحدها التي تدل دلالة صحيحة على كفاية التلاميذ ومبلغ استعدادهم واقتدارهم على تلمس

أسرار النظريات واستنباط قوانينها من ملاحظة الأدوات والأجهزة .
ولا يعير الأساتذة أهمية ما لتلك المذكرات التي يلتقطها التلاميذ
من أقوالهم أثناء الدراسة النظرية ، والتي لها الصيت الذائع والقدح
المعلّى في جميع المدارس الأوروبية .

وفي مدارس التعليم العالى يستمر الفوز للجهد والغلبة للابتكار
والاختراع ، والدعامة الكبرى التي يشاد عليها التدريس فيها هي ترك
الطلبة يُجرون التجارب العلمية بأنفسهم دون أن يتجاوز تدخل الأساتذة
في شئونهم حد النصيح والإرشاد ، وليس لهم في ذلك من غرض سوى
استجلاء الاستعدادات الحقيقية لكل تلميذ وتبين ملكاته وقرائحه
وقدرته على العمل والاستنباط .

غرس بذور الإرادة في أفئدة الأطفال والشبان وإنماء حب العمل
والمثابرة عليه في قلوبهم من بدء حياتهم والإسراع في نقلهم من طور
التبعية إلى طور الاستقلال ، وإعدادهم بالطرق العلمية المحكمة لأن
يتولوا شئونهم بأنفسهم ، وألا يعولوا في أمورهم إلا على جهودهم
Self Support ؛ تلك على ما يظهر أعظم الأمانى وأرفع الغايات التي
تطمح إليها أنظار القائمين بشئون التربية والتعليم في المدارس الابتدائية
والثانوية والعالية .

تربية العمال :

أما تربية العمال في المدارس الصناعية على اختلاف أنواعها ، فإنها
ترتكز كذلك على طريقة التعليم بالمحسات والتجارب ، ولكن مع التوسع
(محاضرات - ١٠)

فيها إلى أقصى حد وأبعد مدى ، حتى إن العامل الأمريكي الخالي ليعتبر في نظر الأوربيين القدوة المثلى والمثل الأعلى الذي يطمحون إليه في ترقية عمالهم على مدى الأيام ، لأنه في الغالب رجل مستنير العقل مدرب الفكر واسع الحيلة وبخاصة في الحرف والصناعات الراقية .

ما عهد العامل في الزمن السالف - الذي كان لا يتجاوز علمه حد القوة العضلية والتقاليد القديمة وطرق الأسلاف المتوارثة - فقد مضى وانقضى ، وأصبحت التربية في جميع المدارس الصناعية مبنية على طريقة الاقتصاد في الأيدي العاملة ، وأن يستبدل بها شغل الآلات الميكانيكية الحديثة الدقيقة Saving Labour التي لا تتطلب من قوى العامل الجسمية قدر ما تتطلبه من قوة فكره ودقة ملاحظته وحضور بديهته في اتخاذ القرارات السريعة لتلافي الطوارئ العارضة ؛ ولقد أحدثت سرعة التغيير والتحسين في الآلات الصناعية الحديثة وطرق إدارتها صفات جديدة في العامل الأمريكي ، عقلية أكثر منها جسمانية ، وتعمل جميع تلك المدارس على تنمية تلك الصفات في العمال وترسيخها في أذهانهم لتصبح على مدى الأيام سجية لهم وغريزة فيهم .

وفي تلك المدارس تبني الدراسة النظرية على المشاهدات والمحسات كما في مدارس التعليم العام ؛ وتستند الدروس الشفهية إلى التمرينات التجريبية والأعمال اليدوية التي من شأنها أن تضيف إلى المعلومات الأساسية في مختلف الحرف والصناعات قوة المراقبة وتنبيه الذهن ومهارة اليد وحذق الصنعة .

وليس للاخصائى أثر ما فى تلك المدارس، لأنها تحاول أن تربي العمال تربية صناعية عامة توسع بها مداركهم وتنمى فيهم حاسة التنفيذ من جهة، ومن جهة أخرى تجنبهم خمود الذهن وضيق الصدر وملل النفس، تلك التى تستولى عليهم من جراء مزاولة حرفة واحدة وتكرار عمل واحد على وتيرة واحدة كماهى الحال فى صناعة الوحدات المتماثلة كالسيارات المتنوعة التى أصبحت المعامل تخرج منها الملايين .

وإذا قيست الأعمال بنتائجها كان لنا من عظيم مقدرة العمال فى أمريكا على الإنشاء والاختراع والإنتاج بمعونة آلات بلغت من الدقة مبلغاً عظيماً أكبر دليل على أن تلك التربية الفنية الأمريكية هى أنجح أنواع التربية وأشدّها فعلاً فى النفوس .

وليس فيما وراء المحيط الأطلنطى أثر ما لتلك الخرافة التى رسخت فى نفوس أهل أوربا واستعصى استئصالها من عقولهم ؛ وهى احتقار الأعمال اليدوية وازدراؤها ، فليس هناك أمريكى واحد يعتبرها وصمة مخجلة أو عملاً مخلاً بالشرف ، فلا القضاة ولا الأساتذة يُعتبرون أسماً منزلة وأرقى عقلاً من إخوانهم الأذكىاء من عمال المطابع ورؤساء المعامل .

أما الموظفون الكتائبون فى مصالح الحكومة فقد عرفوا من زمن بعيد مكانتهم من المجتمع ، ووطدوا أنفُسهم على كسب لا يتجاوز خمسين أو خمسة وسبعين فرنكاً فى الأسبوع ، فى حين أن البنّاء أو النجار أو الحداد أو السباك يبلغ كسبه مائة وعشرين فرنكاً مع تساوى مدة العمل .

ولقد تأصل حب العمل في طباع أهل أمريكا وشغفوا بمزاولة الأعمال، حتى إن كل أمريكي عامل في جوهره، وهم يقدرّون الرجال بأعمالهم وكفائتهم، ويزنونهم بما يحدثون وما ينتجون، ولا يؤمنون بتلك الفكرة التي يؤمن بها الأوربي ويدين بها من أن الألقاب والشهادات العلمية تنيل حاملها شيئاً من النبل العقلي والشرف الفكري.

ويلاحظ أن السبب العلمي النفسى (البيسيكولوجى) الذى يدعو المربين الأمريكيين إلى التعلق بأهداب العمل ويوجب الأعمال اليدوية إلى تلاميذهم لهذا الحد، هو أنهم يعتقدون أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين حركة أجزاء الجسم وبين الخلايا المخية المحركة (Cellules Motrices) التي هي مرا كز الإرادة العملية. فاذا اقتصر على فهم النظريات وإدراكها دون أن يعنى بتنمية القوة العضلية لكل عضو من أعضاء الجسم قويت خلايا المخ المدركة وخدمت الخلايا المحركة، ونشأ عن ذلك وهن العزيمة وضعف الإرادة وإن وجد الفكر والتصور والذكاء.

ولا بد للتربية الصحيحة أن تصرف كل همّها إلى تنمية هذه القوى على السواء، حتى تخرج رجالاً يقرنون العلم بالعمل، ويعقبون القول بالتنفيذ، وذلك ما تصبو إليه نفوس الأمريكيين وتطمح أنظارهم إليه في تربية أبنائهم.

نقسم التعليم :

ينقسم التعليم في أمريكا إلى أدوار أربعة، يستغرق كل دور منها

أربع سنوات فيكون مجموع ما يقضيه الولد في المدرسة ست عشرة سنة وهى :

١- التعليم الأول من ٦ إلى ١٠ سنوات Primary

٢- التعليم الابتدائى من ١٠ إلى ١٤ سنة Grammar Grades

٣- التعليم الثانوى من ١٤ إلى ١٨ سنة High Schools

وإذا كان التعليم الثانوى فنياً من ١٤ إلى ١٨ سنة أيضاً يسمى

Technical Schools

٤- التعليم الفنى العالى من ١٨ سنة إلى ٢٢ سنة ويسمى

Institute of Technology

وجميع أولاد الأمريكيين يمرون بلا استثناء بالدورين الأول والثانى، ويزيد الإقبال على التعليم الثانوى يوماً فيوماً حتى بين طبقات العمال، غير أن الكثيرين يغادرونه بعد مضى سنتين عند ما يبلغون السادسة عشرة من أعمارهم، إما للبحث عن وظائف فى المحال التجارية والصناعية تقوم بحاجاتهم المعاشية، وإما للدخول فى المدارس الفنية التى تقوم بتأهيلهم لإدارة حركة المعامل.

أما التعليم الفنى العالى فلا يغشاه إلا صفوة الشبان وخلاصتهم؛ على أن الكثيرين يشكون من طول مدته، لأنه يؤخر موعد دخولهم فى معترك الحياة العملية.

ولقد عنى الأمريكيون عناية خاصة بثلاثة الأدوار الأولى من أدوار التعليم، وقد كانت موضع درسههم وبحبهم مدة طويلة حتى أصبح

التعليم يسير فيها على نمط واحد وطبق أساليب واحدة في جميع أرجاء الممالك المتحدة الأمريكية .

والدعامة الكبرى التي يشاد عليها صرح التعليم في أدواره الأولى هي تعليم الأشغال اليدوية؛ وغايتهم من تدريب التلاميذ عليها أن يبتثروا فيهم روح الابتكار والتنفيذ؛ أما الابتكار فبواعثه دروس الرسم والهندسة والملاحظة ، وأما التنفيذ فيكون بإبرازهم ما ابتدعته أفكارهم إلى حيز الوجود بصنع أيديهم .

وفي مدارس نيويورك يتعلم الأطفال صوغ الأشكال من عجينة مرنة لإدراك الأبعاد الثلاثة وصنع الأشكال الورقية وهي ذات بعدين فقط ، وصنع الأسلاك والخيوط في أشكال مختلفة ممثلة هندسة البعد الواحد .

وجل مدارس أمريكا تحذو حذو مدارس نيويورك في اختيار موضوعات الرسم والأشغال اليدوية في المدارس الابتدائية ، إذ يدور حول فكرة أساسية هي لفت التلاميذ إلى ما يقع تحت أبصارهم وفي أفق ملاحظاتهم كالمنازل وأشغالها وواجباتها وبواعث السرور فيها ، ثم يلي ذلك حياة المجتمع وما يتبعها من وسائل النقل ومن مشاغل الناس وملاهيهم ، ثم تليها الحياة المدرسية فالأجازات السنوية ، فدراسة المناظر الطبيعية وتلك ما يسمونها بمرآة الرغبة أو الشوق Interest Centars ومن المحتم على المدرس قبل أن يخوض في موضوع من تلك الموضوعات أن يثير شوق التلاميذ إليه بمناقشة تجتذب أنظارهم وتدفعهم

إلى الرغبة في البحث عنه فيندفعون إلى العمل فرحين مسرورين بما يوحيه الموضوع في نفوسهم من إحساسات قديمة وذكريات سابقة ، وبذلك يقبلون على تنفيذه إقبال الهائم به ، من يريد تحقيق فكرة شخصية قامت في نفسه ويبرز إلى عالم الماموسات فكرياً جالاً في خاطره ، فاندفاعه يكون بياعث من إرادته وقوة صادقة من عزيمته ، ولا غرابة فحين يوجد الشوق تنشط الإرادة ويصدق العزم ويصح التنفيذ .

وعلم الرسم سرعان ما يتحول في المدارس الأولية إلى فن جميل ، فيخرج الأطفال إلى الحداثق والمتنزهات ليرسموا ما يقع تحت أبصارهم من المناظر الطبيعية المختلفة ؛ وهذا النوع من الرسم (الرسم من الطبيعة مباشرة) يحبه الأمريكيون ويحضون عليه ، لأنه يعلم الأطفال من صغرهم كيف يترجمون ما يجول في أفكارهم بالأشكال الجميلة والرسوم الأنيقة . ويتعلم الطفل كذلك في المدارس الأولية الرسم بالألوان والفرجون (الفرشة) والماء والريشة وقلم الرصاص ، كما يتعلم رسم الوجوه البشرية ويحذقها بسرعة ، لأنهم يتخذون من وجوههم أنفسهم نماذج ينقلون عنها .

أما الفكرة السائدة في المدارس الأوربية - وهي تمرين اليد والعين فقط في رسم الأشكال الهندسية ونقل النماذج الصناعية - فلا يقبلها الأمريكيون في مدارسهم .

فهرمة البساتين :

في مدينة واشنطن خمسة وأربعون ألف طفل يشتغلون بفلاحة

البساتين، ويقام فيها كل سنة معرض عام تعرض فيه النباتات والخضروات والأزهار والثمار التي يعهد إلى التلاميذ في غرسها ونموها بأنفسهم، وتعرض مع تلك الحاصلات أعمالهم المدرسية النظرية، وكلها لا تخرج عن معلومات مستمدة من تلك الحقائق .

وفي هذه المدارس يحوم تعليم العلوم كلها من جغرافيا وحساب ودروس أشياء وأشغال يدوية حول تلك الحقائق الصغيرة ويتلقى التلاميذ فيها معلومات حية طريفة محسنة عن طبيعة الأرض ورطوبتها وخصبها ونمو النبات فيها وظهور البراعم (الأكمام) والأوراق والأزهار والثمار وأثر الفصول فيها .

فلو قرأت مذكرة كل طفل لعرفت منها تاريخ البذر وخروج النبات ونمو الساق وملاحظاتهم على أدوار نمو النبات وظهور البراعم وانبثاق أزهارها وإيناع أثمارها وجنيها .

هذا مجمل مناهج التعليم الأولى في أمريكا ، فإذا انتقلوا منه إلى التعليم الابتدائي تدرجوا إلى ما هو أرقى وأوسع في تلك العلوم عينها وما يجد عليها ولا ينبو عنها ، وكذلك حالهم إذا ما انتقلوا إلى التعليم الثانوي فإنهم يزدادون نمواً وبسطة واتساعاً في المعارف مع حرصهم على ربط هذه الأدوار الثلاثة بعضها ببعض ، حتى كأنها هيكل جسم واحد يتم تكوينه في الدور الأول ولا يزيده ما يلي من الأدوار إلا عظما وقوة ونمواً .

التعليم الثانوى فى امريكا*

نمبر

حضرات أصحاب المعالى والسعادة! سيداتى وساداتى !

أبدأ محاضرتى بتقديم الشكر الجزيل لحضراتكم لتفضلكم بالحضور لسماعها، وكل ما أرجو أن يكون لمحاضرات نقابة المعلمين النشيطة الغيورة صدى فى نفوسكم ونصيبٌ صالح من اهتمامكم والتفاتكم ، فإن مسائل التربية والتعليم ليست وفقاً على فريق من الأمة دون فريق ، ولا طائفة دون طائفة ، بل هى ملك للجميع ويجب أن يهتم لها الجميع .

ولم أر أمة أدركت هذه الحقيقة الناصعة وقدرتها قدرها إلا الأمة الأمريكية، فترى أبواب المدارس - على اختلاف أنواعها - مفتحة لكل زائر، صغيراً كان أو كبيراً، غنياً أو فقيراً، محامياً أو طبيباً، مزارعاً أو تاجراً أو عاملاً ... الخ

كل هؤلاء يرون واجباً عليهم أن يزوروا المدارس من حين لا آخر ليتفقدوا سير الدروس بها وليبدوا ما قد يعنى لهم من الملاحظات .

وإذا أراد ذوو اليسار منهم أن يظهروا سرورهم من تلك المدارس فعندهم ألف طريقة لإظهارها، والأمرىكان فى هذا أجود من الريح .

بمثل هذا التشجيع يشعر المدرسون والقائمون بأمر التربية والتعليم أن وراءهم أمة ترقب حركاتهم وتهتم لأئامورهم وتفرح لرقيهم فيتضاعف

* هذه هى المحاضرة الثانية من « التربية فى أمريكا وموازنتها بالتربية فى الأمم اللاتينية » ، وقد ألقى على ملأ من وزراء الدولة ورجال التعليم بنقابة المعلمين فى مايو سنة ١٩٢٥ .

اهتمامهم بأمر تلاميذهم ويزدادون همة ونشاطاً ، ولذلك ارتقت الأمة الأمريكية رقيّاً يحسدها عليه أكبر الأمم الأوروبية حضارة ورقياً . إن وزير المعارف وحده ، مهما أوتي من العلم والحكمة ، بل عشرين معه من نوابغ رجال التعليم ، لا يستطيعون أن يقوموا بأعباء هذه المهمة على وجهها الأتم إلا إذا شعروا بأن من ورائهم أمة يعتمدون عليها ، تزودهم بالنصح والإرشاد وتشجعهم بالمال ؛ بهذا وحده ترتقى التربية والتعليم وبالتالي ترتقى الأمم .

كثيراً ما نقرأ ونسمع أن وفود الأعيان تقصد إلى وزارة الداخلية لأُمور ربما لا تكون من أهم شئون الدولة ، ولم نسمع ولم نقرأ أنهم عرجوا مرة على وزارة المعارف أو المدارس لتفقد أحوال التعليم والسؤال عن المناهج الجديدة وما تنوى الوزارة إدخاله عليها من التحسين . ونحن لانستطيع أن نجاري الأمم الراقية ، ولا أن نتبوا مكاناً محترماً بينها ، إلا إذا احتذينا مثالها ونسجنا على منوالها ، ولا بد للوصول إلى ما وصلوا إليه من أن نغير كثيراً من أخلاقنا وأطوارنا . وكل من سار على الدرب وصل .

يحسن بنا ، ونحن على أهبة إنشاء جامعة مصرية ، أن نخص التعليم الثانوى بشئ من الشرح والإيضاح ، لأنه الحد الوسط بين التعليم الابتدائى والعالى ، ويجب أن يكون من السعة والمتانة بحيث يعد الطلاب

إعداداً أوافياً، إما للدخول في الجامعات وإما لسد وظائف الحياة الحقيقية،
أى الحياة العملية كالصناعة والزراعة والتجارة.

وقد عرضت عقدة تلك الدراسة المتوسطة على بساط البحث في
أمريكا، كما كانت موضع الجدل والمناقشة في أوروبا بل في جميع البلدان
المتحضرة التى يهيمها أن تحكم الرابطة بين الدراستين الابتدائية والعالية،
وقد حلتها كل أمة على الوجه الذى يلائم مع أغراضها من التربية
ومراميتها من التعليم .

وقد ارتأى الأمريكيون فى هذا الصدد - كما رأى كثير من الأمم
الأوربية - أن يكون هذا التعليم المتوسط عامّاً وخاصّاً فى آن واحد: عاماً
بأن تفرض على التلاميذ كلهم دراسة عدد معلوم من الموضوعات الهامة
كالغة البلاد لمدة ثلاث سنوات أو أربع، والرياضات لمدة سنتين، وقد
يضم إليهما فى بعض الأحيان التاريخ والجغرافيا والتاريخ الطبيعى، وخاصّاً
بأن يضاف إلى تلك الأصول المشتركة علوم أخرى يختار الطالب من
بينها ما يتمشى مع الغرض الذى يريد الوصول إليه ، كاللغات القديمة
(يونانية ولاينية) أو اللغات الحديثة أو العلوم الطبيعية أو إمساك
الدفاتر أو قياس المساحات وما إلى ذلك .

وقد تستغرق دراسة العلوم الخاصة ٧٠ ٪ من زمن الدراسة فى
بعض المدارس و ٤٠ ٪ فى البعض الآخر .

هذا فيما يتعلق بنظام الدروس وتوزيعها ، أما ما يتعلق بالغاية التى
يسعى إليها الأمريكيون من هذا التعليم المتوسط ، فهى التوصل إلى

نظام يكفل تكوين رجالٍ ذوي جد ونشاط ، أضف إلى ذلك عنايتهم الكبرى بـث روح الاستقلال في نفوس تلاميذهم من بدء حياتهم ، فهم يتخلون تدريجاً عن سلطتهم ليتسنى لهؤلاء التلاميذ أن يتدرجوا في مباشرة أعمالهم ومراقبتها بأنفسهم ، ويمرنوا على الابتكار والاختراع ، وألا يعتمدوا في شيء إلا على إرشاد عقولهم وهداية أفكارهم .

والمثل الأعلى الذي يتطلع إليه كل أمريكي في ذلك ، هو قول الصانع الأمريكي الكبير (پاترسن) عن حادث وقع له أيام صباه ؛ ذلك أنه قال لأبيه مرة : إنه في حاجة إلى منزلق (قبقاب للسير على الجليد) ، فقال له : « يا بني أمامك الغاب ، نخذ لك فأساً واحتطب لك حملاً ، وبعه في المدينة واشتر بـثمنه إن شئت منزلقاً » .

وقول رئيس جمهوريتهم (روزفلت) في أحد مؤلفاته « لا يتسنى لمجتمع من المجتمعات أن يرقى رقياً صحيحاً إلا إذا عاش أفرادها من رجال ونساء عيشة نقية ساذجة صحية ، وربوا أبناءهم على اقتحام العقبات وتذليل الصعاب ، لا على تجنبها والفرار منها ، وعودوهم أن ينتزعوا الفوز والنصر في الحياة من طريق الجهد والمعاناة ، وإن الرجل الجدير بهذا النعت هو الجلد الصبور النشيط الذي يكد ويكدح ليل نهار لحفظ كيانه وإسعاد كل من يعيش تحت كنفه »

لذلك ولأسباب نفسية « بـسيكولوجية » ذكرناها قبلاً ، عني الأمريكيون عناية خاصة بتدريس مادة الأشغال اليدوية ، التي أصبحت ولها المنزلة الأولى بين فروع التعليم في تحريك الجسم وإنماء القوة العضلية

وتقوية الإرادة العملية؛ وهذا الموضوع الذى بلغ عندهم مبلغاً عظيماً من الأهمية إجبارى فى مقرر الدراسة الثانوية الفنية، واختيارى فى المدارس الثانوية العادية، إلا أن التلاميذ مع ذلك يقبلون على مزاولته إقبالاً عظيماً لما انطبعت عليه نفوسهم من حبه فى المدارس الأولية الابتدائية .

ولا يختلف التعليم فى هذين النوعين من المدارس الثانوية إلا فى هذه النقطة، أما باقى العلوم من تاريخ وجغرافيا وطبيعة وكيمياء وفروضة فيهما على السواء، كما أنه لا فرق بين تعليم البنين والبنات فى تلك المدارس إلا فى نوع تلك الأشغال اليدوية، فبينما الذكور يشتغلون فى الخشب والحديد وصهر المعادن يشتغل الإناث بالعلوم والفنون المنزلية كالطهى والغسل أو التفصيل والتطريز، وفيما عدا ذلك يدرس الجنسان جنباً لجنب التاريخ والجغرافيا والرياضة على السواء وطبقاً لبرنامج واحد .
ترون من هذا أولاً أن التفرع فى العلوم يبدأ فى المدارس الثانوية الأمريكية من السنة الأولى، أما فى مدارسنا بمصر فن السنة الثالثة، وسيكون من السنة الرابعة فى المنهاج الجديد، وفى اعتقادى أن الأمر يمكن مصيبيون فى رأيهم، لأن التفكير فى التخصص مع المحافظة على الثقافة العامة يترك للذهن مجالاً أوسع للتفكير فى الغاية المطلوب الوصول إليها، ولا شك أن فعل الزمن المديد أغرس للرغبة فى العلم وثبات العزم على بلوغ القصد .

علل المربون متانة الحب الذى يشعر به الإنسان نحو رفيقه فى المدرسة بأنه لم يكن ابن حادثة، بل فعل الزمان المديد فنبت فى النفس

في رفق وهوادة رويداً رويداً، حتى تغلغل في طبائنها، واستوى كما تستوى الأزهار على سوقها، أما حب المفاجأة والمباغطة فلا يقيم في القلب إلا ريثما يخرج منه، على أن التفرغ في العلوم للاخصاء يبدأ في كثير من المدارس الحرة الأوربية منذ التعليم الابتدائي، وما ذلك إلا إيماناً بأن الشغف الحقيقي بالعلوم لا يكون إلا من فعل الزمن المتطاول، فإذا نوى الطفل وهو في طفولته أنه سيصير طبيباً مثلاً، ثم دأب على أن يرى من وقت لآخر ما يذكره بهذا المصير غرس حبه في قلبه تدريجاً وصبغ له الأمل والخيال ذلك المصير بالصبغ الجميل فيزداد به شغفاً وحباً .

سمعت سنة ١٩٢٢ في مؤتمر التربية الخلقى الدولى مربية سويسرية تخطب أمام هيئة المؤتمر في كيفية تربية الحب البنوى عند النساء، فقالت: «يجب أن نُشعر البنت بحياة الزوجية المستقبلية من يوم أن تشعر بوجودها، فتكون لعبتها تمثال عروس تداعبه وتلهو به، ثم تتدرج إلى أدوات الشراب والطعام التى تناسب لعبها، ثم إلى متاع شبيه بمتاع المنازل، ثم إذا شدت وعقلت وشبت وترعرعت وكل إليها الإشراف على تربية طفل من أطفال الملاجىء تقوم بنشأته ورعايته مدة سنتين، كأنها أمه تحنو عليه ويسعددها أن يكون صحيحاً معافى، فلا ينتهى بها ذلك الدور إلا وهي ربة منزل ماهرة، قد شغفت بحياتها الجديدة حباً وتأصل في روعها أن سعادتها لا تكون إلا في منزلها. وإنه على تعلقها بأبنائها وغيرها على تقويتهم وتهذيبهم تتوقف حياة الوطن وسعادة الأمة»

لذلك يقول الربى العربى : « اطبع الطين ما كان رطباً ، واغمر
العود ما كان لدناً » .

وترون ثانياً أن التعليم الثانوى عندهم ليس علمياً خالصاً كما عندنا ،
بل إنهم أنشؤوا مدارس خاصة بالتعليم العلمى وإعداد الطلاب للتعليم
العالى من غير أن يضحوا بالتربية العلمى الفنية High-schools كما أنشؤوا
مدارس ثانوية أخرى لها حظها من العلم أيضاً ، ولكن عنايتها بالحياة
العملية أشد ، والذين يخرجون منها يستطيعون أن ينصرفوا إلى فروع
الحياة العملية الحققة . Technical Schools

ثم ترون ثالثاً أن نصيب البنت من التعليم لا يكاد يختلف عن نصيب
الولد فى شىء إلا فى نوع الأشتغال اليدوية ، أما الثقافة العامة فواحدة فيهما ؛
والسبب فى عناية الأمريكان بتربية البنت تربية علمية كاملة هو اعتقادهم
أن المرأة تجود بكل مامنحت وتعطى كل ماوهبت ، فإذا ما هذبت وتنقفت
دفعها كرم طبعها وصفاء جوهرها إلى التفانى فى إيصال جميع معلوماتها
إلى أبنائها وتلاميذها فى غير شح ولا بخل ، فهم يؤمنون أن مستقبل
بلادهم بين يدى المرأة وأن عليها وحدها تتوقف سعادة الأجيال المقبلة
المتعاقبة ؛ لذلك هم لا يدخرون وسعاً فى تهذيبها وترقيتها إلى أبعد حد مستطاع ،
وإن الذى يرى المطابخ ومصانع تفصيل الملابس الملحقه بكل مدرسة
ثانوية تهوله ضخامة بنائها واتساع أرجائها ، وفيها تتعلم الزوجة المستقبلية
بالطرق العلمى التدريجية كل ما من شأنه أن يضمن لها استقلالاً
حقيقياً داخل حدود بيتها .

ولا يرى الأمريكان رأى الأوربيين في فصل البنت عن الولد في المدارس، لأنهم يعتقدون أن تعليم البنات في مدارس خاصة بهن - كما هو الحال في مدارس أوروبا - تعليم سطحي صناعي لا خير فيه .
ولكى تتفوا على تدريس مادة الأعمال اليدوية في تلك المدارس، أذكر لكم نماذج من تعليم الطبيعة والكيمياء والهندسة، لأن طريقة تدريسها واحدة؛ ولا يفوتني قبل عرض تلك النماذج أن أذكر حضراتكم بأن الأمريكيين هم المخترعون لمعامل الكيمياء والطبيعة التي نراها اليوم منتشرة في جميع البلدان، ولا يعلم أن مدرسة ثانوية أوربية وصلت في التعليم من طريق العمل Learning by doing إلى ما وصلت إليه المدارس الثانوية الأمريكية.

يقول مسيو بويز : إنه زار ما يقرب من عشرين معملاً من تلك المعامل، ورأى الطلبة وهم يعملون بها بكل ما أوتوا من جد ونشاط، وقدر مالها من الأثر النافع والفعل الصحيح في خفة حركاتهم وإيقاظ عقولهم؛ وقد كان موضوع التجربة التي أجراها التلاميذ أمامه في مدرسة "Crane Manual Training School" تحقيق قوانين البندول، ورأى أن الشبان والشواب عند ما فرغوا من العمل وانتهت التجارب أقبلوا على مذكراتهم، ودونوا فيها بكل بساطة وبكل اختصار ما يأتي :

قوانين البندول - وذبذبات البندول الصغيرة متساوية في الزمن -
لا علاقة لمدة الذبذبات بالكتلة - المدة تناسب الجذر التربيعي لطول البندول . انتهى

فليس بين الظاهرة الناتجة وعقل التاميز وعينه محل لذلك الحشو الممل من الجمل والاصطلاحات والتعريفات التي يجب استظهارها، بل إن الحقيقة المجردة العارية هي التي تتجلى أمام أعينهم ثم تدخل في ذاكرتهم كأنها ملكهم اخلص .

وتسير التجارب طبقاً لرؤوس مسائل مختصرة من متون الكتب Text books تبين الغاية من كل تجربة والاحتياطات التي يجب اتخاذها تحاشياً للوقوع في الخطأ .

وإلى حضراتكم نموذجاً من نماذج التجارب الكيميائية التي كان يجريها طلبة مدرسة "Mac Kinley Training High School of Chicago" أثناء زيارة مسيو بويز لها (التغيرات الكيميائية للنحاس)

(١) خذ قطعة نحاس وتأملها . هل يشاهد عليها تغيرات ظاهرة إذا سخنتها في أنبوبة اختبار ؟ وهل تذوب في الماء ؟ ما صفات النحاس الأخرى ؟

(٢) صنع قطعة صغيرة من النحاس في أنبوبة اختبار بها حامض أزوتيك مركز . دوّن بدقة وعناية ما يطرأ من الظواهر ومتى انتهى تأثير حامض الأزوتيك صُب السائل في جفنة من الصيني وبخره بوضع الجفنة على شبكة معدنية فوق مصباح بنزن . سخن بهدوء واحذر أن تسخن بشدة إذا ابتدأ التجفيف .

(٣) بعد التبريد أجر على الجسم الحادث نفس التجارب التي أجريتها على النحاس وفق ما هو مبين برقم ١

(٤) هل إذا بخرت ثلاث أو أربع نقط من حامض الأزوتيك تحصل على ما حصلت عليه عند ما بخرت النحاس وحامض الأزوتيك ؟
وازن بين رقم ٣ ورقم ١ ثم استنبط - مع ملاحظة ما جاء برقم ٤ -
نتائجك ودافع عنها بالحجج القاطعة استناداً إلى ما اكتسبته من
التثبت والخبرة في العمل .

يقول مسيو بويز : إن من يعلم مدى كراهية تلاميذنا لدراسة
علم الكيمياء من الكتب والمختصرات والمذكرات يأخذه الدهش
حينما يرى السرور باديًا على وجوه التلاميذ الأمريكيين وهم يتعلمون
بالأدوات والأجهزة ذلك العلم النفيس الذي لم تعد تخفى أهميته العظمى
على أحد سواء أفي قيمته التهديبية أم في تطبيقاته الصناعية .

إن الأثر الذي يبقى في أذهاننا بعد مغادرة المدرسة من دراسة
علم الكيمياء - التي نسميها تجاوزاً بالكيمياء العملية لا لسبب سوى
أن المدرس يُجرى من حين لآخر بعض التجارب بمرأى من
التلاميذ - هو أن النظريات والقوانين هي أصل العلم
والأساس الذي يشاد عليه ، أما الحقائق والتجارب ففي المنزلة الثانية
ولا تأتي بعد إلا لتعاول - ولو بالإكراه - تأييد تلك النظريات
وإثباتها ، وإن علم الكيمياء بحذافيره معلق على النظرية الذرية التي لو أغفلت
لأُصد باب الاجتهاد ولاستحال التحليل واستعصى الاختراع ؛ وإن
المبتدئ من الطلاب ليخيل إليه أنه بلغ ذروة الرقي إذا عرف أن الماء
هو ايد ٢ ، وإن لم يكن يدرك لذلك الرمز أصلاً ولا معنى .

أما في أمريكا فإن النظريات والقوانين تستكشف استكشافاً
بالعمل والتجربة كما قدمنا ، ولا شك في أن هذه هي الطريقة المثلى
للتدرج في الابتكار والاختراع .

فبينما تركز مدارسنا تحت عبء تلك الطرق العتيقة التي تقف
التلميذ موقف المستمع المتقبل لا الممثل الفاعل ، إذ بمدارس الأريكان
تجاوبها بكل افتخار بما تنعم به من الطرق الحديثة التي ترمى دائماً
وبكل الوسائل الممكنة إلى استخراج ما كن في التلميذ من جهود
وملكات وإرادة ومنطق ومهارة ، وتوجهها جميعاً للعمل جنباً لجنب ،
متخذة لها في ذلك كله شعارهم المشهور "push — Help Yourself" ومعناه:

ما حك جلدك مثل ظفرك فتول أنت جميع أمرك
ليأخذوا الأطفال من حداثة أسنانهم بالاعتماد على النفس
والجراحة على الخوض في غمار الحياة وتجربة أمورهما واقتحام عقباتها
مهما كلفهم ذلك ، فهم يعلمون الطالب كيف يكون وصولياً ، ولكن
على أرق وأشرف أساليب الوصولية Arrivisme

نأبهر هذه التربية الاستقلالية في نفوس المرابط

كان طبيعياً بعد ذلك أن يفهم من تربية تطرق ذلك الطريق
ونرى دائماً إلى إعداد كل فرد لأن يقوم بنفسه ويستقل بأموره في
هذا المعترك ، أن الأريكان قوم بلغوا من جمود العواطف وقساوة

القلب مبلغاً عظيماً، فلا يعينهم أمر الجائع ولا يشغلهم شأن البائس، وهذا نتيجة ما يسميه الافرنج الفردية المتطرفة «L'individualisme à outrance»؛ غير أن من ينعم النظر في أخلاقهم الاجتماعية يرى أنهم يفهمون من الصدقة والإحسان معنى غير المعنى الذى تفهمه الحضارة القديمة، ذلك أنهم بحثوا عن علة الشقاء فاجتهدوا فى ملاقاتها، وعرفوا مكن الداء فعمدوا إلى استئصاله؛ عرفوا أن علة الفقر الجهل فأقاموا دور الكتب بكل سبيل وفتحوا مدارس لكل طالب وأوجدوا عملاً لكل عامل ووسيلة لكل مستطيع، فليسوا مثل الأمم القديمة تداوى ظاهر العلة وتبرىء اليوم ما ينتقض غداً فتطعم الجائع وتسد حاجة المحتاج، وهى بذلك إنما تعطل جمهوراً كبيراً تحتاج البلاد إلى جهوده وتعوده الرحمة الضارة وتحرم الوطن الانتفاع بوجوده، فلا هى أحسنت إلى هؤلاء ولا إلى الوطن بهذا الأسلوب من الشفقة والرأفة .

والآن أعرج بحضراتكم على فرنسا التى ترسف فى قيود طرق التربية العتيقة العقيمة، كما يعترف به كبار علمائها وكتابها، والتى لا تزال إلى اليوم تنأى أحياناً مرة من ذلك المرض الاجتماعى الخطير الذى نجحت أمريكا نجاحاً باهرآ فى استئصال شأفته من بلادها بفضل تربيتها الحققة وتعليمها الصحيح، ذلك المرض هو وجود جيش عرمرم من أبنائها العاطلين وجلهم من الذين قضوا شبابهم بالمدارس والجامعات وحصلوا منها على الشهادات والدرجات والألقاب العلمية العالية .

يقول جوستاف لوبون : إن الدعامة الكبرى التي يشاد عليها
صرح التعليم في مدارسنا الثانوية والعالية هي حفظ الكتب الضخمة
واستظهار الشروح المطولة وشحن الأدمغة بنظريات لا تستقر فيها
إلا ريثما تنقضى أيام الامتحان ، شأن كل علم يصل إلى العقل من طريق
السمع وليس للنظر فيه مجال .

وإذا كان الشاعر العربي يقول في مجال السياسة : السيف أصدق
أنباء من الكتب ، فأنا أقول في مجال التربية والتعليم : العين أصدق
أنباء من الأذن .

والروح السارية في الجامعات بل في المعاهد العلمية كلها ، هو
الاعتقاد بأن قيمة الرجال تقاس بمقدار ما يطبقون أن يحفظوا
وما يستطيعون أن يسمعوا ، فلا فرق عندنا بين خريجى الجامعات
وحاملى البكالوريا إلا أن الصنف الأول يخزن في ذاكرته من المعلومات
أكثر من الصنف الثانى ، وليس إذن بغريب أن يضوّل الإبتاح العلمى
الفرنسى وتنحط مكانته العلمية بين الأمم .

نحن نعتز بأن عندنا مهندسين وأطباء وأساتذة يفوقون مناظرهم
من الأمم الأخرى علماً ، ولكنهم للأسف إذا وضعوا قدمهم في
ميدان الحياة العملية الحرة أظهروا من الخبل والعجز ما لا يشرف رجال
الجامعة الذين خلقوهم خلقاً صناعياً ، والذين وصفهم الناس بحق أنهم علماء
بلهاء Idiots Savants ، أما إذا منحتهم الحكومة وظائف فيها فإن ذلك
النقص الفاحش والعجز الظاهر يظل مخبوءاً مستوراً ولا يظهر جلياً إلا

عند مزاولة الأعمال الحرة ولا سيما الصناعات والحرف التي تتطلب مهارة ودقة كحرفة المهندس مثلاً . وإليك أقوال أحد الأساتذة أمام لجنة التحقيق :

إن المهندس الألماني عند خروجه من مدرسة فريبرج Gribourg مثلاً ، يستطيع أن يباشر العمل من فوره ، وله قيمة فنية يعترف بها رؤساء المعامل والمصانع الكبيرة ؛ أما المهندس الفرنسي الخارج من (سنترال) الذي يعلم من العلم النظرى ما لا يعلمه المهندس الألماني ، فإنه قل أن ينتفع به في هذا المضمار ، لأنه كما يقولون : Apte a tout مستعد لكل شئ bon à rien ولا ينفع بشئ .

ولذلك يختار رؤساء المعامل والمصانع في فرنسا عمالهم من خريجي مدارس الفنون والصنائع بها ، ويؤثرونهم على المتخرجين في مدرسة سنترال .

وما ينطبق على المهندس ينطبق على الجندي والطبيب والمعلم وغيرهم . كتب مسيو (دوسوسير) أحد ضباط البحرية الفرنسية مقالا في كيفية تعليم تلاميذ المدرسة الحربية الرماية ، قال فيه : إن هؤلاء الشبان يقضون الأيام والشهور في حفظ نظرية الرماية من الكتب ، والمدافع أمامهم ، وليس لأحد أن يمسها بيده ، ثم يمر المتحنون فيمنحون أعلى الدرجات لمن يحسنون الحفظ ويجيدون التسميع ، ولو أننا أردنا خيراً بآبائنا وتوخيها معهم طرق التربية الحقة لتركناهم يضعون

أيديهم في العجينة مباشرة ، ويفكون المدافع قطعة قطعة ، ثم يعيدون تركيبها المرة تلو المرة؛ وإنى لو ائق أن التلميذ الذى يطلق مدفعاً بعد حله وتركيبه بيده يعرف من نظرية الرماية والتصويب أضعاف ما يعرفه منها من حفظها من الكتب واستظهرها من الشرح .

لا نريد أن نسترسل فى إيراد الأدلة والشواهد الصادرة عن أفاضل الكتاب والعلماء ولا سيما الذين ساحوا فى الدنيا وجاسوا خلال الأمم وخبروا أحوال الشعوب ووقفوا على أسرار رقيها أو انحطاطها مثل (مسيو دوسوسير) المتقدم الذكر ، لأن الانسان يكاد ينجل من تكرار أمور كهذه أضحت واضحة وضوح البدهيات ، غير أن من يراها بعينه يدرك مدى تأثير عقلية رجال الجامعة فى جميع معاهد التعليم ، ومبلغ ماجروه علينا من الويلات بفضل طرقهم العقيمة فى التربية والتعليم ، فلقد صيرتنا أمة تتعلق بأهداب النظريات بعيدة عن الحقائق عاجزة عن تكييف الظروف والانشاء أمام الضرورات ، قصيرة النظر فى الحكم على الأشياء والبصر بعواقب الأمور ، ولا بد من أن نعترف صراحة أن تعليمنا الحالى لا يتمشى مع التطور الحديث ، ولا يتفق مع احتياجات هذا العصر ، بل إنه من أهم عوامل الانحطاط الاقتصادى الذى تعانيه فرنسا اليوم ، وإنه ليحزننا كل الحزن أن نوازن بين رقينا البطئ فى الشئون التجارية والصناعية وبين ذلك التفوق الظاهر والنجاح الباهر الذى أحرزته الأمم المجاورة لنا فى هذا الميدان ولا سيما الألمان .

وكيف لا تكون الموازنة محزنة والنتيجة سيئة وقد جرينا فى تقدير

الرجال في سن العشرين على قاعدة ترتيب الشهادات التي أحرزوها من الحكومة ، ومن هؤلاء دون غيرهم تختار الحكومة من يتولى شؤونها ويقوم بخدمتها .

أما الأفراد الذين قاموا بأنفسهم وعولوا على جهودهم ونبغوا نبوغاً عظيماً في المدارس الحرة ، فلا تنظر إليهم الحكومة ولا تستفيد من علمهم ونبوغهم ، لا لسبب سوى أنهم لم يطبعوا بطابعها ولم يحرزوا ألقابها . وقد ترتب على ذلك اندفاع الشباب كلهم وراء الشهادات ، مضحين في سبيل الحصول عليها بقواهم الجسدية والعقلية ، نابذين وراء ظهورهم وظائف الحياة الحقيقية النافعة التي لا يتسنى لأمة أن تقوم بدونها ، وهي التجارة والصناعة والزراعة والاستعمار وهكذا ، فكانت النتيجة المحتومة من تهافت الشباب على الدراسة النظرية أن ازدادت جموع العاطلين من الخاصلين على تلك الشهادات وزاد عددهم عن حاجة الحكومة وأصبحوا عيالا على المجتمع ؛ وماذا تصنع الحكومة بذلك الجيش العرمرم من حاملي البكالوريا والليسانس وغيرهما ؟ لاشك أن هؤلاء الشبان ، وقد أعدتهم المدرسة للتوظيف ليس غير ، ينزعون إلى العبث بالنظام العام ويجنحون إلى الثورة لأنهم يظنون أنهم ذهبوا ضحية ظلم الحكومة وجورها .

يقول الكاتب الفرنسي « ليون سي » : إن التعليم الثانوي جنى على فرنسا جنائية عظيمة ، لأنه كان من أهم العوامل التي ساعدت على نمو الاشتراكية وانتشارها فيها من جراء تلك الزيادة المطردة في عدد

حاملى الشهادات العليا الذين لم تستطع الحكومة أن تجد لهم عملاً فى مصالحها .

وإن أظهر الأدلة على ذلك وأوضحها هو ذلك الطالب الفوضوى (إميل هنرى) الذى بعد أن حصل على البكالوريا وأتم دراسته العالية فى مدرسة الهندسة حكم عليه بالإعدام شنقاً .

إن العلم الناقص خطر لأنه يحمل الطلبة على احتقار الأعمال النافعة من جهة ، ومن جهة أخرى يحرك أطماعهم ويفتح شهياتهم دون أن يمنحهم الوسائل لإرضاء تلك المطامع وإشباع تلك الشهوات .

إن هؤلاء البائسين من حاملى الشهادات العالية مر العلم على أذهانهم فى المدرسة مرور السحاب دون أن يفهموا له معنى أو يدركوا له غرضاً ، فأصبحوا لذلك عاجزين عن فهم الحياة الاجتماعية وإدراك نظرياتها المتشعبة المعقدة ، وأصبحوا لا يرون منها إلا ما يبدو لهم من مظالم موهومة وجور مزعوم .

يزداد عدد هذا الجيش الكبير كل يوم ولا بد أن يزداد كلما عظم نفور الناس من الأعمال اليدوية ، وتدل الأرقام والإحصاءات على أنه فى سنة ١٨٥٠ كان عدد الأسر التى قدمت أبناءها للتعليم الثانوى عشرين ألفاً ، واليوم ارتفع ذلك العدد إلى عشرة أمثاله ، وسينبتنا المستقبل القريب عن الأسباب التى دعت إلى انحطاط الأُمم اللاتينية وانقراضها من عالم الوجود ، ولا شك أن تعليم الجامعات سيكون من أقوى معاول الهدم وأهم عوامل الفناء .

لقد بلغ من احتقار الفرنسيين للأعمال اليدوية أن كثيراً من العمال يكرهون أن يكون أبناءهم مثلهم عمالاً يشتغلون بأيديهم ، وأن كثيراً من المزارعين لا يروقهم أن يخلفهم أولادهم في حراثة الأرض ، ذلك لأنهم ولعوا بالتوظيف وآثروا فخره على الرخاء والغنى الذين تدرهما الأعمال الحرة .

ولقد كان من وراء ذلك أن صارت فرنسا تلتجئ إلى الاستعانة بالطليان والبلجيكيين لفلاحة الأرض والقيام بكثير من الأعمال اليدوية التي هي في الواقع مصدر الثروة الحقيقية في البلاد .

لم يقف الأمر عند استخدام الأجانب في صميم البلاد ، بل تجاوزه إلى المستعمرات ، فهذه بلاد الجزائر تموج بالسكان من أهل أسبانيا ومالطة ، على حين تفيض مدن فرنسا بالكتبة والمستخدمين الذين قنعوا بالمرتب الضئيل ورضوا بالعيش الضنك (لأن الوظائف أيضاً كالسلع في الأسواق خاضعة لناموس العرض والطلب) ؛ والسبب في ذلك راجع إلى أن التعليم الذي تلقوه بالمدارس لم يعد لهم للمغامرة في الحياة العملية إن لم يكن قد أقصاهم عنها . ولقد شعر المصلحون من رجال فرنسا بوخامة العقوبة من دوام هذه الحال ؛ فهذا مسيو هانوتو أحد وزراء فرنسا السابقين يصرح أمام لجنة التحقيق بوجوب تحويل عدد كبير من المدارس الثانوية الحالية إلى مدارس فنية ، ويقترح إدخال دروس الزراعة ضمن مقرراتها لأن فرنسا بلد زراعي ، وقد نجحت التجربة نجاحاً عظيماً في عدد صغير من تلك المدارس ، ومنها مدرسة نيوبور

الشيدة في الخلاء والتي كلفت الحكومة نفقات طائلة ، والتي كادت تغلق أبوابها لقلة الطلاب فيها ، ولكنها ما لبثت أن عادت إليها الحياة وماجت بالطلاب لما أدخلوا فيها الدروس الزراعية النظرية والعملية ، وفي هذا وحده دليل قاطع على وجوب أن تكون مناهج التعليم متغيرة طبقاً لطبيعة الإقليم وحاجة أهله ، فتضاف الزراعة إلى العلوم إذا كان الإقليم زراعياً ، ويحل محلها علم المحاسبة وإمساك الدفاتر إذا كان تجارياً وهكذا حتى تجد كل مقاطعة من أبنائها من يتولى تسيير أمورها وينهض بأعمالها كما هي الحال في المدارس الانجليزية الثانوية .

ولقد قال « جول فرى » لما كان وزيراً للمعارف قولاً حكيماً بشأن الأعمال اليدوية وضرورة تعليمها في المدارس :

« إن اليوم الذى يتاح لنسائه أن تضع المبرد والفارة بجانب بركار^(١) الهندسة وكتاب التاريخ ، وتنظر إلى جميع هذه المواد بعين واحدة ونعيرها اهتماماً واحداً ، فهو اليوم الذى يقضى فيه على كثير من الترهات والأباطيل من عاداتنا وتزول عوامل التفريق بين طبقات الأمة وينبعث نور السلام الاجتماعى من حجر المدارس الابتدائية لينتشر في جميع أرجاء البلاد ، وما ذلك على فرنسا بعزير ، ولا سيما بعد أن نجحت أمريكا في نشر تلك الطرق في بلادها

« نعم إننا نبين الأمريكيين في سرعة القبول للجديد لأن هذه الأمة حديثة لم تنقلها قيود الماضى من عادات وتقاليده ، أما نحن

الفرنسيين فقد يكون من الصعب علينا قبول الإصلاح لما لنا من سنن متبعة وعادات متأصلة ؛ وصعب على الإنسان هجران ما تعود واطراح ما شب عليه ، وتلك ميزة الأمريكيين علينا فهم ليس لديهم مثلنا جامعة تُصم آذانها عن الإصلاح وتحارب كل إنشاء وتجديد « لعل من سوء الحظ للأمم اللاتينية أن كان لها تاريخ قديم تعزبه ولا ترضى به بديلاً ، فكما دعا داع للإصلاح نكصوا على أعقابهم » وقالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتفون »

لذلك لم يتح لهذه الأمم أن تخطو تلك الخطوات الواسعة إلى الإصلاح لأنها تلتفت إلى الماضي فإذا هي خطت خطوة رجع بها الشوق إلى قديمها فتقهقرت خطوات ، فنحن سنستمر في جهاد عنيف مع هؤلاء الأموات ، ولعلنا غير مستطيعين في يوم من الأيام أن نُجلى من أمامنا جيش تلك الأشباح القديمة المروعة ، فقد مضى نحو قرن من الزمان دارت فيه الرحى وحمى الوطيس بين القديم والحديث ولم يظهر أن النصر بجانب الأحياء إلى الآن »

الخلاصة:

نستخلص من كل ما تقدم أن التربية والتعليم على نوعين: أحدهما عماده الحفظ والثاني عماده التجربة ، أما النوع الأول فقليل الجدوى كما أشار إلى ذلك مونتيني بقوله : *Savoir par coeur n'est pas savoir* ، ومعناه : ليس العلم بالاستظهار جديراً أن يسمى علماً . ويقول « كانت » في هذا الصدد : « إذا لم يستطع الطفل أن يطبق قاعدة نحوية

تطبيقاً صحيحاً فلا فائدة من حفظه إياها لأنه مجهلها ، وإن الطفل الذى يعرف كيف يطبقها هو الذى يعرفها حقاً وإن لم يحفظها »

وتسلك الأمم اللاتينية الطريقة الأولى ، أما الثانية فتسير عليها الأمم الانجلوسكسونية ولا سيما الأمريكان ؛ فالشباب اللاتينى يتعلم اللغة من الأجرومية والمعاجم ولا يحرك بها لسانه ، ويتعلم علم الطبيعة من الكتب دون أن يلمس بيده جهازاً من أجهزتها ، وإذا قدر له النجاح فى الحياة العملية فيما بعد فلا يكون إلا بعد أن يتجرد من معلوماته القديمة ويبدأ بتربية نفسه بنفسه من جديد. أما الشاب الأمريكى فقل أن يفتح كتاب الأجرومية أو اللغة لأنه يتعلم اللغة بقراءتها والتكلم بها ، ويتعلم الطبيعة بالتمرن على ممارسة أدواتها وإدارة أجهزتها ؛ ويتعلم الهندسة بأن يبدأ بالدخول كعامل فى مصنع من المصانع حتى يمهرفيها بالعمل ثم يبدأ بعد ذلك بالنظريات ، وبهذه الطرق البسيطة وصل الانجليز والأمريكان إلى خلق بيئة علمية من النابغين الذين يندر وجود أمثالهم فى العالم . وإنما آثرت الأمم الانجلوسكسونية طريقة التعليم والتربية بالتجربة والعمل على طريقة الحفظ والاستظهار ، لاجرياً منها وراء المنفعة المباشرة التى تعود من ممارسة الأعمال ومزاولةها فحسب ، بل سعيها وراء غاية أرفع وأسمى وهى تنمية روح المراقبة وقوة التفكير فى النابتة ، لأن إجراء التجارب يستدعى النظر الصحيح إلى الأشياء ويتطلب التأمل والتفكير ، أما حفظ الدروس عن ظهر قلب فلا يتطلب ذرة من التعقل والتصور .

ولكى يقف حضراتكم على مبلغ تعلق الأئمة الأنجلوسكسونية بأهداب التعليم العملي تقتطف كلمة حكيمة وجهها المستر بلاكى الأستاذ بجامعة أدنبرج إلى الشبان، قال :

«وصيتى للشبان أن يكون العمل ومراقبة الأشياء أول دراستهم، وأن يعلموا أن مناهل العلم العذبة وموارده الصافية لا توجد فى الكتب بل فى الحياة نفسها وفى التجربة والمزاولة والمحاولة، فإذا ما تقدم المرء إلى الحياة نشيطاً للعمل، جريئاً على التجريب، صبوراً على المزاولة، فذلك هو سر نجاحه، وليست الكتب بجانب تلك الصفات والمزايا إلا مرشداً عند الهفوة ومنبهاً عند الغفلة وساداً للكثير مما يعرض من خلل أو يطرأ من نقص، فالكتب إلى جانب التجربة مفيدة نافعة ولكنها وحدها لا طائل تحتها ولا خير فيها، وما مثلها إلا كمثل المطر يهطل على أرض لم تقلبها فأس ولم يشقها محراث.»

ربما يتوهم أن الاعتماد على التجربة فى جميع فروع التعليم ولا سيما الأديبات منها كالجغرافية والتاريخ وعلم الاخلاق ليس بالأمر الهين المستطاع، والحقيقة أن تلك العلوم تلقن الآن للأطفال بالعمل والتجربة ليس إلا؛ ففي درس الجغرافيا يخرج المدرس بتلاميذه إلى الغيطان والمتنزهات بعد أن يزود كلا منهم بالقلم الرصاص وبيت الإبرة (بوصلة الجيب) والورق المسطر على شكل مربعات صغيرة ليعلمهم كيف يرسمون منظر الأرض التى يمرون بها ومرتفعاتها ومنخفضاتها على الورق فى مستوى واحد بمقياس رسم معلوم مع المحافظة على الأبعاد والأوضاع

ولا يبدأ التلاميذ بالنظريات إلا بعد أن يحددوا رسم الخرائط الجغرافية. وفي درس التاريخ يعتمد على مشاهدة ما خلفته كل أمة وراءها من مدنية وحضارة كالمباني والنقوش والرسوم وما شاكلها ، وهذه رسوم يمكن مشاهدتها بالتردد على دور الآثار أو استعراضها بالفانوس السحري أو السينما توغراف . إن التاريخ إذا درس للأطفال على هذا النحو فإنه يترك في أذهانهم أثراً لن يمحي على ممر الأيام والأعوام ، أضف إلى ذلك أنه أنفع لهم من استظهار الوقائع الحربية وتواريخ الحوادث وسير الملوك من الكتب .

أما علم الأخلاق فيصح أن نقول إن أسلوباً غير أسلوب التجربة المباشرة في تلقينه للنشء لا يجدي نفعاً ، وقد أشار إلى ذلك بسكال بقوله «إن الأخلاق الحقة تهزأ بعلم الأخلاق» ، يريد بذلك أن يقول إن من يظن أن الأخلاق تعلم بتلقين قواعدها من الكتب فقد جهل طبائع الأطفال جهلاً عميقاً .

إن التجارب وحدها هي التي تعلم الرجال ، وإنها وحدها هي التي تعلم الأطفال أيضاً ، فلندع الأطفال يميزون الخير من الشر بأنفسهم ، ولنعودهم من نعومة أظفارهم أن يتحملوا تبعه الشر كلما وقعوا فيه . قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : فلان لا يعرف الشر ، قال : هذا أخرى أن يقع فيه .

وهؤلاء سكان الجزر الفقيرة الذين اضطرتهم قساوة الطبيعة وضنك العيش إلى الارتزاق من طريق عراك الحوادث ومكابدة الحيل

« والحاجة تفتق الحيلة » إلى التخلق بأخلاق الرجولة الصحيحة كالصبر والثبات والإرادة والدهاء والجرأة والإقدام ، لأنهم تلقوها بالتجربة ودرسوها بالعمل فكان لها هذا التأصل في نفوسهم والرسوخ في طباعهم ، ولا تكون أخلاق الأمم أخلاقاً صحيحة ثابتة إلا إذا غُرست في نفوس أبنائها بالتجارب والممارسة زمنًا مديدًا ، وتلك هي الغاية التي تتجه إليها جهود المصلحين والغرض الأسمى الذي ترمى إليه التربية الحديثة التي وضع لها الدكتور جوستاف لوبون تعريفًا جديدًا مختصرًا جامعًا اتفق كبار المربين في الأمم الراقية على اتخاذه أساساً تبنى عليه تربية النشء

وهو L'Education et l'art de faire passer le conscient dans l'inconscient،

ومعناه : إن التربية فن يوصل إلى جعل النظريات التي تفتقر إلى أعمال الفكر والروية ، عادات وغرائز في النفس تصدر عنها من غير تأمل ولا تفكير لطول المراتة والمراس . وقد فطن أركان حرب الانكليز والأمريكان إلى هذا التعريف وقدروا أهميته قدرها في التربية العسكرية على وجه الخصوص ، لأن الجندي في ميدان القتال مسوق إلى العمل بغرائزه وعاداته ، وهو يعتمد عليها أكثر من اعتماده على عقله وتصوره .

الخاتمة

إلى هنا فرغت من شرح أمهات مسائل التربية والتعليم في أمريكا مع موازنتها ، على قدر المستطاع ، بمثلها في الأمم الأوربية الراقية ، وليس لي من غرض إلا أن أعرض - على مسامح حضرات المعامين أو الغير - على التعليم في مصر من أي طبقة كانوا - أفكاراً سليمة جديدة في التربية

والتعليم كانت هي السبب الوحيد في أن أصبحت الأمة الأمريكية متبوءة مكانة سامية غبطها عليها أعظم الأمم الأوروبية حضارة ورقياً. أعرض تلك الأفكار الصحيحة وأشرها بين الناس لاعتقادي أن الانسان يجب ألا يتردد في نشر الأفكار الصائبة النافعة في البيئة التي يعيش فيها، فإنها كالبذور الصالحة لا بد أن تنبت يوماً ولو أصابت أرضاً يابسة جامدة؛ أعرضها وأشرها بين طبقات المعلمين خصوصاً لعلهم ينسجون على منوالها ويحتذون مثالها في مدارسنا أو يقتبسون منها على الأقل ما يناسب حالتنا ويتفق مع ذوقنا.

قد يكون من الصعب أحياناً نقل طرق التربية والتعليم برمتها من أمة إلى أمة أخرى وربما لا يكون؛ فاليابان مثلاً وهي أمة جديدة لم تنقل كاهلها العادات المتوارثة والتقاليد المتعاقبة استطاعت أن تنقل نظام الجامعات في ألمانيا بحذافيره فأينع وأثمر وأصبح لدى اليابان بيئة عامية لا تضارعها في التشويق وحب البحث والاختراع إلا البيئة الألمانية. ومصرنا الجديدة الناهضة لا يضيرها أن تقتبس من النظم الحديثة ما تشاء، فليست المدينة الا تقليداً وانقياداً بعد تحكيم العقل والذوق في اختيار الأصلح والأنسب.

وإن قبول التبديل والتغيير وسرعة الإجابة لدعوة الإصلاح لمن أسرار نهوض الأمم ورقياً، فهذا مونتنسكيو يعزوه رقي الرومان وتقوقهم إلى تلك المرونة في طباعهم وسرعة أخذهم بالحسن متى ثبت لهم حسنه، وقبولهم النافع والمفيد متى تحققوا نفعه ووثقوا من فائدته،

حيث يقول : « إن من أهم الأسباب التي جعلت الرومان سادة الدنيا وقادة العالم أنهم - وهم يحاربون أمم الأرض جميعاً ويفوزون عليها الواحدة تلو الأخرى - لم يحجموا أبداً عن التخلي عن عاداتهم والتخلي بما يجدونه أنسب منها وأصلح » ، ثم يقول بعد ذلك « ومن المدهش أن تلك الأمم التي نازلها الرومان في جميع الأمكنة والأزمنة استسلمت للفناء استسلاماً ، دون أن تقطن إلى سبب تدهورها وتبحث عن علة شقاءها »

وهل لشقاء الأمم المغلوبة على أمرها من سبب سوى الجهل الخيم على عقول أبنائها واستئثار كل فرد منهم بحب الفخار مفضلاً شهوته ومصالحته على مصلحة الوطن ؟ فالأثرة والأناية هي الداء الدوى الذي ينخر عظامنا اليوم .

لقد أغريتكم أيها السادة بسلوك طريق الرومان في سرعة قبول الجديد الموافق ، وليس ذلك طمعاً في أن نسود العالم مثلهم ، ولكن طمعاً في ألا يسودنا أحد ، وأن يكون بناؤنا بأيدينا واعتمادنا على أنفسنا ، حتى نتبوأ بذلك مكاناً لا يُنتقأ بين الأمم .

وليس مرادى من التمدح بسرعة قبول الجديد والرضا بالتبديل والتغيير أن نقلب الأمور رأساً على عقب ، فإن ذلك لا ينبغي أن يكون سبيل أى مصالح ، فرب عجلة تهب ريثاً ، ولو أن مصالحاً متعسفاً بدّل الأشياء جملة فإنها تواتيه حيناً ولكنها لا تلبث ، إذا زال عنها استبداده وارتفع سلطانه ، أن تعود إلى قديم شأنها وسابق عهدها .

إن الإصلاح الناجع، ولا سيما في أساليب التربية والتعليم، هو ذلك الإصلاح التدريجي المستمر الذي يحاكي الطبيعة في فعلها، فهي التي كونت الجبال الرواسخ من ذرات الرمل الصغيرة تراكم بعضها فوق بعض على مدى الأيام والأجيال.

فكرت وزارة معارفنا من عهد قريب في تغيير مناهج التعليم وتنقيحها، ورأت أن تضيف إليهم مواد جديدة كالمنطق والتربية الوطنية والتاريخ الطبيعي الخ. هذا حسن في ذاته ولكن نرجو أن تكون قد فكرت قبل أن تزيد تلك المواد الجديدة في النقص من المواد القديمة، حتى لا ينوء التلاميذ بثقل الحمل والعبء الباهظ الذي يضطرونهم إلى شحن أذهانهم بما لا يدوم فيها إلا ريثما ينقضي الامتحان. فلقد شاهدت بنفسى أثناء تفتيش المدارس الثانوية أن المدرسين يشكون من طول المناهج، ولذلك رأيتهم يهتمون بإتمام المقرر أكثر من اهتمامهم بتنقيح أذهان التلاميذ وتربية ملكة التعقل والاستنباط فيهم، حيث لا يدعون لهم من الوقت ما يمكنهم من التفكير والتروى بحجة أن المقرر أطول من أن يسمح لهم بالمناقشة والاستقصاء.

ليس من الضروري أن يكون تنقيح مناهج التعليم بالزيادة في المواد، بل قد يكون بحذف بعضها واختزال البعض الآخر، فسر التعليم هو في القليل الشائق المفهوم الذي يدعو إلى الاستنباط ويعود الحكم الصحيح على الأشياء والتبصر في عواقبها. التعليم الصحيح كما يقولون « كيف لا لكم ».

وتلك نقطة أساسية وفكرة جوهرية في موضوع التعليم نحب أن نوجه إليها الأنظار توجيهاً خاصاً ، وإن كنا نعتقد أنها لا تغرب عن فطنة وزير المعارف الذي لم يأل جهداً ولم يدخر وسعاً في سبيل الإصلاح والتجديد من يوم أن تسلم مقاليد التربية والتعليم .

على أننا نرحب بكل زيادة في مقرر الدراسة تنمى في النشء أخلاق الرجولة الصحيحة ، كالعمل اليدوى الذى يحجب إليهم الحركة ويعودهم الصبر والثبات والمقاومة في معالجة شئون الحياة .

سمعنا أن وزارة المعارف اعترمت إنشاء أقسام لفلاحة البساتين ، وتلك فكرة جميلة تشكر عليها ، وأملنا أن تتوسع في هذا المنهاج من التعليم وتعممه في المدارس الأولية والابتدائية كما توسع فيه الأمريكان على نحو ما سمعتم في المقال السابق ، وأن تقتدى بها المدارس الأهلية الغنية كالجمعية الخيرية الإسلامية وجمعية المساعى المشكورة التى تملك نحو ألف وأربعمائة فدان . كان الواجب على تلك المدارس الحرة ألا تسير على منهاج التعليم النظرى أسوة بالحكومة ، بل تقصر جهودها على تنمية هذا النوع من التعليم خدمة لأبناء إقليمها حتى يخرج منهم الصالحون للحياة العملية الزراعية ولا نرى منهم المتهافنين على الوظائف .

وفى اعتقادى أنه لو استمرت الحال فى مصر على ما نرى من العناية بالتعليم العلمى دون التعليم الفنى لوقعنا بعد بضع سنوات فى تلك المشكلة الاجتماعية الخطيرة الواقعة فيها أوربا اليوم ، وهى مشكلة العاطلين من حملة الشهادات على نحو ما ذكره جوستاف لوبون عن فرنسا .

وقد سمعنا كذلك أن الوزارة اعترفت بتدريس التاريخ الطبيعي بفروعه من حيوان ونبات وجماد، فسدت بذلك نقصاً كبيراً لازم التعليم في مصر مدة الثلاثين عاماً الأخيرة، وأكبر أملنا ألا تقتصر في تدريسه على النظريات وشرحها بين جدران المدارس، بل المأمول أن يخرج التلاميذ في فهم هذا العلم إلى العمل والمشاهدة بأنفسهم في الحقول والبساتين حتى تعشق أنفسهم تلك المعيشة وتستريح إليها وتقع بها. وأرى أن يبدأ بدراسة هذا العلم الجليل الأثر في تنمية قوة الملاحظة من السنة الأولى.

جاء في تقرير اللجنة البرلمانية الفرنسية أن عدد التلاميذ الذين يعدون أنفسهم للعلوم النظرية في المدارس الثانوية ١٨٠٠٠٠، وأن عدد من يتخصص لفروع الحياة العملية من زراعة وتجارة وصناعة لا يتجاوز ٢٢٠٠٠ أعنى بنسبة ٨ من النوع الأول إلى واحد من النوع الثاني، والأولى أن تعكس النسبة، لأن الأمم لا تعيش بالمحامين والمهندسين فحسب، بل رغد عيشها من كد المنتجين من الزراع والصناع والتجار، وهؤلاء هم نحو تسعة أعشار الأمة فلا بد أن يكون لهم من المدارس ما يناسب عددهم.

وهاكم ما جاء في تقرير لجنة التجارة والصناعة المنشأة بقرار من مجلس الوزراء بتاريخ ٨ مارس سنة ١٩١٦ برئاسة حضرة صاحب المعالي اسماعيل صدق باشا «تقترح اللجنة إدخال التعليم التجاري الأولى في المدارس الأولية والتشجيع على توسيع دائرة الدروس التجارية الليلية

في المدن العظيمة لأنه من اللازم أن يؤثر التعليم التجاري تأثيره المطلوب في الطبقات الوسطى والفقيرة من الأهالي على الأخص، لأنها دون غيرها هي التي حافظت إلى الآن على الروح التجارية وتقاليدها، خلافاً للطبقة العليا عندنا، فقد بقيت ميالة إلى السيادة وإلى وظائف الحكومة.

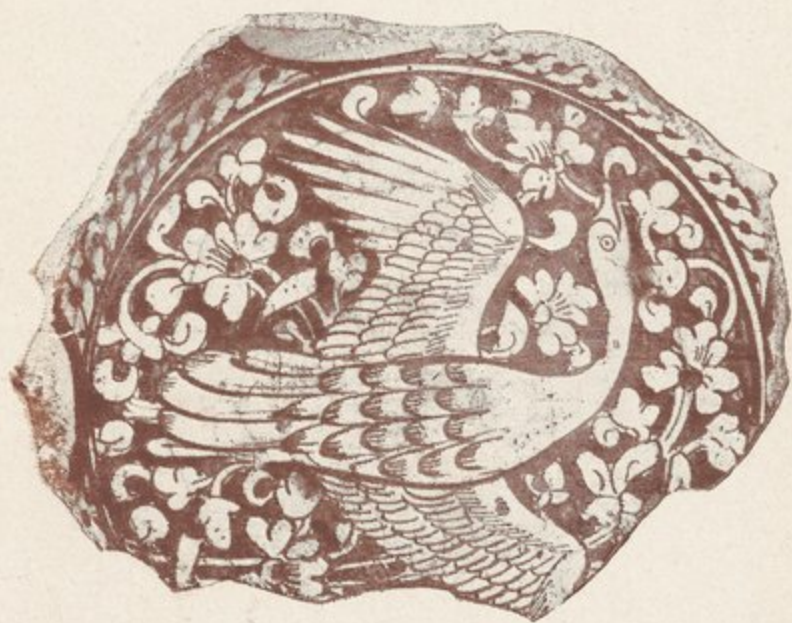
واقترحت إدخال المحاسبة وإمساك الدفاتر في المدارس الثانوية؛ إذا منحت الفرصة لتعديل مناهج التعليم أو توسيعها في هذه المدارس. وخيراً فعلت وزارة المعارف في إجابة هذه الأمنية بإدخالها علم إمساك الدفاتر ضمن مقرر الدراسة الثانوية، فإن دراسة هذا العلم وعلم التاريخ الطبيعي تفتح المجال أمام الراغبين في الالتحاق بمدارس التجارة أو الزراعة العليا، وبذلك يصبح التفريع شاملاً لخمس أقسام عظيمة.

ورجأؤنا الأخير إلى وزارة المعارف، قبل أن تبت في تغيير المناهج وتنقيحها، أن تتدبى بالأهم الراقية فتعرض ما ارتآه رجالها على أهل الذكر في بلادها، ففي مصر وزراء سابقون للمعارف ومديرون أداروا المدارس ومعامون تركوا التعليم؛ هؤلاء يحسن أن يشرکوا في الأمر ليُسبدا آراءهم الصالحة. فهذه انكسرت استأنست برأى كل عالم حين شاءت تغيير المناهج، فأخرجت لجنتها للناس تقريرها في واحد وعشرين مجلداً بعد سنتين كاملتين في البحث والتنقيب، وهذه اللجنة البرلمانية في فرنسا أخرجت تقريرها في ستة مجلدات ضخمة؛ والتقريران يوجان بالآراء الصائبة والانتقادات الصحيحة لكل ذي رأى ولكل

منتقد، ثم فيهما التاريخ الصادق لمساوئ التعليم وعيوبه مشفوعاً بالعلاج
النافع والدواء الناجع .

وإني في الختام أرجو أن أكون قد أصبت المرمى في نقل هذه
الآراء السديدة الجديدة في التربية والتعليم من اللغات الأجنبية إلى
لغتنا العربية السمحة ، كما أرجو أن يكون لها من الأثر في نفوس
المصريين ما كان لها في نفوس الأوربيين الذين اعترفوا بأنها كشفت
لهم الغطاء عن حقائق وأسرار في شئون التربية والتعليم غابت عن
أذهانهم واستعصت على أفهامهم ، وأنهم سيتخذونها مثالا يحتذونه في
تهذيب النابتة ، ونبراساً يستضيئون بنوره في إعداد الأجيال المقبلة
للكفاح والنضال في ميدان الحياة العملية الحقة ، فعسى أن نقضى بهم
ونجري على سننهم ، والله ولي التوفيق .





قطعتان من الخزف مزينتان برسوم ملونة تحت طبقة من المينا، على القطعة
العليا صورة غزال يرتع بين فروع نباتية تقليدية، وعلى السفلى صورة طائر
محقق في الجو (القرن الثامن الهجري — الرابع عشر الميلادي)

تربية الذوق السليم

وأثر الفنون الجميلة فيها

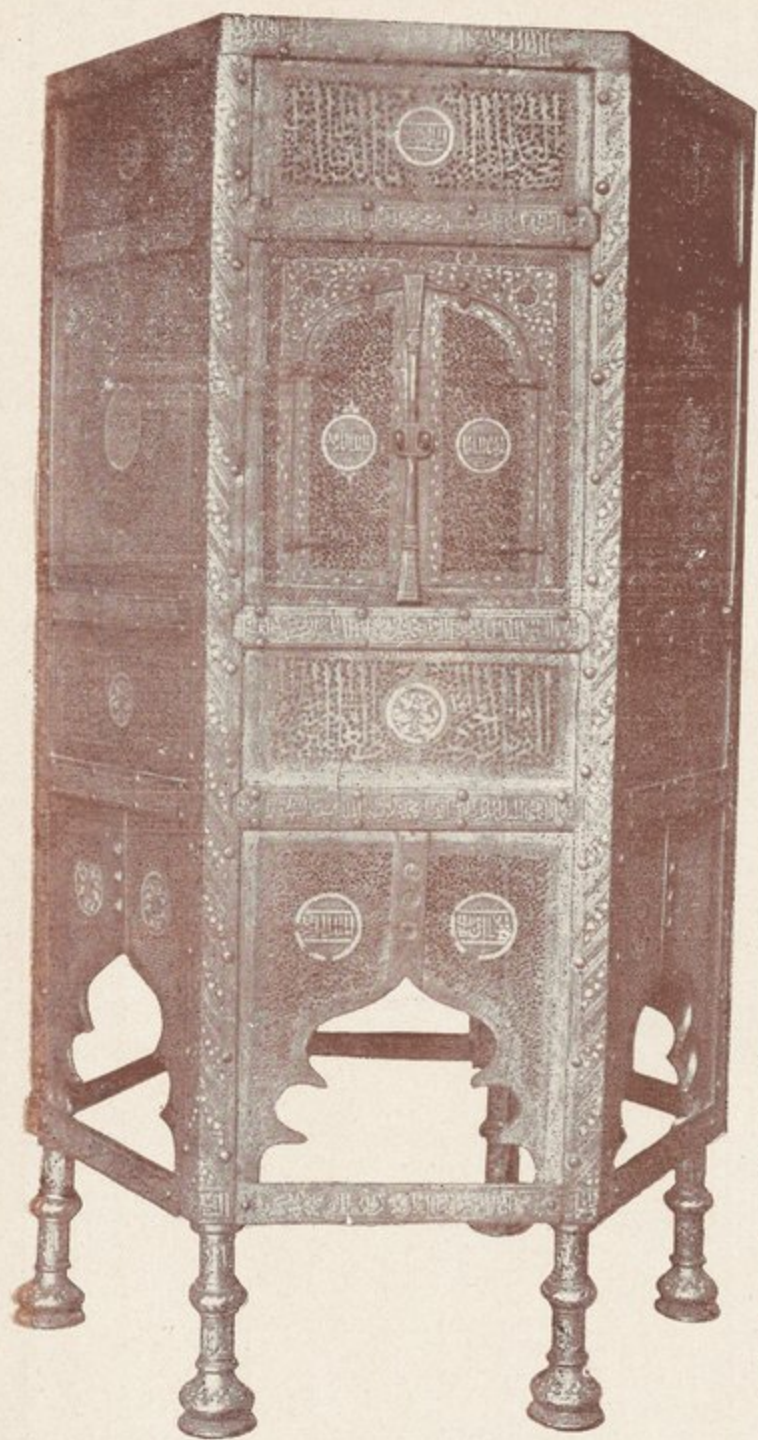
تربية الذوق السليم

وأثر الفنون الجميلة فيها*

أهراء

صحيفة التربية الحكيمة هي الطبيعة المشهودة . ومبادئ التهذيب العملية هي الرؤية والتجربة وإنعام النظر في المحسات .
والكون العام هو المربي الأول والمرشد الأكبر الذي لا ينضب فيض إرشاده لامتلائه من الحياة والانسجام .
وللطبيعة ظواهر عديدة تحمل الحواس آثارها إلى الذهن ؛
والإنسان بما يدركه عقله منها يتعلم كيف يسير في دنياءه ، وكيف يهتدى إلى ما فيه سعادته ، فينظم حياته الفردية ويدبر شئونه الاجتماعية .
لهذا كانت الدعائم الكبرى التي يقوم عليها صرح التربية والتعليم في أرقى دول العالم مدنية وحضارة هي المشاهدة والنظر الصحيح في هذا الكون ، وإدراك ما فيه من ألغاز وأسرار وجمال ، إذ لا حاسة أصدق من الإبصار برؤية العين واللمس بقبضة اليد في نقل صور الدنيا الخارجية إلى المخ وتسهيل انطباعها في الذهن وتغلغل معانيها في النفس .
أما شحن الذهن بما يثقله وأخذ الحافظة بما يرهقها فطريقة بالية ،

* أُلقيت هذه المحاضرة على ملاء من وزراء الدولة وكبار رجال التعليم بمؤتمر التعليم الأول المنعقد في يوليو سنة ١٩٢٥ بمدينة القاهرة .



كرسى من نحاس على شكل مشور ذى ستة أضلاع ، مخرم ومنقوش ومكفت بالذهب والفضة ، والكتابات المنقوشة على هذا الكرسي
 بعضها بالمنسخ وبعضها بالكوفي ، وهى باسم السلطان محمد الناصر بن قلاوون ، ومنقوش على أرجلها كتابة تشمل اسم الصانع محمد بن
 سبنقر البغدادي ، وتاريخ صنعه سنة ٧٢٨ هـ — ١٣٢٧ م

وكذلك حصر النشء بين الجدران المقفلة والاقتصار على الكتاب وتلقين المعلومات دون تجربة أو نظر إلى محسوس فأسلوب عقيم .
لقد حان لنا أن نترك تلك الأساليب العتيقة وأن نأخذ النشء بالتربية العملية لافتين نظره إلى صحيفة الطبيعة العامة لنربى فيه ملكات الملاحظة وحب الاستطلاع والموازنة والاستنباط .
إن صحيفة الطبيعة التي لا تُلقن ولا تستظهر لأوسع من صحائف الكتب وأجمع لمعانى الحياة وأبلغ في الدلالة عليها من كراسات تملى عليه فيحفظها .

وإن مصر ليست بالبلاد الجذبة ، بل هي ذلك الوادى الأخضر الذى يشقه النيل السعيد وتكتنفه الهضاب والنجاد ، وبه آثار أول مدنية وأقدم حضارة تشهد لأجدادنا وآبائنا بما كان لهم من نبوغ فى الفن وعراقة فى المجد والسلطان ، فهو لذلك تلك المدرسة الطبيعية التى يجب أن يتعلم فيها النشء المصرى ، وأن نبسط بين أيديهم وتحت أعينهم صفحاتها الفنية العجيبة الخالدة لنقوى فى نفوسهم الروح القومية والاعتزاز بذكريات الماضى المجيد .

فالإلى عشاق الطبيعة وأهل الفن والمعلمين والمتعلمين أهدى هذه الرسالة الوجيزة ، لعلمهم يجدون فيها ما يساعد على تقوية عاطفة الجمال و« تربية الذوق السليم » .



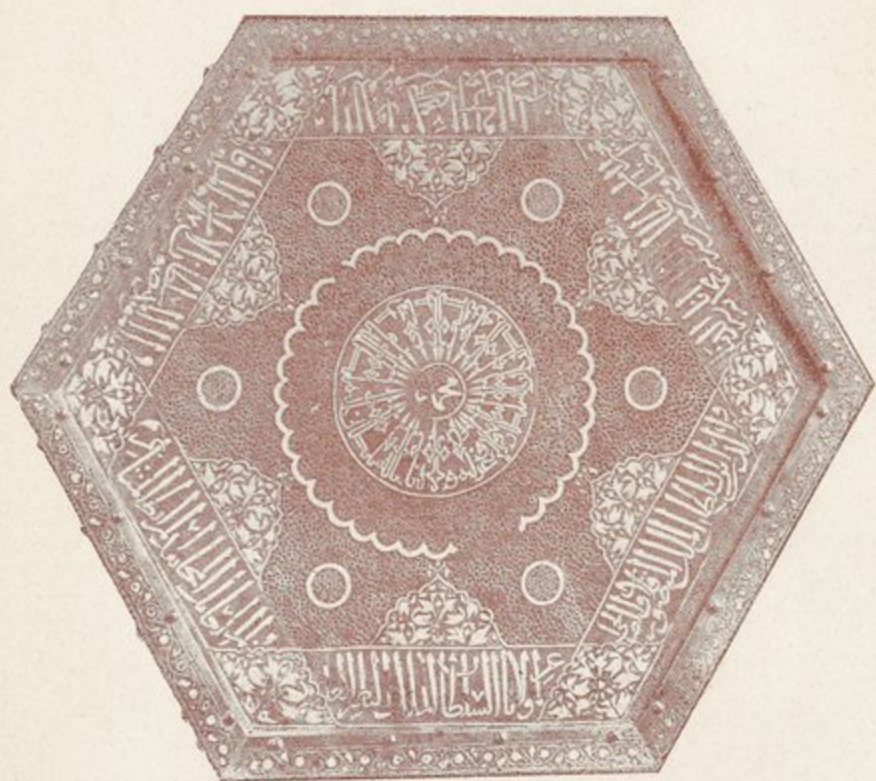
إن التربية الصحيحة هي التي ترمي إلى غايات ثلاث :

حب الحق الذي هو نتيجة التربية العقلية . وحب الخير الذي هو نتيجة التربية الخلقية . وحب الجمال الذي هو نتيجة التربية الذوقية ، ولكل غاية من هذه الغايات الثلاث سبيل يوصل إليها . فسبيل التربية العقلية العلم . وسبيل التربية الخلقية الدين والأخلاق . وسبيل التربية الذوقية الفن الجميل .



على أن العلم بكشفه بعض القوانين الطبيعية يعمل في الحقيقة على تسخير الطبيعة في تذليل مصاعب الحياة . والأخلاق تعمل دائماً على التضيق عليها بالضغط على النفوس البشرية والمباعدة بينها وبين شهواتها . والأديان تعمل على الازدراء بالدنيا وتحقيرها ومقتها .

فهوذا الأُمم بالعلم والدين والأخلاق رقي محصور في دائرة الضرورة المادية ، ولكن الإنسانية لا تعيش بالخبز والماء فحسب ، بل لابد لها من التمتع بشيء من السعادة والهناء وسكينة البال والانتقال من ميدان الضرورة ومجال الحاجة إلى بحبوحة العيش وساحة الحرية ؛ ولا شيء يكفل لها ذلك إلا الفنون الجميلة ، فهي لغة العواطف والوجدانات التي تتحرك في عالم الضمير حرة مستقلة ، دون أن يكون للاستعباد أو الإذلال أثر فيها ، وهي التي تصعد بالإنسان ساعات من هذه الدنيا وهو فيها



فرصة كرسی من نحاس مخرم ومنقوش ومكفت بالذهب والفضة . والكتابات
 التي عليه تتضمن اسم السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، ومنقوش على أحد
 أرجله إمضاء صانعه محمد بن سنقر البغدادی، وتاريخ صنعه سنة ٥٧٢٨هـ - ١٣٢٧م

ومتاعها إلى سماء السعادة والرفاهية، ولذلك لا يحكم التاريخ على الأمم إلا بمبلغ رقيها في الفنون الجميلة ونصيبها منها، لأنها هي التي تنم عن صدق الحس وقوة الشعور وحقيقة العواطف ومبلغ الاقتدار على الإدراك والإبداع والابتكار والاختراع وإبراز ما يستكن في ضمائر النفوس الطليقة من صور رشيقة وأشكال مبدعة جميلة.

فالاختراع والابتكار من المميزات الأساسية للفنون الجميلة، ولهذا ينفرد الإنسان بها دون الحيوان؛ فالنملة مثلاً على عجيب صنعها، لا يتأتى لها أن تكون صناعاً (Artiste) ^(١) لأنها لا تبتكر ولا تبتكر، بل إن نملة اليوم تبنى مساكنها كما كانت تبنيها النملة منذ القدم.

إذاً الفنون الجميلة ركن من أركان التربية الحديثة الصحيحة، وبدونه تكون سائرة سير الأعرج الذي يتبين فيه العجز ويظهر عليه القبح، ولا يتسنى لأولى الأمر في أمة ما أن ينهضوا بها نهوضاً فنياً يربى الذوق ويخلق العاطفة إلا إذا اتخذوا الفنون، الجميلة من رسم وتصوير وموسيقى وغناء، عصاهم التي عليها يتكئون وعدتهم التي بها يصنعون. وها نحن أولاء ذاكرون عن كل أصل من تلك الأصول كلمة موجزة تبين علاقته بالتربية وتشرح تأثيره في نمو الذوق.

(١) رجل صنّع وصنع السيد أي حاذق دقيق، وامرأة صناع، ويقال أيضاً: رجل مَفَنّ يأتي بالعجائب، وامرأة مَفَنّة (Artiste)

الرسم والتصوير

يقولون إن التريسة الذوقية هي تعويد النفس الاستمتاع بالحسن وتذوق الجميل من الأشياء والأفعال، وأساس ذلك كله النظر الصحيح، وخير ما ينظر إليه في هذا الكون الطبيعة، فهي كتاب مفتوح أمام الأعين قد حوى من آيات الجمال وإحكام الصنع ما يبهر العقل ويسترعى الفكر ويثير الوجدان. ويلحق بمناظر الطبيعة التحف الفنية والطرف الأثرية التي ابتدعتها اليد الصناع.

خطب المسيو ليچ وزير المعارف الفرنسية سابقاً في إحدى الحفلات المدرسية فقال: « لا شيء يشد العزائم ويقوى الهمم ويهذب الطبع وينقى النفس مثل النظر الصحيح إلى مظاهر الطبيعة والتأمل في دقائق التحف الفنية والطرف الأثرية، إذ ينبعث منها ما يُشعر بالعظمة والقدرة التي تباعد بين الإنسان وبين الغرائز السافلة، وتثير في صدره الطموح إلى المعالي والنزوع إلى الكمال »

فاذا لم يُرب الإنسان من الصغر على النظر إلى عجائب ما خلق الله من حيوان ونبات وحماة، ولم يوجه فكره إلى التأمل في حسن ترتيبه وتنسيقه وبديع تقسيمه وتصنيفه، ويجتهد في كشف اللثام عن أسرارهِ وكنوزه، فقد حرم لذة لا تعد لها لذة، وضاعت منه غبطة ومسرة، حاجته إليها لا تقل عن حاجته إلى الغذاء والشراب، فإن في السرور والفرح قوة تحبب إلى الإنسان العمل وتخفف عنه عبء



شبابيك قفل من نغار عار من المينا ، زخارفها منقوشة بدقة فائقة ،
 بأطراز مشابهة للدتلا ، ومرسوم بالشباك الأوسط طاووس واقف ، وناشر
 ذيله بعجب وعظمة .

الحياة ، وكم يكون الفلاح سعيداً إذا عرف كيف يتذوق جمال الطبيعة التي تحوطه بيهاؤها وجلالها .

كان هيربرت سبنسر في صغره يحب التنزه في الخلوات والمتنزهات ، وكان ولوعاً بعمل المجموعات من النبات والحشرات ، فلما كبر كتب هذه العبارة « من لم يعتد في صغره التجول في الخلاء وتنسيق مجموعات من النبات والحشرات صعب عليه أن يفقه ما انطوت عليه المروج الخضراء والحقول الزهراء من رائق الشعر ورائع النظم »

وكان داروين على عكس ذلك في صغره ، فلما كبر رثى حاله وندب حظه على إهماله تلك التربية في الصغر حتى فقد تذوقها في الكبر ، وكان يقول : « إن عدم العمل على تذوق الحسن وإهمال تربية عاطفة الجمال لهو فقدان السعادة ذاتها ، على أن ذلك الإهمال قد يخدم شغلة الذكاء ويضر ضرراً بليغاً بالأخلاق » .

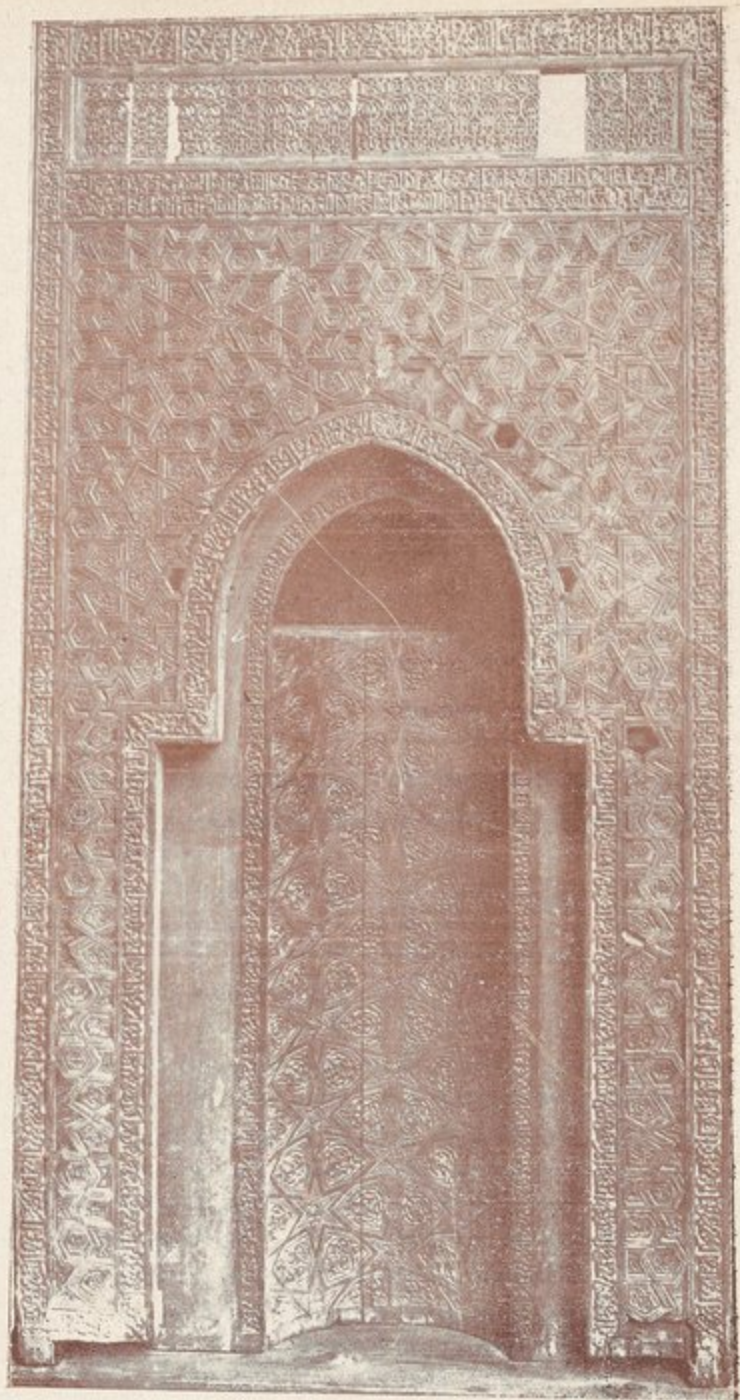
في التربية الذوقية كما في التربية العقلية والخلقية يحسن التدرج مع الأطفال وعرض المناظر التي تتناسب مع أسنانهم وتمشي مع إدراكهم ، أما الأشياء العظيمة فقد يهولهم منظرها ويخيفهم مراها فتفوتهم الفائدة المطلوبة .

يقول الكاتب الفرنسي « بيرلوتي » إنه كانت ترتعد فرائصه عند رؤية البحر أيام طفولته ، كما إن منظر الجبل العظيم الارتفاع قد يهول الرائي فيظن الظنون ويفر منه خوفاً من سقوط حجر أو انهيار سفح أو غير ذلك مما يخطر ببال الكبير فما بالنا بالصغير ! ومن منام لم يعتده

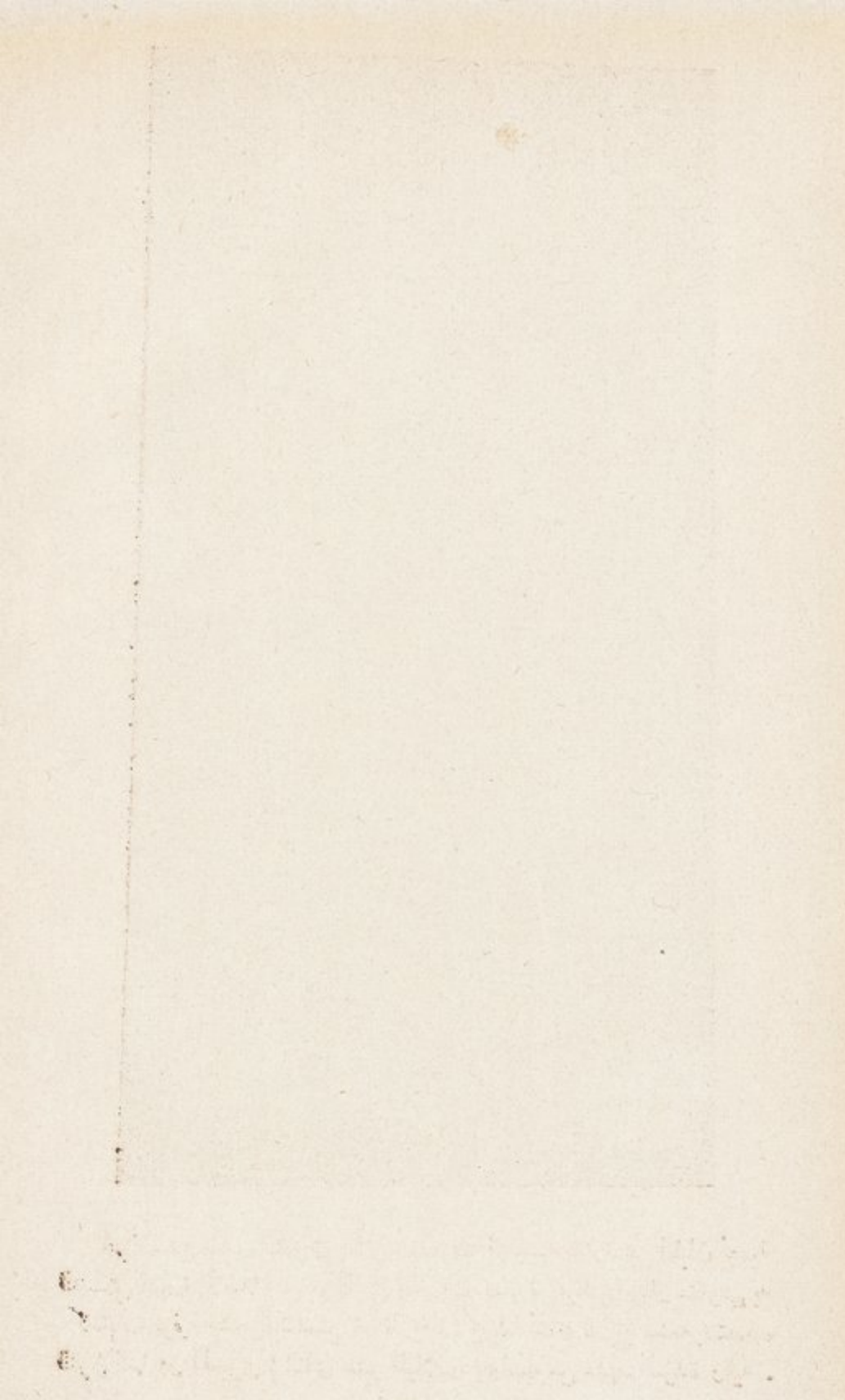
الدهش عند رؤية هرم الجيزة الأكبر لأول مرة في حياته ؟
والمناظر التي تعجب الأطفال وتلائمهم . هي كما يقول سبنسر :
الأزهار والطيور والحشرات والبحيرات وغيرها .

وأهم من النظر إليها اشتراكهم مع الطبيعة في توليدها ومراقبة
تفريخها ونموها ، لأن الإنسان لا يستطيع أن يدرك جمال الطبيعة تماماً
إلا إذا زرع بنفسه النبات وسقى جذوره وراقب نموه ، ولذلك تهتم المدارس
الحديثة بإعطاء التلاميذ قطعاً من الأرض يفلحونها بأنفسهم . ففي مدينة
وشنطون وحدها خمسة وأربعون ألف طفل يشتغلون بفلاحة البساتين ،
ويقام فيها كل سنة معرض عام تعرض فيه النباتات والخضروات والأزهار
والثمار التي يعهد إلى التلاميذ في غرسها وإنماءها ، وتعرض معها أعمالهم
المدرسية النظرية وكلها لا تخرج عن معلومات مستمدة من الحقائق ،
بل إن تعليم العلوم كلها من حساب وجغرافيا وأشياء وأشغال يدوية
يدور هناك حول تلك الحقائق الصغيرة .

فمناظر الطبيعة خير ما يتدرج فيه الطفل لتربية ذوقه وإنماء عاطفته
الجمال في نفسه ، وكلما تقدم وجد ما يناسبه ويلائمه ، فإن جمال السكون
واسع المدى بعيد الغور يبدو لذوى الفطن والنظر في كل شيء ؛
فالسكواكب الزاهرة والسحب الماطرة والأمواج المتكسرة ، حتى
السكون العميق في الليل البهيم ، والصحارى القاحلة تحديق بالوادي
الخصيب ، في كل ذلك جمال وأى جمال . وإن شجرة البلوط المنفردة
بارتفاع السمك وسط الغابة الغيباء في نظر المغرم يحب الطبيعة



محراب من خشب منقوش بالخمر ، زخرفته الرئيسية عبارة عن أطباق نجمية الشكل كثيرة الأضلاع ، مكونة من حشوات صغيرة يحيط بها إطار منقوش به كتابات كوفية مشجرة تتضمن نصاً تاريخياً ، يجعلنا نحدد تاريخ صنعه بمنتصف القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) وأصله من مشهد السيدة رقيه .



لكالبيت المفرد من القصيدة العصماء في نظر الشاعر القدير . وأى إنسان منا لم يأخذ منه العجب مأخذه عند رؤية ثور البقر متمشياً على الأرض يجتر طعامه بهدوء وسكون، ويقلب طرفه من حين إلى حين فيما حوله من فضاء دون اهتمام، كأنه راهب طلق الدنيا وزهد في الحياة، قانعاً بالقليل من العيش في جانب الدعة والسكون الذي يراه في صومعته وعلى قمة الجبل . ولا يظن أحد أن البحر الهائج المائج الذي تتلاطم أمواجه وتصطخب مياهه، خلو من الجمال فإنه جميل جمالا رائعاً لاتساعه الهائل الذي لا يحيط به النظر ، وما هذا الاضطراب والاصطخاب إلا شعار رقيق يحجب وراءه جمالا ليس بعده جمال ، تخمار المرأة الحسناء تداعبه الريح فيزيدها ذلك بهجة وجمالا .

على أن الفن الجميل، وإن كان يستمد من الطبيعة في كل شيء، فإنه كذلك يعاونها ويساعدها ويضيف إليها جمالا على جمال . فالقصر الذي يشاد على قمة ربوة لاشك يزيدها بهاءً وحسناً ، والمدينة البيضاء التي تبنى على شاطئ البحر تزيد منظر أفقها رواءً وجمالا . فالفن الجميل والطبيعة العامة متعشقان يتم أحدهما جمال الآخر، كما تتم نعمة مزمار الراعى مناظر الأودية البهيجة التي يرتع فيها ، وكما يتوافق صوت الصياد مع نغمات الأمواج في البحر الذي يصطاد فيه .

وما أحسن ما قال ابن ممتاى الأندلسي يصف جزيرة الروضة بمصر وامتزاج محاسنها بمحاسن النيل .

جزيرة مصر لا عدتك مسرة
ولا زالت اللذات فيك اتصالها
فكم فيك من شمس على غصن بانه
يميت ويحيي هجرها ووصالها
مغانيك فوق النيل أضحت هوادجاً
ومختلفات الموج فيك حبالها
ومن أعجب الأشياء أنك جنة
تمد على أهل الضلال ظلالها

وقد تتجمل الطبيعة على قبحها بالفن الجميل ، فقد يكون المنظر
الطبيعي قبيحاً تستوحش منه العين ، وتنفر منه النفس ، فإذا ما تناولته يد
صناع أخرجت منه صورة تسترعى العين وتستوقف التأمل . ذلك
كنظر الثعبان تسر النفوس بصورته وتستوحش من رؤيته .
من هنا كان للرسم في ترقية الذوق أهمية عظيمة ومزية كبرى .
وقد تخرج الأيدي الصناع من الرسوم والصور ما تكون محل
إعجاب الفن ، فن تراويق تأخذ بالألباب إلى زخارف تروع الأفتدة ،
ولكم تكون هذه أجمل وأروع إذا كانت تاريخية أثرية قد أكتسبها
جلال القدم روعة وعظمة ، ومنحها إجماع الأجيال الماضية ما جعلها إماماً
وقدوة ، حتى صار مثلها مثل المنائر القائمة في البحار على الصخور الراسية ،
تضاءل أمامها أمواج الأذواق المختلفة والمشاعر المتقلبة .

فذاك شيء عن مظاهر الطبيعة ونماذج الصناعة، وبخاصة الأثرى منها، وإنه لجدير بمن يديم التأمل فيها وينعم النظر في أشكالها ودقائقها أن يكتسب ملكة الحكم على الجمال وقوة الشعور بالحسن .^(١)

وهذا غاية في تربية الذوق ليست بعدها غاية، ولهذا غنى الناس أشد العناية في جميع البلاد المتحضرة بهذا النوع من التربية، ورفعوه إلى مستوى التريتين العقلية والخلقية .

فلأمر يكيين ولع شديد وعناية فائقة بتدريس العلوم الطبيعية، ويخصص الوقت الكافي لها في مناهج الدراسة، ولا تكاد تخلو مجلة من مجلاتهم من مقال أو عدة مقالات عن النبات والحيوان، محلاة بالرسوم الجميلة والأشكال البديعة . وقد أنشأوا كثيراً من مدارسهم وسط الحقول والروج، ليكون التلاميذ على اتصال مستمر بالطبيعة، وهم الذين اخترعوا عيد الشجرة احتفالاً بالأشجار وبث احترامها في نفوس النشء .

وقد تقدم آنفاً شيء من عنايتهم بفلاحة البساتين، واتخاذ الحقائق وسيلة لتدريس شتى العلوم في الدور الأولى من التعليم، وسرعان ما يتحول علم

(١) على الآباء والأمهات إذا خرجوا مع أبنائهم إلى الخلوات والمنتزهات، أن يلفتوهم إلى محاسن الطبيعة وجمال الفن، فإذا رأوا الشمس عند شروقها مثلاً قالوا لهم : انظروا إلى هذه الشمس المشرقة ما أجملها وما أبهاها ! وإذا وقع بصرهم على منارة عالية قالوا لهم انظروا إلى تلك المنارة الشاحخة وتأملوها فما أحسن قوامها وما أبدع شكلها !

بهذه الطريقة البسيطة نجح كثير من المربين في غرس عاطفة الجمال في الأطفال من بدء نشأتهم .

الرسم في تلك المدارس الأولية إلى فن جميل، فتخرج الأطفال إلى الحدائق والمتنزهات، ليرسموا ما يقع تحت أبصارهم من المناظر الطبيعية المختلفة، وهذا النوع من الرسم (الرسم من الطبيعة مباشرة) يحبه الأمريكيون ويحضون عليه، لأنه يعلم الأطفال من صغرهم كيف يترجمون ما يجول بأفكارهم بالأشكال الجميلة والرسوم الأنيقة، ويتعلم الطفل كذلك في المدارس الأولية الرسم بالألوان والفرجون (الفرشة) والماء والريشة وقلم الرصاص، كما يتعلم رسم الوجوه البشرية ويحذقها بسرعة، لأنهم يتخذون من وجوههم نماذج ينقلون عنها.

والفرنسيون يقدسون جمال الطبيعة ويهيمون بحاسنها، وهما هي ذى فقرة لأحد كتابهم في حب الأشجار، قال :

« ألم يكن حب الأشجار من الفضائل ؟ أليست هي التي تأتيننا بالخشب والثمر، وتزين البيوت والحدائق والشوارع، وتظللنا صيفاً وتقينا المطر شتاءً، وتلطف حرارة الجو، وتنقي الهواء، وتحميننا من الرياح العاصفة، وتقف انهيال الثلوج الهاجمة وكثبان الرمال السافية، ألا إن من أحب الشجر فقد أحب الوطن، وحب الوطن من الإيمان »

وقد عني الإنجليز بهذا النوع من التربية أيما عناية، وعملوا على تشجيعه وأكثروا من دراسة الفنون والصنائع، إذ تجلت لهم الفائدة، وعظمت أمانتهم النتيجة، وإن لديهم إدارة خاصة بهذا النوع من التعليم تعمل على ترقيته والنهوض به في جميع أرجاء المملكة البريطانية تسمى إدارة العلوم والفنون .



قطعة نسيج من كتان مزينة بجامات بها صور طيور بألوان مختلفة، من أحمر وأزرق وأصفر، بأعلاها وأسفلها
سطران من كتابة كوفية تقليدية تجعلنا نفرضها إلى القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي)

أما في ألمانيا فقد بلغ من عنايتهم بهذه العلوم ، أن كان الامبراطور نفسه يهتم بها وينصح الأئمة في كل فرصة أن تبذل غاية جهدها في دراسة الفنون الجميلة . وقد كان منه أن وقف خطيباً سنة ١٩٠١ فهناً المصورين والنقاشين والحفارين الذين قاموا بتزيين دهليز النصر بيرلين بالرسوم البديعة والتماثيل العجيبة ، وها كم بعض ما قال في هذا الموضوع :

« إن المثل الأعلى لرقى الأئمة ، وبلوغ أوج الحضارة ، وذروة المدنية الصحيحة ، هو الغاية العظمى والنهاية القصوى التي يرمى إليها الفن . ومع أنه من المحتم علينا أن نهىء لطبقات العمال الذين يكدون ويكدحون طول يومهم عيشة يتيسر لهم معها أن يقدروا الحسن ويدققوا الذة الفرح بالجميل ، ويخرجوا عن دائرة أفكارهم العادية ، ويسبحوا هنيهة من الزمن في غياض الجمال ... إلى أن قال :

« ألا إن تربية العامل لمن أكبر ما تغنى به الأئمة الحية ، فإذا أردنا أن نكون ونظل مثالا تحتذيه الأئمة الأخرى ، فعلى الأئمة بأسرها أن تشترك في هذا العمل ، وتعمل على معاضدته وإعلاء شأنه ، وإذا شاء الفن أن يأتي بالعرض المطلوب منه ، فلا بد له من أن ينفذ إلى الطبقة الدنيا من الأئمة ، إذ أن لكل رجل - كائناً من كان - شعوراً يميز به الحسن من القبيح » .



الموسيقى

الطرب غريزي في الإنسان ،مولود معه ، يؤيد ذلك الفقرات
والعظام المثقبة ، المهياة للزمير والصفير ، التي عثر عليها علماء الجيولوجيا
في المغارات التي قطن بها الإنسان أول ظهوره على سطح الأرض .
فلا يبعد أن يكون الإنسان قد تغنى قبل أن يتكلم . على أن كل شيء
في الوجود يتغنى ويترنم ، فالطيور بتغريدها ، والأشجار بحفيفها ، والمياه
بخريرها ، فما بالك بالإنسان والغناء له من ضرورات الحياة ، وكثيراً
ما يغنيه عن طعامه وشرابه وسائر لذاته ؟ وها كم حكاية في الموضوع :

« نقل المبرد في كامله عن عمر الوادي أنه قال : أقبلت من مكة
أريد المدينة ، فجعلت أسير في حرد من الأرض ، فسمعت غناء لم أسمع
مثله ، فقلت : والله لا أتوصلن إليه ولو بذهاب نفسي ، فأنحدرت إليه فإذا
عبد أسود ، فقلت له : أعد علي ما سمعت ، فقال لي : والله لو كان عندي قرى
أقربك لنعلت ، ولكني أجعله قرأك ، فاني ربما غنيت هذا الصوت وأنا
جائم فأشبع ، وربما غنيت وأنا عطشان فأروى ، وربما غنيت وأنا كسلان
فأنشط ، ثم أتبرى يغنيني :

وكننت إذا مازرت سعدى بأرضها

أرى الأرض تطوى لي ويدنو بعيدها

من الخفرات البيض ودَّ جليسها

إذا ما قضت أحدىثة لو تعيدها

قال عمر: حفظته عنه، ثم تغنيت به على الحال التي وصفها، فإذا هو كما ذكر »

(والموسيقى من أهم أنواع الفنون الجميلة، لأنها أقواها أثراً في النفس، وأسرعها نفاذاً إلى القلب، وإذا اقترن بها الغناء بالأصوات الموضوعية على نسق التلحين وأصول النغم، ضاعف أثرها في القلب وسريانها في النفس، فإن الله جلت قدرته لم يخلق شيئاً أوقع في القلب وأشد اختلاسا للعقول من الصوت الحسن، كذلك كانت العرب تقول. والغناء بالأصوات الموضوعية هو الذي يناسب التعليم العام لبساطته وكثرة تداوله، ولا سيما إذا كان إجماعياً لأنه إذاً ينمى في الأطفال غرائز الألفة والتضامن والاتحاد.

وليست الموسيقى فناً كاملاً لا يقصد منه إلا الفرح والسرور، كما يتوهم بعض الناس، وإنما هي أداة عجيبة قوية على لطافتها ورقتها، ذات أثر فعال في ترقية الأخلاق وتقويم النفوس. نعم ليس في مكنة أحد أن يكشف الغطاء عن السر في تأثير الموسيقى في الطبائع البشرية، ويوصل إلى تعليل فعلها البالغ في النفوس، فإنها ظاهرة تدرك وتحس أكثر من أن تحلل وتعلل، ولكننا نعلم أن ذلك التأثير المدهش، يخرق الجسم والنفس معاً اختراق الكهرباء للسلك، ويتغلغل في أعماق القلب وحظائر النفس إلى مدى بعيد.

نعم الأصوات الموسيقية غامضة مهمة لا تنص على اتباع فضائل معينة، كما هي الحال في درس الأخلاق، ولكنها مع ذلك تحدث في الجسم

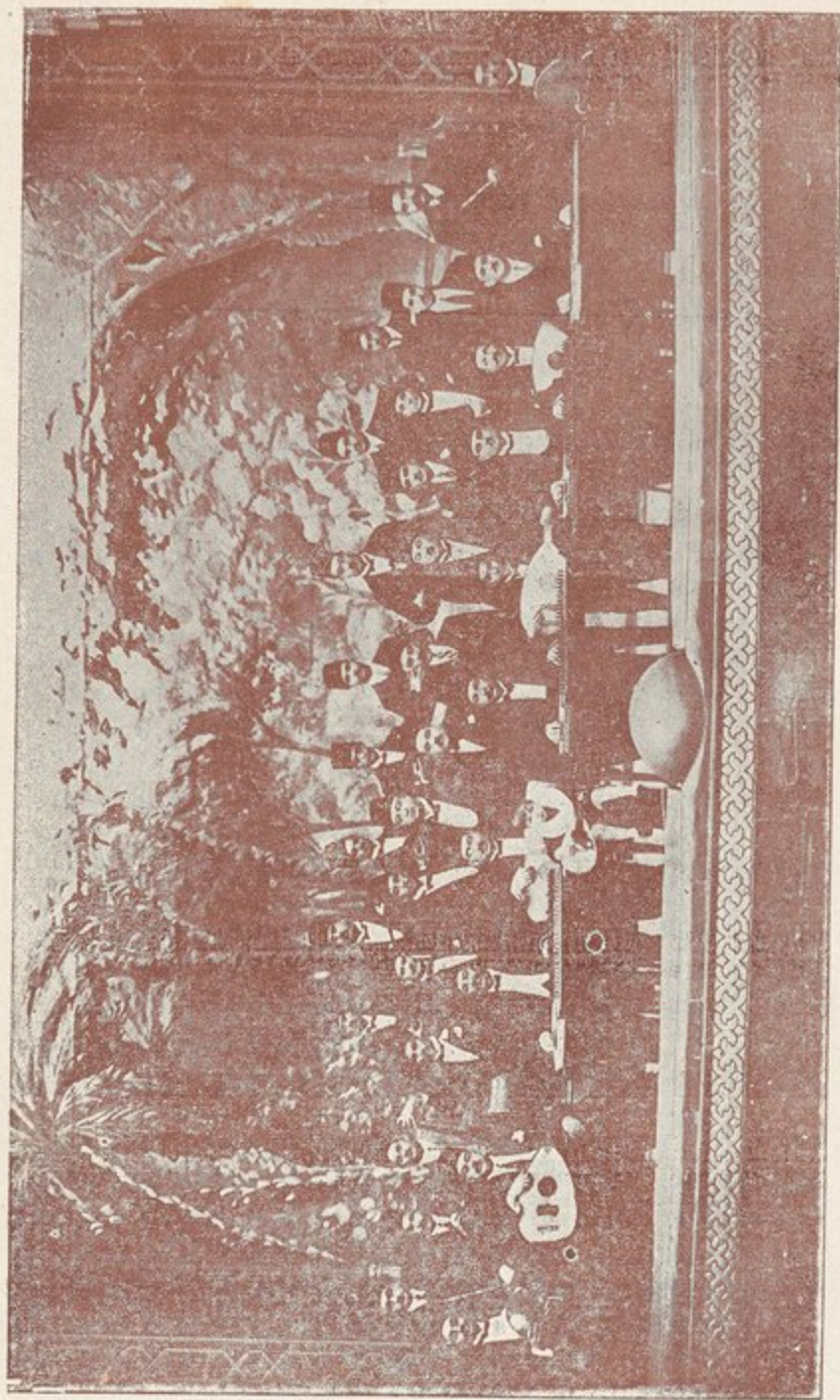
والنفس معاً هزة تسمو بالإنسان إلى ذروة الفضائل عموماً، وهذا الغموض وذاك الإبهام، هو السر في قوة تأثيرها في القلب، وشدة تحريكها للنفس، لأن المعقولات ليس لها قيمة تذكر فيما له علاقة بالعواطف والميول في الزمر والجماعات، إذ هي مقصورة على تربية العقل، مع أن في النفوس البشرية مناطق أخرى أكثر عمقاً وأبعد غوراً من منطقة العقل وهي مناطق الميول والعواطف والإرادات.

فإذا أردنا أن نربي الأطفال تربية كاملة، لا ينبغي أن تقتصر على تربية عقولهم، بل يجب أن نذهب إلى قرارة نفوسهم وأعماق قلوبهم، ونغذيها بالنغمات الموسيقية، فهي الكفيلة بتحريك عواطفهم وإثارة وجداناتهم، والنهوض بهم إلى الفضائل العالية والأخلاق السامية.

أما إذا حُرمت المدارس الغناء فإنها تكون معامل تعليم تخرج قرائح مضبوطة وأذهاناً صحيحة، ولكنها لا تخرج نفوساً حية كبيرة، وما بال مدارسنا اليوم تخلو من الغناء والتاريخ ينبئنا في قديمه وحديثه أن مصر مهد الموسيقى وموطن الغناء، فإن أول قطعة موسيقية في تاريخ الإنسان هي تلك القطعة المصرية القديمة المكتوبة على ورق البردي باللغة الهيروغليفية والمحفوظة إلى اليوم في أحد متاحف باريس.

وهذا عهد محي مصر المصالح الكبير محمد علي، وإنه منا لقريب، ينبئنا بأنه أسس مدرسة الموسيقى في اخناقاه بمصر سنة ١٨٢٤ وكانت في عداد المدارس العالية وكان بها ١٥٠ تلميذاً.

فرقة الحفلات بالمعهد الملكي للموسيقى العربية بالقاهرة



كما أسس لذلك مدرسة العزف بالنخيلة سنة ١٨٢٩ ، ومدرسة الآلاتية بالقاهرة سنة ١٨٣٤ .

وهذه الأمة الإنجليزية قد عنيت بأمر الموسيقى في مدارسها، وخصصت لها أوقاتاً في مناهجها، وشجعت التلاميذ على النبوغ فيها بطرق شتى، منها أن النابغين في الألعاب الرياضية، يكافون أن يتغنوا بما حصلوا عليه من الجوائز والمكافآت في مضمار الألعاب الرياضية بالشعر الملحن على الموسيقى، ثم تحفظ المدرسة هذه الأغاني في كراسات ذخائر لها لا تظهرها إلا في الحفلات الرسمية الكبرى، فتوزعها على التلاميذ الحاليين للغناء فيها، وإن السعيد منهم من يحصل على كراسة أحد المشهورين من كبار الرجال، الذين تربوا في مدرستهم. ولقد مر أحد الأساتذة يوماً، والتلاميذ في حفلة من حفلاتهم هذه يفرحون ويمرحون ويغنون الأغاني الجميلة والأشعار الشائقة، فقال لهم :

« تغنوا يا أبنائي الأعزاء بمجد إنجلترا التالدة، الذي طالما تغنى به كثير من كرام أبنائها قبلكم، وكما سيتغنى به من نجباء الأبناء بعدكم، وإذا وصلتكم مثلي إلى آخر مرحلة من أعماركم، فسترون هذه الأغاني ترن في آذانكم كما يرن الصدى البعيد المدى بذكريات الشباب وحوادث الصبا »

ولعل أعظم المؤثرات في حب الإنجليزية لبلادهم والتغنى بمجدهم يرجع إلى الموسيقى .

ذهب العالم الفرنسي (دى كوبرتين) إلى إنجلترا لفحص مناهج

التعليم بها، فلم يرفيها أثراً لتعليم حب الوطن، وكتب في هذا الصدد ما يأتي:

« إن الطريقة المألوفة عندنا في تعليم حب الوطن، هي التضحية بالحياة في ساحة الحرب، ولقد حدثت كثير من الانجليز في هذا الموضوع، فرأيتهم لا ينظرون إلى هذه الطريقة بعين الاعتبار التي ننظر بها، ولا يهتمون بشأنها بعض مانهتم، وكم كان ذلك يدهشني منهم، ويجرح عواطفني.

ولكني بعد التروي وإنعام النظر، التجأت إلى أن أعترف بأن الوطنية في هذه الأمة، التي فتحت جزءاً عظيماً من هذه المعمورة، لا بقوة السلاح بل بالعمل والنشاط، تلبس ثوباً غير الثوب الذي تلبسه عندنا، فالوطنية عند الانجيز لا تُعلم في المدارس، ولا تؤخذ من الكتب، وإنما هي نتيجة لازمة لتعليم فن الموسيقى، فهي عندهم تنطوي تحت أنشودة واحدة، يتغنون بها كلما سنحت الفرصة لتجديد بلادهم وإعلاء شأنها. تلك الأنشودة هي « God save the King » ليحي الملك ».

ذلك ما قاله هذا العالم البحاث، ثم ساق تأييداً له وتوثيقاً الحكاية الآتية:

قال: كنت نازلاً في فندق من فنادق لندن الكبيرة، فرأيت ابن صاحب الفندق، وكان حدثاً صغيراً، جالساً في حجرة (البيانو) يقرأ في كتاب بغرام زائد بدليل أنه لم يكن يعير صوت (البيانو) أذناً مصغية، وبعد أن لعب الضيوف القطع الموسيقية التي أحبوا ضربها جاء دور النشيد الوطني المذكور، فأسرع الغلام واقفاً وقفة احترام وإجلال، دون أن يرفع عينيه من الكتاب.

ولما أن فرغ النشيد، جلس كما كان مكباً على قراءة كتابه اللذيذ،
فعلام يدل ذلك؟ لا شك أنه يدل دلالة واضحة على أن احترام الملك وحب
الوطن أصبح عندهم طبعاً، فسرى في عروقهم، وامتزج بدمائهم، ونقش على
ألواح صدورهم، حتى أصبح الواحد منهم يعمل ما يحتاج إليه وطنه، وتطلبه
خدمة بلاده بدافع فطري من نفسه ولحمه ودمه، وكأن الحركة عندهم
خدمة الأوطان أصبحت من الحركات الاضطرارية التي تقوم بها
الأعضاء دون استشارة الفكر أو أخذ رأى العقل.

وإني أعتقد اعتقاداً جازماً صحة هذه النظرية وأعترف بأن للموسيقى
والأنشيد فعلاً بالغاً في تربية العاطفة الوطنية، وتقويم الروح القومية.
فإني وقد أرييت على الخمسين لا أزال أذكر أغنية ريفية كانت
فتيات بلدتى (عمروس) يتغنين بها وأنا حدث صغير، ولا أزال كلما
ذكرتها أصبو إلى تلك القرية صبواً وأحن إليها حنيناً. تلك الأغنية
الريفية الجميلة التي هي السر في الهيام بذلك الوطن الصغير أولاً والكبير
ثانياً هي :

يا بلدنا ياللى على علوه عيشك كويس وميتك حلوه
وإذا كان للأناشيد القومية تلك المكانة السامية في التربية الوطنية،
فلا أظن أن شاعر مصر الكبير شوقي وغيره من فحول الشعر وأمرء
النظم أمثال: حافظ، ومطران، والهراوى، وعبد المطلب، يرضون على أهل
القرى بأناشيد تلائم أحوالهم، وتناسب أذواقهم وعاداتهم، كما فاضت

قرأتهم الوقادة بالأشعار الجميلة والأناشيد الحكيمية على المتعلمين من أهالي المدن ،

إنهم إن لبوا نداء أخيههم - ولا أخاهم إلا ملبين - يكونوا قد غرسوا حب الوطن في أفئدة النشء ونقشوه على حبات قلوبهم ، ورفعوا راية الوطنية المصرية إلى مستوى أمثالها في الأُمم الراقية .
ولا أيفوتني لهذه المناسبة ، أن أثني بالقلم وباللسان على ذلك النفر القليل من عشاق الموسيقى ومحبي الغناء من شبابنا التابئين الأذكياء ، الذين حذاهم ميلهم إلى الفن والرغبة الأكيدة في إنهاضه ، إلى إنشاء نادى الموسيقى الشرقى ، الذى يحق لكل مصرى أن يغتبط بالنجاح العظيم الذى صادفه على قرب عهده وحادثة سنه .

حقاً لقد ضرب لنا هؤلاء الفتیان وعلى رأسهم الشاب النشط الأمين مصطفى بك رضا مثلاً عالياً فى الصبر والثبات والمثابرة على العمل ، وأقاموا دليلاً ناهضاً وبرهاناً ناطقاً ، على أن التبوغ حب صميم ، وصبر طويل ، ويقىنى أنهم معيدون لنا عما قريب عهد المصلح الكبير محمد على وعهد المهدي والرشد فله درهم ودر كل أمة منا يقومون بأنفسهم يدعون إلى الخير والعمل المثمر الصالح ، وينهضون بمرفق من مرافق الدولة الحيوية ، وهى أكثر من أن تحصر ، وأوسع من أن تضيق عن جهود الناس كافة أفراداً وجماعات .

شماره السبوت - صفا تولى
عضو اللجنة



محمّد شامى المندى - تكملة الجلالى
عضو اللجنة



دكتور محمود احمد الحنفى
سكرتير شارة المؤتمر



محمّد شامى المندى - تكملة الجلالى
سكرتير شارة المؤتمر



الجمعية العلمية السورية لدراسة التاريخ والفكر العربي القديم والحديث

دكتور هادي المندى - تكملة الجلالى
رئيس اللجنة التنفيذية والمؤتمر



محمّد شامى المندى - تكملة الجلالى
عضو اللجنة



جبارى المندى - تكملة الجلالى
مساعد رئيس اللجنة



محمّد شامى المندى - تكملة الجلالى
عضو اللجنة



محمّد شامى المندى - تكملة الجلالى
عضو اللجنة



أهم الطرق العملية

تربية الذوق السليم في النفس

أولاً : يجب أن تكون المدرسة وسط الحقول والخلوات ، لتصح أجسام الأَطفال وعقولهم ، وليكونوا على اتصال مستمر بالطبيعة .
ثانياً : أن تخصص مساحة من الأرض بجوار المدرسة ، لتربين التلاميذ على فلاحه البساتين ، فيعطى كل واحد منهم قطعة صغيرة يزرعها ويتعهد بها بنفسه على مثال مايجرى في مدارس واشنطن .

ثالثاً : أن يكثر المدرسون من الخروج مع التلاميذ إلى الحقول لتنسيق المجموعات من أزهار النبات وأوراقها والطيور والحشرات وغيرها ، ليتعودوا النظر الصحيح إلى الكائنات ، ويتعرفوا ما أودعتها يد القدرة الإلهية من عجائب وأسرار ، وأفاضت عليها من نضرة وجمال .

رابعاً : أن يعود التلاميذ من صغرهم ، رسم المناظر التي تقع تحت بصرهم وفي دائرة عملهم من الطبيعة مباشرة ، كما يفعل الأمريكيون في مدارسهم .

خامساً : أن يتردد التلاميذ تحت إرشاد معلمهم على دور الآثار وأن يتأملوا الذخائر الأثرية والتحف الفنية ، لتتربي فيهم ملكة الجمال وحب العمل الخالد والرغبة في اقتناء النفيس مما ترك الآباء والأجداد .

سادساً: أن يتغنى التلاميذ كل يوم بالأناشيد التي تناسب أسنانهم، وتمشى مع مداركهم، ويحسن أن يكون غناؤهم معاً ليتغلغل حب الوطن في نفوسهم، وتتوثق بينهم روابط الألفة والتضافر والاتحاد.

سابعاً: أن يقلل من جلوس التلاميذ أثناء التدريس ما أمكن، وأن يقترن التعليم بالحركة والعمل لكي يسير الجسم مع العقل جنباً إلى جنب:

(L'istruction par l'action)

ملاحظة: يجب ألا يعزب عن ذهن المدرس في التربية الذوقية كما في التريتين العقلية والخلقية، أن عقل الطفل عند ولادته ليس صحيفة بيضاء خالية من كل نقش، ولا أرضاً قاحلة مجردة من كل غرس، كما كان يعتقد المربون قديماً، بل هو أداة فطرية في الإنسان مجهزة بقوى ذاتية وميول وغرائز عقلية، تدخل إليها المؤثرات الخارجية من طريق الحواس فتحرکها وتزيدها بالتكرار والاستمرار قوة ونماء ورقياً.

تلك الغرائز والميول المخلوقة مع الأطفال، هي للمفكر بمنزلة الهيكل العظمى للجسم، تربط أجزائه وتجمع شتاته وتضم أوصاله.

وأهمها المحاكاة والمباراة والمنافسة، ولا سيما حب الاستطلاع الذي لا يجعل الطفل يكتفى بمجرد النظر إلى الأشياء، بل يدفعه إلى استكشافها وتعرف مآثرها وما بطن، وإلى الاكثار من السؤال عن كل شيء يعنيه أولاً يعنيه.

فعلى كل أب وأم ومدرس أن يتعهد هذه الغريزة القيمة ويحولها

إلى وجهتها ، وينميها ويقويها في الطفل ما وجد إلى ذلك سبيلا ، فيجيب
عن أسئلته ويبعثه إلى السؤال .

وإن أقصى ما تطمح إليه أنظار المربين في الوقت الحاضر ، هو
تخفيف سلطانهم على تلاميذهم تدريجاً ، حتى يقفوا منهم موقف المسئولين
لا السائلين ، والمرشدين لا المسيطرين المتحكمين .

ملاحظة

يلاحظ القارئ أن الأستاذ العمروسي بك حرص في محاضراته
هذه « تربية الذوق السليم وأثر الفنون الجميلة فيها » ، وفي محاضراته الأخرى
« الفنون الجميلة عند العرب » ، على التنويه بالفن العربي الجميل ، ولذلك
اختار مجموعة من روائع صور ذلك الفن ، الموجودة في دار الآثار
العربية ومتحفها الخاص ، مما يراه القارئ موضوعاً في ثنايا الكتاب .

ولا غرو في هذا ، فالأستاذ من أولئك القلائل الذين اختارهم
جلالة مولانا الملك ليكونوا أعضاء عاملين في لجنة حفظ الآثار العربية .
وقد صدر المرسوم الملكي بتجديد انتخابه مرة أخرى عضواً في
تلك اللجنة بتاريخ ٢٥ ذي الحجة سنة ١٣٥٠ (أول مايو سنة ١٩٣٢) .
وها هو ذا نص الكتاب المرسل إلى الأستاذ في ذلك الشأن

نثبته بنصه :

حضرة صاحب العزة أحمد فهمي العمروسي بك
 أشرف بأن أبلغ عزتكم أن المرسوم الملكي الصادر في ٢٥ ذي الحجة
 سنة ١٣٥٠ (أول مايو سنة ١٩٣٢) بتعديل لجنة حفظ الآثار العربية،
 قد نص فيه على تعيين عزتكم من الأعضاء العاملين باللجنة المشار إليها.
 وإني ليسرني أن أعرب لعزتكم في الوقت نفسه عن عظيم ابتهاجي
 بتعزيديكم المتواصل في العمل على حفظ الآثار العربية، واثقاً بأن اللجنة
 ستنال من ذلك في مهمتها الجليلة ما يعود عليها بأكبر فائدة.
 وتفضلوا عزتكم بقبول فائق الاحترام

وزير الأوقاف

٩ مايو سنة ١٩٣٢

ورئيس لجنة الآثار العربية

أحمد علي



حشوتان فاخرتان من الخشب ، مزينتان بطرز مشابه لأحد أبواب القصور الفاطمية ، ولزروع
والزهود ورأسا الحصانين المرسومين على هاتين الحشوتين كلها منقوشة ومفرغة باعتناء تام (من القرن
الرابع الهجرى - العاشر الميلادى)

العقل وكيف يتكون

العقل وكيف يتكون *

أشرف بأن ألقى على حضراتكم معلومات إجمالية عن العقل وكيفية تكوينه لنستنبط منها ما قد يعود على التربية بالفائدة وبالأثر النافع في التعليم .

وفي اعتقادي أنه موضوع جدير باهتمام العقلاء والمربين خاصة ، لأن الواجب على كل من يتصدى لتربية النشء وتثقيف عقوله بالعلوم والمعارف ، أن يُلم بأهم النظريات الفيزيولوجية (علم وظائف الأعضاء) والملاحظات النفسية الفلسفية ، يستوى في ذلك المربي والوالد إذا أراد كلاهما أن يبني العقول على أساس صحيح ويقومها على قواعد النظام والترتيب ؛ ذلك لأن النفس في حالتها الراهنة ، أعنى في حالة ملابتها الجسم واتصالها به ، لا يمكنها أن تفكر بدون المخ - وهو الأداة الوحيدة التي تستخدمها للقيام بأعمالها المتنوعة - كما أنه لا يمكنها أن ترى الدنيا الخارجية بدون العين ولا أن تسمع حركتها بدون الأذن .

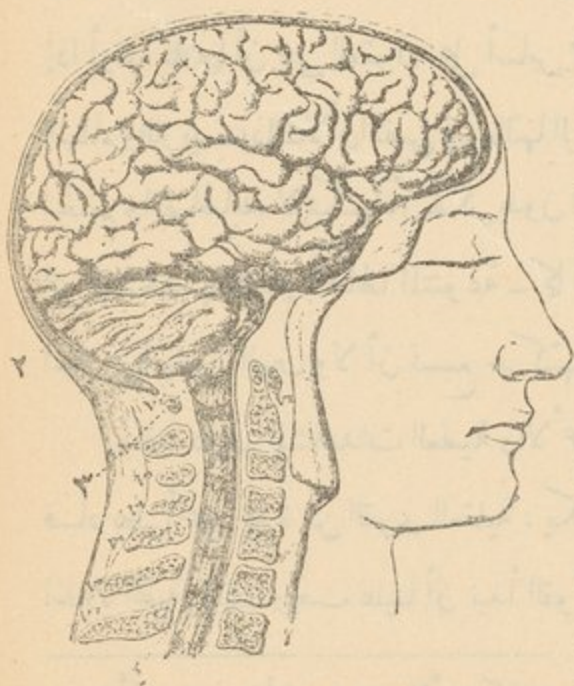
ولقد دلت المشاهدات العلمية والأعمال التشريحية ، على أن كل فساد يطرأ على قوة من القوى العقلية ، يكون منشؤه فساداً في بعض الخلايا المخية ؛ لذلك وجب علينا أن نبدأ القول بكلمة موجزة عن المجموع

* أُلقيت هذه المحاضرة على ملاء من كبار رجال العلم والمعلمين بدار تقابتهم

في ٦ مارس سنة ١٩٢٢

العصبي المركب من المخ والمخيخ والنخاع المستطيل المائلة لتجويف الجمجمة ، ثم يليها النخاع الشوكي المسترسل في القناة الظهرية إلى القطن فالجموع العقدى (أو العظيم السمباتوى) فالأعصاب التى تربط تلك المراكز العصبية بجميع أجزاء الجسم .

وهى خيوط دقيقة جداً الدرجة أن كل عشرة آلاف منها لا يزيد سمكها على ملليمتر واحد ، وهى كما ترى فى شكل (٣) منبثة فى عامة أجزاء الجسم لتبلغ ما يقع من الحوادث إلى المخ وتنقل ما يصدر عنه من الأوامر إلى محل الوقائع .



شكل ١

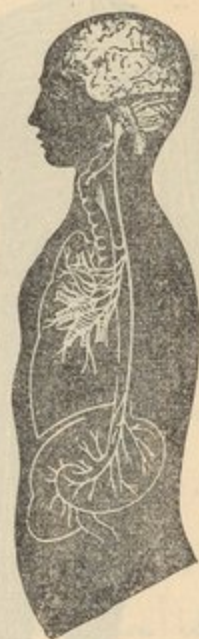
(١) المخ - مكون من طبقة سنجابية ذات تموج وتخرج ، هى مستقر الفكر والإرادة ولكل وجهة منها عمل خاص من الأعمال العقلية المختلفة .
فتلاً رأى العالم بروكا سنة ١٨٦١ شخصاً فقد النطق إثر نوبة شللية أولئكته كان يفهم ما يلقى عليه

من الأسئلة ويجيب عنها تحريرياً، فلما مات المريض، فحص مخه فوجد بالتلفيف الثالث الجبهى خدشاً، فاستنتج بعد مشاهدات كثيرة أنه مركز النطق أى مركز الذاكرة المحركة للألفاظ الشفوية، وسمى ذلك الموضع بتلفيف بروكا.

والمخ مركز الأفعال المنعكسة الإرادية التى سنشرحها بعد.

(٢) المخيمج - لا يزال حتى اليوم مجهول الآثار،

إذ لم يعرف منها سوى تنظيمه لحركات الجسم، بدليل أنه إذا استؤصل من الدماغ اختلت



شكل (٢) العصب الرئوى المعدي
Nerf pneumo-gastrique

(٣) النخاع المستطيل - كتلة عصبية صغيرة، أسفل المخيمج ذات

أهمية عظيمة فى الحياة. إذ بها نقطة (أسمائها فلورنس: عقدة الحياة)

هى منشأ العصب الرئوى المعدي المبين بالشكل الثانى، وهو المنظم لحركات الرئتين والقلب، وإذا قطعت أو جرحت فقد الجسم الروح من فوره لا تقطاع التنفس.

وبجانب عقدة الحياة نقطة إذا
خدشت اختل إفراز السكر من الكبد
وأصيب الشخص بالبول السكرى وهكذا.
(٤) النخاع الشوكى - ينزل فى القناة
الظهيرية إلى القطن . وهو مركز الأفعال
المنعكسة غير الإرادية .



شكل (٣)

فلو وخز أى عضو من جسم نائم
انسحب فى الحال من موضعه بدون أثر
للمخ فيه ، بل بأمر النخاع الشوكى الذى
وصل اليه الأثر فأوحى بالحركة، ولذا تكون
تلك الحركة مضطربة على غير هدى . فقد
يصطدم العضو بما يؤذيه أثناء انسحابه ،
أما فى حالة اليقظة فإن النخاع الشوكى ينقل
إلى المخ المؤثرات الخارجية ، ويوصل
الأوامر الصادرة عنه إلى الجهات المتأثرة .

فالمخ هو الذى يدير دولاب وظائف المخالطة، أى الحياة الحيوانية
من إحساس وحركة ، كما أنه يشرف على وظائف التغذية ، أى الحياة
النباتية كالهضم والتنفس والدورة الدموية والإفراز ، لأنها وإن كانت
آلية لا دخل للإرادة فيها إلا أنها مرتبطة بالمخ بدليل أن الانفعالات

النفسية القوية من شأنها أن تحدث اضطراباً في دورة الدم والإفراز، وينشأ عن ذلك اصفرار الوجه والإغماء والسكتة المخية وذرف الدموع اضطراباً من العين، وإن إجهاد المخ في المسائل العقلية - لاسيما بعد الأكل مباشرة - من شأنه أن يعوق عملية الهضم، إن لم نقل إنه يوقفها. والذى يهمنا هنا هو أعمال الحياة الحيوانية التى تتجلى في الإحساس والحركة، وتلك الأفعال، سواء أكانت بسيطة أم مركبة، كلها أفعال منعكسة إرادية، ولتقريب ذلك من الافهام نقول:

إن المؤثرات في أى جهة من جهات الجسم، ينتقل أثرها إلى المخ بواسطة أعصاب تسمى أعصاب الحس، وهناك يتحول هذا التأثير إلى إدراك وعلم بواسطة خلايا الحسية المخية، التى بعد التحصيل والمداولة تصدر الأمر إلى الجهات المتأثرة من الجسم بواسطة أعصاب أخرى يقال لها أعصاب الحركة.

أمثلة توضح ذلك :

١- إذا شككنا أى نقطة من عضلة اللسان بإبرة مثلاً، فإن التأثير ينتقل إلى المخ فوراً بواسطة عصب الحس، فتتداول الخلية الحسية المخية المرتبطة بهذا العصب في أمر ذلك المؤثر الخارجى، وتجيّب عنه بإصدار أمرها بواسطة عصب الحركة إلى عضلة اللسان بالانسحاب والانتقباض، تجنباً للخطر المحدق به.

٢- إذا وضعنا قطعة من السكر على اللسان، فإن خلايا الحسية تصدر بعد التحصيل أمرها إلى الغدد اللعابية، فتفرز ما يكفي من اللعاب

لا ذابة السكر وابتلاعه، لأنه ملائم للبنية بخلاف المسألة الأولى .
 ٣- الوردية في الحديقة تعبق منها رائحة ذكية فيصدر المخ الأمر
 إلى الجذع والأطراف بالانحناء وقطف الوردية للماء منها للجسم .
 وعلى هذا ، فالمخ والأعصاب يمكن تشبيهها بوزارة الداخلية
 للمملكة الجسمية ، فكما أن وزارة الداخلية مرتبطة مع جميع المدن بواسطة
 البرق والمسرة (التلغراف والتليفون) ، حتى إذا وصل إليها خبر حادث
 من الحوادث ، اجتمع الوزير بمن يشاركه في الأمر ، وخصوا الأخبار
 الواردة ، ثم أصدروا أمرهم بما يجب اتباعه ، فكذلك المخ يعمل على هذا
 النمط كما أوضحته لحضراتكم .

وإنما سميت تلك الأفعال الخفية بالمنعكسة ، لأنها تنعكس في المخ
 على مثال انعكاس الصوت إذا قابل حائطاً أو جبلاً (الصدى) .
 ولنذكر الآن تجربة بسيطة ، لتمييز أعصاب الحس من أعصاب
 الحركة :

يقطع العصب البصرى (وهو عصب حسى ، لأنه ينقل الضوء إلى
 المخ فيبصر) خلف مقلة العين ، ثم يؤثر فيه بمؤثر كهربائى أو ميكانيكى
 فى الطرف المتصل بالمخ فيحدث فيه ضوءاً ، أما إذا أثر فى الطرف المتصل
 بالعين فإنه لا يحدث فيها أقل ضوء ، وبالعكس إذا قطع عصب الحركة
 بين العين والمخ ، وأثر فى النهاية المتصلة بالعين فإنها تتحرك ، أما إذا
 أثر فى النهاية المتصلة بالمخ فإنه لا يحدث شئ مطلقاً .

ويمكن إجراء التجربة بعينها على العصب السمعى أو الذوقى أو أى عصب آخر .

ونتيجة هذه التجارب : أن العين لا تبصر بنفسها ولكنها آلة الإبصار للمخ ، وأن الأذن لا تسمع بنفسها ولكن المخ يسمع بواسطتها ، وأنه هو الذى يحس ما يقع على الجسم من المهيجات المختلفة كالوخز والجرح والحرق وهكذا ، وإن خيل إلينا أننا نشعر بألمها محل حدوثها ، أى فى نهايات الأعصاب التى تنقل تلك المؤثرات إلى المخ ، ومن هنا جاء اغترار المبتورة أطرافهم الذين يشعرون أحياناً بآلام شديدة فى أصابعهم وقد فصلت عنهم من زمن ليس بالقصير .

هذا وإن العجب لياخذ منا مأخذه إذا فكرنا فى كيفية تحويل التأثيرات الخارجية إلى علم وإدراك بمجرد وصولها إلى تلك العجينة المخية ، التى لا يخرج تركيبها الكيميائى عن الماء والزلال والدهن والفوسفور وما شا كل ذلك .

حالة من أحوال النفس العجيبة ، وموقف من مواقف الغيب التى استأثر الله تعالى بها ، فليس للإنسان إلا أن يقف أمامها وقفة إجلال وإكبار ، ويطأ طيء الرأس خشية واحتراماً ، لأن العلم بحقيقة ذلك قد انفرد به الله جل وعلا ، والله لا يظهر على غيبه أحداً ، وسيظل أمر النفس سرّاً دفيناً وأمرّاً مكتوماً مهما جد الباحثون واجتهد المنقبون ،

لأنك إذا وضعت بين يدي أكبر عالم مدقق منقطع لهذا البحث جهمتين
لعالم وجاهل فإنه لا يتأتى له بحال أن يفرق بينهما ويقرأ ما كُن فيهما.
من هذا ندرك قول الله عز وجل : « ويسألونك عن الروح قل
الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .
على أن الإنسان لا يزال يجهل حقائق القوة الطبيعية التي يسخرها
في أغراضه ، ويتمتع بآثارها في غدوه ورواحه من الضوء والحرارة
والمغناطيس والكهرباء ، فكيف به إذا حاول كشف ما وراء الطبيعة
وكله أسرار لا قبل للإنسان بإدراك كنهها ؟



كيفية تكونه العقل

يقول بعض الفلاسفة إن الإنسان لا يفكر باختياره وإرادته، وإنه ليس في وسعه إبراز فكرة واحدة من تلقاء نفسه، أو من صميم فؤاده ولو بلغ الغاية من النبوغ والعبقرية، لأن نفس الطفل عند ولادته قل أن يوجد فيها سوى بعض الغرائز والشهوات والدواعي المادية، وأما الفكر فليس بفطري فيها، بل ينبت تدريجاً ويكتسب بالتجربة من مخالطة الدنيا الخارجية وانفعال النفس بمؤثراتها الحسية والمعنوية التي لا تزال تتسرب إليها بلا انقطاع من طريق الحواس، فينطبع أثرها فيها كما ترسم صور المرئيات بمرورها أمام الآلة المصورة، وتولد الأفكار في النفس متتابعة تتابع الحوادث التي أوجدتها متنادية كل فكرة فيها تدعو أختها إليها بما بينهما من المناسبة والميل، فتتصل بها وتكون حلقة جديدة في سلسلة أفكارنا ومعلوماتنا، ثم تتصادم بالاحتكاك والمخالطة مع الأفكار القديمة المخزونة في النفس فتحركها من سكونها وتثيرها من مكمنها وتبعثها من مرقدتها، وقد قال الشاعر العربي في هذا المعنى :

إذا طال عمر المرء في غير آفة أفادت له الأيام في كرها عقلاً
ولست أجد شيئاً أشبه بالمعاني يدعو بعضها بعضاً إلى الذهن فتقيم فيه
مؤنسة متعارفة من شخص يلج مجتمعاً يعرف فيه ولو فرداً واحداً فإنه
لا يلبث أن يجعله سامعاً للتعارف بالباقيين .

أما إذا لم يصادف من يعرفه فإنه يستمر قلّة ما يمكنه من أن يعرفه في عزلة ثم لا يلبث أن يخرج شأن المعنى الغريب في سرعة الزوال من النفس .

وما مثل الفكر المرتب الذي تتغلغل فيه المعاني متآلفة متناسبة إلا كمثل أحجار (الدمينو) ترص بنظام ينتهي بإقفال الدائرة محكمة .
أما ذلكم الذي يشحن ذهنه بأنواع من المعلومات مفككة متناثرة فلا يمكن إلا أن يكون مضطرب الفكر مهوش الذهن ينتقل من موضوع إلى آخر دون أن يكون بينهما أقل مناسبة .

كان « طرفة بن العبد » عند بعض الملوك و « المسيب بن علس » ينشده شعراً في وصف جمل ، ثم حوله إلى وصف ناقة ، فقال طرفة : « استنوق الجمل » فذهب مثلاً يضرب للرجل يكون في حديث أوصفه شيء ثم يخلطه بغيره وينتقل إليه .

لذلك يجب على المربين أن يعنوا باتخاذ ما عند الأطفال من المعلومات المنزلية أساساً يبنون عليه المعلومات التي يريدون تدريسها لهم إذا كانوا حديثي عهد بالتعليم ، ويخلق المناسبة والارتباط بين موضوع الدرس القديم والدرس الجديد ، حتى تكون المعلومات في أذهانهم كحلقات السلسلة الواحدة ليربط بعضها بعضاً .

وعلى ذلك لا تكون أفكارنا ملكاً خالصاً لنا نحكم فيها وتتصرف في أمرها ، بل هي بنات الظروف والحوادث وتناج الطوارىء الخارجية

تتجه معها وتسير في مجراها دون أن يكون للإنسان منها سوى العلم بها والإذعان لقبولها كما هي من غير تغيير ولا تبديل كما قبل أبويه ودينه من قبل .

وليس منا من يجهل ما لتحول الأحوال، وتقلب صروف الدهر وحوادثه من التحكم في أفكارنا والتسلط على مشاعرنا وأفعالنا، فكم من أمر يرمه الإنسان بعد الروية وتقليب النظر وإعمال الفكر، ثم لا يلبث أن يعرض له خاطر، أو يأتيه خطاب من صديق مثلاً، فيندم من فوره ويود لو كان قد سبق إلى نفسه ذلك الخاطر، أو علم من قبل بما في ذلك الخطاب حتى كان يتوقف عن إفضائه ولا يتعجل في تنفيذه، وكانت الأمور تأخذ طريقاً آخر غير الذي صارت فيه .

فقبل أن يسنح ذلك الخاطر، أو يصل ذلك الخطاب، سارت حركة تنادى المعاني في اتجاه خاص فأوصلت إلى نتيجة خاصة، وبعد ذلك عرضت حالة جديدة غيرت وجه تداعي المعاني تغييراً كان من شأنه أن يؤدي حتماً إلى نتيجة أخرى، فالإنسان في تصرفاته لا محالة خاضع للبيئة الحالية المحيطة به من كل مكان .

ذكرت بعض الجرائد الفرنسية منذ مدة نبأ انتحار موظف كبير وجهت إليه بعض التهم، وبينما هو يحتضر انتهى إليه أن المخاوف التي أسلمته إلى اليأس قد بددت وزالت، وتبين أنه بريء فتمتم قائلاً: «سابق السيف العذل» ثم قضى نحبه بعد دقائق .

لكن ليس معنى ذلك أن يستسلم الانسان للحوادث ويلقى إليها زمام نفسه وينقاد لها انقياد العاجز الذي لا حول له ولا قوة، فإن العقل ينمو بكثرة المران والاستعمال والمزاولة، كالذي يحصل لذوى الأسنان والشيوخ من الحنكة وصواب الرأى وكثرة التجربة ومعالجة الأمور بما أفادتهم إياه السنون وعلمتهم الحوادث، ثم هو يزداد نماءً وقوة بالتعليم وحسن التربية وصلاح البيئة، فإذا قبض للانسان معاشرة الأختيار من الناس وتلقى العلوم من أفواه الأفاضل من الأساتذة والمربين، فإنه بلا شك لا يلبث أن تتغلغل في ذهنه طائفة كبيرة من الأفكار الناضجة التي يصطفها لنفسه مما جرب وتعلم فتصبح رأس ماله الذي يعتمد عليه في مقاومة الحوادث، وسلاحه الذي يدود به عن نفسه في معترك الأفكار، وتسمى هذه الأفكار المديرة . *Idées directrices*.

فإذا هجم على الانسان بعد السن اللائقة ففكر جديد، والفكر يحرك في الصدر شهوة والشهوة تقضى بالإ نفاذ العاجل، فإذا هو فاعل ياترى؟ إن الذي يقع هو أحد أمرين اثنين :

إما أن تجدد الشهوة ساحة الضمير مجدبة فارغة من الموانع التي تكون عقبة في طريقها، فتنتهي طبعاً إلى الغرض الذي تطلبه من غير دفاع ولا منازعة إذ لم يعترضها من الضمير مقاوم فتغالبه. وإما أن يتصدى لها فكر من تلك الأفكار المديرة الراسخة في النفس بالتجربة وطول الاختبار والتربية، فتحاول وقفها عند حدها ومنعها من البلوغ إلى غرضها، وهنالك يتفاقم الخلاف بين الخصمين وينشب بينهما عراك هائل

على مرأى منا وتحت نظرنا، يكون النصر فيه لأشدهما رسوخاً في النفس وأقواهما امتلاكاً لعنانها وقيادة لها .

وإليكُم مثلاً خيالياً يبين ذلك ويجليه للفهم، وينطبق على كثير من أمور هذه الحياة :

مر ثلاثة نفر في يوم شديد الحر، وقد أجهدهم العطش ونال منهم الظمأ، فأتوا في طريقهم على كرم قد ينعم ثمره ودنا جناه، فراقبهم حسن منظره فطوعت لهم أنفسهم أكل شيء منه .

وكان الأول منهم حسن التريية قد رسخت في نفسه فكرة احترام ملك الغير فصحت عزيمته من فوره على ألا ينال من هذه الفاكهة إلا إذا وجد البستاني وتقده ثمنها، أو يمضي في سبيله متحملاً ألم العطش مفضلاً داعي الحكمة على الشهوة .

وكان الثاني أقل تهديباً منه فاندفع بترييته إلى قطف عنقود من العنب ولكنه قبل أن يطعم منه حبة نظر فرأى صاحبه فأثر الرجوع إلى رأى أخيه وعدل عن فكره ونسج على منواله، مرجحاً كفة العقل بعد أن كانت مرجوحة، ومضى في سبيله متحملاً ألم العطش مليباً داعي الحكمة ونداء العقل .

وأما الثالث فكان غلاماً حدثاً ليس عنده ما عند صاحبيه من وازع الحكمة فبرز كتفيه استهزاءً أمانتهما ونزاهة ضميرهما، وشرع يأكل عنقوده مطمئناً هادئاً غير مكترث بزاجر من عقل ولا وازع من حكمة، إذ كان ميدان الضمير عنده خالياً مما يصده عن هذه الشهوة

العمياء الضارية ، ولئن استمر مثل هذا الجاهل مسترسلاً في عميته ولم يجد من يرشده إلى الخير ويكفّه عن مراجعة الشر ليكون في كبره شيطاناً مريداً ولصاً كبيراً .

ترون من هذا أن شهوات النفس لا تقساوم إلا بالأفكار السليمة والعقائد المتمكنة التي رسخت في النفس بالتهذيب والتربية والتعليم أكثر من رسوخ الشهوات فيها .

فإن كان بناء العقيدة واهياً وكانت تلك الأفكار السليمة غير متمكنة من النفس تمام التمكن قوى سلطان الشهوات عليها فأنحازت النفس إلى جانبها .

صاحب الشهوة عبد فإذا ملك الشهوة أضحى ملكاً

عجيب ذلك المزيج المسمى إنساناً، فإن إنسانيته قائمة بالروح والبدن معاً وهما أكثر متعارفين تناكراً وأكبر متقابلين تدابراً، فالروح وهي لطيفة شفافة إلهية دائمة التحنن إلى الأفق الذي انفصلت منه، والبدن وهو معتم جبل من التراب لا يفتأ يحن إلى طينته وينزع إلى الحياة قائمة به إلى جبلته، تطلب الروح أن تسمولاً لأنها سماوية وحب الوطن من الإيمان، ويعالج الجسم أن يهبط بها لأنه أرضي ولا يزال ذلك دأبه حتى تنحل الشركة المعقودة بينهما .

هذا النضال القائم بينهما، إما أن ينتهي بفوز الروح فتتحكم في البدن، « وأحبب بها في فوزها تحكم »، وحينئذ يكون الإنسان صورة إنسانية

لَمَسَاكَ، إِمَّا أَنْ يَنْتَهَى بِفُوزِ الْبَدَنِ وَهُوَ فُوزٌ لَا هَزِيمَةَ شَرِّ مِنْهُ، وَحِينَئِذٍ يَكُونُ الْإِنْسَانُ شَيْطَانًا مُرِيدًا .

يقول أحد علمائنا الأقدمين: « ركب الله الملائكة من عقل بلا شهوة ، وركب البهائم من شهوة بلا عقل ، وركب ابن آدم من كليهما ، فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة ، ومن غلب شهوته على عقله فهو شر من البهائم » .

فإذا كان من يقهرُ القوىَّ بطلا ، فأبين بطولة منه من تغلب بجزئه المملوك على جزئه الشيطاني ، لذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم عقب الفراغ من غزوة : « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » ، أي جهاد النفس

ولا يفوتنا بعد هذا أن نقول إن تلك الأفكار التي جعلناها رأس مالنا الأدبي الخلق ، والتي هي دليلنا إلى الخير ومرشدنا إلى تمحيص ما تفاجئنا به الأيام والحوادث من الأفكار الجديدة ليست منا ، بل منشؤها الطوارئ الخارجية كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، فهي خارجة عن إرادتنا وخروج الحوادث النازلة عن قبضة يدنا ، هذا ومن جهة أخرى فإن إثارتنا تلك الأفكار المديرة وكوننا اصطفيينها لأنفسنا من كثير مما عرض علينا بميولنا الخاصة وغرائزنا الفطرية واستعدادنا الوراثي ؛ هذا أيضاً لم يكن لإرادتنا دخل فيه ولم يوجد فينا باختيارنا ، فالإنسان في الحقيقة واقع بين نيرين : نير داخلي من الاستعدادات الفطرية والغرائز

والشهوات، ونير خارجي من الحوادث المفاجئة والأحوال الطارئة، وهو فيما بينهما كالخديعة بين المطرقة والسندان، أفقال بعد ذلك إن الإنسان حر في أفكاره وآرائه ؟

إن مثل الإنسان في ذلك مثل أمير أو ولي عهد يراد تزويجه فيؤتى إليه بعدة من الفتيات محدوددة، ثم يقال له أنت حر فاختر من أحببت منهن، وفاتهم أنهم لم يعرضوا عليه إلا بعض الفتيات وأن الاختيار محصور في دائرة معينة لا يتعداها، يجيء بعد ذلك دور الاختيار فيختار الأمير إما بما توحيه إليه تربيته المكتسبة أو بما يقتضيه ذوقه الوراثي أو بتأثره بميل أبيه أو أمه، ثم يقولون بعد ذلك إن الأمير كان حراً في اختياره زوجته، على أنه ما كان حراً إلا في القول فحسب .

يقول الفيلسوف سبينوزا (Spinoza) : « إن الناس يعتبرون أنفسهم أحراراً لأنهم يرون أعمالهم ويصدرونها بأيديهم، ولكنهم لا يفكرون في الأسباب التي دعت إليها واقتضت وقوعها، لأن تربية الإنسان وبيئته وحاله النفسية أو المالية قد تضطره في كثير من الأحيان إلى عمل يظن الناس أنه حر في ركوب متنه، مع أنه مجبر على عمله بالعوامل المتقدمة »
ويحسن بنا في هذا المقام أن نضيف إلى رأي هذا الفريق من الفلاسفة القائلين بتكون الفكر من المحسوسات الخارجية بواسطة الحواس (كما تبين من الشرح المتقدم) رأياً آخر، فهناك طائفة كبيرة من العلماء تقول إنها مع اعترافها بما للحواس من النصيب الأوفر في تنمية الذكاء

وترقية الفكر ، تعتقد أيضاً أن العقل عند ولادة الطفل ليس صحيفة بيضاء خالية من كل نقش ، ولا أرضاً قاحلة مجردة من كل غرس ، بل هو آلة مجهزة بتوى ذاتية وميول وغرائز عقلية ، تدخل إليها المدركات المحسوسة فتدير حركتها وتدبر أمرها وإن كانت لا تخلقها .

وتلك الغرائز والميول هي للفكر بمنزلة الهيكل العظمى للجسم تربط أجزائه وتجمع شتاته وتضم أوصاله ، وإني إلى هذا الرأي أميل إذ يؤيده العقل والنظر ، فإن المدركات المحسوسة إذا دخلت إلى النفس وتراكم بعضها فوق بعض دون أن تجد من يهذبها ويرتب أشكالها ويضع كل شيء منها مع مناسبه ، كانت أشبه بأدوات البناء الملقاة بالفضاء لا شكل لها ولا نظام يجمعها .

أما إذا وضع المهندس يده فيها فإنه يخرج منها الصروح والحصون والقصور والدور ، والفكر كذلك هو المهندس القادر الذي يستقبل تلك المعلومات الداخلة فيرتبها ويهذبها ويخرج منها الأشكال المتنوعة والنماذج المخترة البديعة .

ومن تلك الغرائز المخلوقة في عقل الطفل :

١ — غريزة المحاكاة والتقليد التي هي أهم ما يدفع الطفل في حياته الأولى إلى كثير من أعماله .

٢ — غريزة المباراة والمنافسة وحب الاستطلاع ، وهي لا تجعل الطفل يكتفى بمجرد النظر إلى الأشياء ، بل تدفعه إلى حب الاستكشاف والإكثار من السؤال عن كل شيء يعنيه أو لا يعنيه ، بل هي التي تدفعنا

نحن إلى الاستزادة من العلم والرغبة فيه على الدوام ، وفي الحديث الشريف «لا يزال الرجل عالماً ما طلب العلم فإذا ظن أنه علم فقد جهل» ؛ فعلى كل أب وأم ومدرس أن يتعهد هذه الغريزة الكريمة ويحولها إلى وجهتها وينميها ويقويها في الطفل ما وجد إلى ذلك سبيلاً ، فيجيب عن أسئلته ويشيره إلى السؤال عند الضرورة .
ومن رأى «روسو» الإجابة عن أسئلة الطفل إذا كان يقصد بها المنفعة والاستفادة حقيقة .

أما إذا سأل الطفل لمجرد السؤال أو التظاهر بالذكاء والادعاء ، فالأولى إغفالها وعدم الإجابة عنها ، ولكن لا يحسن إغفال الأسئلة النافعة والإجابة عنها إجابة تناسب حالة الطفل .
أما إذا ترك الطفل ولم يجب عن أسئلته فقد تنطفئ بذلك شعلة تلك الغريزة الجميلة ، ويفتر ذلك الذكاء والنشاط الذي يريد الارتقاء والانبساط إلى أن يخمد ويذول بذلك الإغفال .

٣ — غريزة الحب ومن آثارها نفور الطفل من هذا وشدة تشبثه بذلك ، وإيلافه درس الأستاذ الذي يحبه والمبالغة في إرضائه والحظوة عنده ، وإن هذا الميل الكريم في الطفل ، هو بلا شك أساس ارتفاعه بعلم أستاذه وزيادة رغبته فيه ، ولذلك قال الفيلسوف الفرنسي (ديدرو)
عندما عوتب في شأن تأميدله لم يستفد من دروسه : ماذا تريدون أن أعلمه وهو لا يحبني ؟

لذا قال «مشليه» الترنسى فى تعريف التعليم : « التعليم مودة ومحبة »
وهكذا من تلك الميول الفطرية المشروحة شرحاً جميلاً فى كتاب
« الغرائز » تأليف صديق الأستاذ محمد حسنين الغمراوى بك .

تروى من هذا — دون شك — ومما سبقه أن كلا الفريقين لم ينكر
تأثير البيئة فى الإنسان ولا أثر التربية فيه ، وصقال الغرائز والميول التى
فطر عليها بهذه المؤثرات الخارجية ، فإذا كانت الدنيا الخارجية هكذا
هى التى تمنونا بالأفكار وتمدنا بالمعلومات ، وجب علينا أن نكثر جهدنا
من عرض صور الأشياء المختلفة على الطفل ، وتعريفه بأوصافها
وخصائصها ، فإن كثيراً ما يكون ضيق الفكر عند بعض الأشخاص
ناشئاً عن قلة مشاهداته وما عرض عليه من المراتب .

وهذا هو السبب فى الفرق الذى يشاهد فى ابن المدينة إذا قيس
بأمثاله من أبناء القرى ، فهو أذكى منهم فؤاداً وأنبه نفساً وأكثر
توقفاً ، لكثرة ما مر أمام عينيه من الأشياء ، وما عرض لحواسه من
المناظر التى أيقظت عقله وقوت فيه المراقبة والحكم على الأشياء
من نعومة أظفاره .

ولسنا نغالى فى القول إذا شهدنا أن الانجليز أوفر الناس حظاً
من الانتفاع بهذه الدنيا الخارجية والأخذ عنها ، فإن الناشئ منهم
قد يكتفى من دروس المدرسة بما فيه بلاغ له ، ثم يصرف عنان عنايته
إلى تلك المدرسة العالمية العامة فيمون نفسه بمعلوماتها وينمى معارفه
بما يتلقاه عنها ، ويعد نفسه لأن يكون له من الكون أفضل أستاذ

ومن الطبيعة أنفع هاد ، فيجوب آفاق الآفاق باحثاً قارئاً من صحيفة الوجود ما فيه عبرة ، ومن أساطير الكائنات ما فيه هدى وتبصرة . أخذوا بذلك أنفسهم وأولع به متعلموهم لمعرفة أنهم أن هذا هو غذاء العقول ولقاح الأفكار .

ولما كان الإنسان أسير البيئة كما قدمنا ، وابن التربية التي صقل بها ، وجب على الإنسان أن يخفف من وطأة انتقاده لغيره ، فقد « تلوم غير ملوم » . « ولعل له عذراً وأنت تلوم » ، فعلى العاقل أن يتحرى الأسباب ويمحص الحوادث ، ويقف على أسرار الأمور قبل انتقادها . ورحم الله من قال :

الذنب للأيام لا لى فاعتب على صرف الليالى
أما إذا انتقد الناس بعضهم بعضاً من غير روية وبلا تفكير - كما هو حاصل بين كثير من الأمم المتأخرة - فلا ريب أنهم يهدمون أنفسهم بأنفسهم حتى يتفانوا وتذهب ريحهم .

إن النقد الصحيح المبني على أسباب صحيحة والذي يراد به تمحيص الحقائق والوصول إليها ، وبخاصة في المسائل العلمية والاجتماعية ، من أهم عوامل التقدم والارتقاء ، ولكن قليلاً من الناس من يفرق بين نقد الأفكار في ذاتها والتشهير بالأشخاص والنيل منهم .

هذه القوانين الوضعية التي تنص على عقاب المجرمين لا يشتم منها مطلقاً رائحة الانتقام من أشخاصهم أو التشنيع عليهم ، وذلك لأنهم ارتكبوا ما ارتكبوا مدفوعين بتريبتهم الناقصة وغرائزهم الشريرة .

وإنما الغرض من العقاب ، إصلاح عوجهم وتقويم أودهم ، وتحذيرهم
من العودة إلى خطئهم ، والزجر لمن عساه أن تحدثه نفسه من الناس
بالإقدام على مثل أعمالهم ، أو الوقوع فيما استحقوا العقوبة من أجله .



التفكير الخفى والرأى الدَّبرى

وضح مما قدمناه أننا نذكر بروية في جميع شئوننا لنبلغ أغراضنا المختلفة وندرك مقاصدنا المتنوعة . وأننا نستعرض الطرق الموصلة إليها طويلاً طويلاً لنختار منها الطريق المعبدة والمنهج القويم ثم نزاول العمل بإرادتنا واختيارنا ، غير أن للفكر حالة غريبة يحاول علم النفس الحديث أن يكشف عنها القناع ويميط عن وجهها اللثام ، وهذه الحالة هي عمل الفكر بعيداً عن مراقبتنا وشعورنا عملاً خفياً لا تقل نتائجه في القيمة عن عمله وهو تحت سلطان إرادتنا وعلى اتصال بشعورنا . وهذه الحالة سماها كاربنتر الانجليزى بالتفكير الخفى أو غير المحسوس : *L'inconscient* وهى حالة النوم أو السبات الذى يعترى المخ فى كثير من الأحيان فيصير كالذاهل الغافل الذى لا يهتم للحوادث ولا يأبه للمؤثرات الحسية الخارجية التى تتسرب إلى نفسه .

والعجب العاجب أن الفكر حتى فى غفوته وذهوله لا يترك العمل على الإطلاق ، بل يسبح سباحات سرية ويجول جولات خفية بعيداً عن شعورنا ومداركنا ، متنقلاً فى ظلمات النفس وغياهب المعقولات ، ليجمع الروابط المتصلة والمقدمات المنتجة والنتائج الصحيحة ، حتى يصل إلى حقائق معقولة ومعلومات جديدة لا يرب فيها ولا لبس فى صدقها ، ثم يبدئها على غير انتظار ، ويكشفها لنا من غير ترقب ويتحفنابها وليس بيننا وبينها موعد . فكأن للمخ أوقاتاً ينبذ فيها سيطرة الشعور ورق الإرادة ، ليتحرك

في عالمه حراً مستقلاً لمحص الأفكار وينقح الأسباب بريث ومهل ،
ويأتينا بنتائج لا تختلف في شيء عن النتائج التي يصل إليها على علم منا
واتصال بشعورنا ، ولا يمكن أحداً أن يشك في وجود هذه الحالة
النفسية الخفية بدليل أننا نرى نتائجها ظاهرة محسوسة فيما يأتي :

١ — يحدث أن يعالج الانسان من أول الليل مسألة رياضية يحلها
مثلاً ، فيعجز عنها وينال منه التعب فينصرف وينام ، ثم يستيقظ حين
يصبح فيرى حلها مرسوماً واضحاً أمام عينيه .

٢ — كثيراً ما تعرض للانسان مشا كل إدارية ومعضلات معاشية
فيحار في تصريفها ويعي بأمرها ، وقد يستحوذ عليه اليأس ويدركه القنوط
ثم يظهر له عفواً — بعد وقت ما — طريق حلها سهلاً ميسراً .

٣ — إننا كثيراً ما نبحث عن كلمة أثناء المحادثة فلانجدها ، وبعد أن
نتركها وشأنها ونشتغل بغيرها لا تلبث أن تمر بالخيالة في وقت لم نرتقب
مروورها فيه . وذلك ما يسميه الفرنسيون بعقل آخر درجات السلم .
(Esprit du bas de l'escalier) وهو عندنا الرأي الدبري ، وهو ما يعرض
من الصواب بعد فوت الوقت وضياع الفرصة . وإذا كان الأمر كذلك
فمن السكيس وإصالة الرأي أن ننتفع بنتائج هذا النوع الخفي من التفكير
بالتريث والنظام والآنفة والصبر حتى يتكشف الغطاء ويظهر الصواب .
فإذا عجزنا في موضوع ما ، بعد تفكير طويل ، عن الوصول إلى نتيجة
وجب ألا نقنع بأن الوصول إليها صارقسيم المستحيالات ، فقد يتناول الفكر
الخفي هذا الموضوع فيرتب ويمحص ويربط ويستنتج حتى يصل إلى

النتيجة المرغوبة، ثم يفاجئنا بها فنبلغ ما رجونا ونندرك ما تمنينا، ولكننا إذا جزمنا بأن ما وصلنا إليه هو كل ما يمكن أن ينتج الفكر وأمضينا العمل على هذه العقيدة ثم ظهر لنا وجه الصواب من بعد، وقعنا في ندم الرأي الدبري، وقانا الله شره وأعاذنا منه .

قال الجاحظ في البيان والتبيين: « وكانوا يأمررون بالتبديت والتثبت وبالتحرز من زلل الكلام وزلل الرأي ، ومن الرأي الدبري ؛ والرأي الدبري هو الذي يعرض من الصواب بعدمضي الرأي وفوت استدراكه »

الرأي الدبري يملأ القلوب حسرة والصدور ندمًا، ولا يكون إلا من وراء رأي لم يبيت ولم يحتتم، نعوذ بالله منه ومن عواقبه الوخيمة .

يقول أحد حكماء العرب : « دع الرأي يغب حتى يحتتم وإياكم والرأي الفطير »، ولعلكم تذكرون ندامة الكسعي على كسر قوسه في قصته المشهورة، ذلك لأنه لم يبيت الرأي فعرض أصبعه ندمًا حين ظهر له الصواب حتى قطعها وصارت ندامته مضرًا بلا مثال حتى قال الفرزدق :

ندمت ندامة الكسعي لما غدت مني مطلقة نوار

لما انصرف مروان بن الحكم من مصر إلى الشام استعمل عليها ابنه عبد العزيز وقال له حين ودعه: «

إذا كنت في حاجة مرسلًا فارسًا حكميًا ولا توصه

« أي بني انظر إلى أعمالك، فإن كان لهم حق غدوة فلا تؤخرهم إلى

عشية، وإن كان لهم عشية فلا تؤخرهم إلى غدوة، وأعطهم حقوقهم عند محلها تستوجب بذلك الطاعة منهم »، إلى أن قال « وإن كان بك غضب على أحد من

رعتك فلا تؤاخذ به عند سورة الغضب، واحبس عنه عقوبتك حتى يسكن غضبك، ثم يكون منك ما يكون وأنت ساكن الغضب، مطلقاً الجمة، فإن أول من جعل السجن كان حكماً ذائلاً، ولذا جرت العادة - عند الأمم المشهورة بالتروى وحصافة الرأي - بقراءة المشروعات في المجالس النيابية المرة تلو المرة، وإحالتها من لجنة إلى لجنة، وتقليب الأمور بين أيدي الكثيرين حتى يتم اللاحق ما ترك السابق، ويصل المتأخر إلى ما لم يصل المتقدم، فتخرج الأمور محصاة والمسائل مستوفاة من كل وجه.

الرأي كالليل مسود جوانبه والليل لا ينجلي إلا بآصباح
فاضمم مصاييح آراء الرجال إلى مصباح رأيك تزدد ضوء مصباح
ولقد شرع المربون يستفيدون من العقل الاختمارى فى جميع فروع
التعليم خصوصاً فيما يلى:

١ - موضوعات الانشاء: وهذه يجب على المعلم أن يعطيها الطلبة قبل الكتابة عليها بأيام، ويكلفهم التفكير فيها من آن لآخر، ويسألهم عما وصلوا إليه، ويناقشهم فيه وينبه أذهانهم إلى عناصر جديدة فى الموضوع، حتى إذا انضجت أفكارهم واختمرت آراؤهم أمرهم بالكتابة عليها.

٢ - تحفيظ المحفوظات: وهذه لا ينبغي تحفيظها فى وقت واحد، بل فى جملة أوقات، فبعد شرح القطعة شرحاً وافياً، وعرض وجوه محاسنها، ولفت الأنظار إلى حسن أسلوبها وجميل معانيها، يقرأها التلاميذ مرة ثم يتركونها ويعاودون قراءتها بين آن وآخر، حتى يكون للعقل مجال للاختمار، وللرأي

طريق إلى الإيضاح فيخرج المحفوظ ثابتاً وطيبداً ، آخذاً من الفكر مجرى واضحاً نيراً ، لا يعترض ما يجعله قلقاً سريع الزوال .

٣— استعادة ما سبق إعطاؤه للتلاميذ من الدروس ، ومذاكرتهم إياه ، فليس ادعى إلى استنارة الفكر والاهتداء إلى مواطن الحقيقة ، من استعادة التفكير في الشيء وتقليبه على وجوهه من آن لآخر .

سئل العالم الانجليزى نيوتن المكتشف لقوانين الجاذبية العامة :

كيف وصلت إلى استكشافها ؟ فقال : « بالتفكير فيها دائماً » . والمثل

الفرنسى يقول « النبوغ صبر طويل » . (Le génie est une longue patience)

ولله در محمد بن بشير إذ يقول :

إن الأمور إذا سدت مطالبها	فالصبر يفتق منها كل ما ارتجبا
لا تيأسن وإن طالت مطالبة	إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا
أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته	ومدمن القرع للأبواب أن يلجا



علاقة العلم بالاخلاق

علاقة العلم بالاخلاق*

مقدمة

يظن كثير من الناس أن الغنى والسعادة أمران متلازمان لا يفترقان، وأن الهناءة تنحصر في إشباع الرغبات المادية، وإرضاء الشهوات الحسية من سكنى قصور شاهقة، واقتناء أثاث فاخر، والتمتع بالصحة والجمال ونحو ذلك، وهم في ذلك واهمون، فقد يكون في القصور الشاهقة من ضروب الشقاء وأصناف البلايا، ما لا يكون مثله في أكواخ الفقراء والمعوزين. قال أحد الرهبان يوماً لجان جاك روسو وهو فتى: لو تكشف الناس فاطلع كل إنسان على قلب غيره وقرأ ضميره لعلم أن الذين يرغبون في النزول أكثر من الذين يرغبون في الصعود.

وقال الزعيم الاشتراكي الإيطالي انريكو فرى أستاذ العلوم الجنائية بجامعة تورينو، في ختام خطبة له عن وجوب تحسين حال العمال وضرورة زيادة أجورهم.

«إني إذا كنت قد تكلمت عن وجوب تحسين حال طبقات العمال وطلبت رفع مستوى أجورهم، فلست أعني بذلك أنني أطلب لهم السعادة الفردية والهناءة الحقيقية، لأن هذه مسألة استعداد ومزاج، فكم نرى من أناس في أطمار بالية لا يدرون أين ينعشون هذا المساء

* ألقى هذه المحاضرة على ملاء من كبار المربين والمعلمين بدار نقابتهم

في ٩ مارس سنة ١٩٢٢

وهم مع ذلك أسعد في أنفسهم من الملوك، إذا قدر للملوك أن يكونوا
سعداء، وكم نرى على النقيض من ذلك آخرين قد تمت لهم جميع وسائل
السعادة الموهومة غرقين أبداً في لجج من الأكدار والهموم
ليس منا من ينكر أن المال سعادة، وأن البنين سعادة، وأن الصحة
سعادة، وأن الجمال سعادة وهكذا، وأن لكل منا أن يسعى لتلك
السعادات سعيها لينال قسطه منها « قل من حرم زينة الله التي أخرج
 لعباده والطيبات من الرزق »

غير أنه يجب أن يعلم أن تلك السعادات كلها، ليست معززة
بضمان الدوام، فالمال يفنى، والولد يموت، والصحة تقتلص، والجمال يذبل،
والصيت العامى يضؤل ويندثر على تضاؤل الأيام، إذا قدر له أن يتغلب
على كيد المناظرين وحسد المزاحمين.

أفإذا زالت عن الإنسان كل هذه السعادات الفانية لا يجد باباً
آخر لسعادة أرقى وأثبت من أن تعبت بها يد الزمان وتنزعها طوارئ
الحدثان؟ بلى إن في السويداء أفراداً قلائل، مهما أمطرهم الأيام وابل
المصائب، وأثقلتهم بالكوارث والنوائب، فإنهم لا يزالون يحيون حياة
طيبة، صابرين متماسكين أمام جيش الرزايا والنكبات، راضين كل
ما تأتي به الأيام، غير ساخطين على القدر، ولا زارين على القضاء،
ولا يزالون يشعرون بلذة حقيقية، وسعادة داخلية، لا تزعزعها الحوادث
ولا تنال منها الأيام، تلك السعادة هي تزكية النفس العلم وتكميلها بالفضائل.

تزكية النفس بالعلم

وتكميلها بالفضائل

إن النفس العاقلة المميزة المهذبة لا تزال بعد حرمانها كل سعادة مادية - تدأب على العمل ، وتجد مجاله أمامها ينفسح ويرحب ، فتجعل قوتها وفقاً على الدفاع عن الحق وإزهاق الباطل ، وتجد سعادتها ولذتها في الدعوة إلى الخير ، وجلاء أسرار الجمال ، وكشف دقائق النظام والإحكام لأعين الناظرين بلا تمييز بين لون وجنس ودين .

ولكن لا تبلغ تلك المرتبة السامية إلا بأخذ الإنسان نفسه بالرياضة العقلية أخذاً ، والمثابرة على التجربة ، وممارسة أحوال الدنيا دهرًا طويلاً .

ومن العبث والخطل وفساد الرأي ، أن يحاول الإنسان تلمس تلك السعادة الحقيقية من طريق غير طريق العقل وترقية الفكر إلى أبعد حد مستطاع .

وإن كل خطوة يخطوها المرء في هذه السبيل ، تدنيه بقدرها من تلك السعادة الدائمة واللذة الباقية ؛ ولما كنا كنا طلاب سعادة ، وجب علينا كنا أن نتعلم .

سئل أبو عمرو بن العلاء : هل يحسن بالشيخ أن يتعلم ؟ فقال : إذا كان يحسن به أن يعيش فإنه يحسن به أن يتعلم .

وروى الضحاك في تفسير قوله تعالى : « لينذر من كان حياً » أي

من كان عاقلاً ، فالعلم والحياة أمران متلازمان وإلّ فان لا يفترقان ،
والنسبة بين العلم والجهل كالنسبة بين الحياة والموت ، فلنتعلم ولنطلب
العلم أينما وجد إذا أردنا أن نتبوأ مقعد صدق بين الأحياء .

وقد رأيت قبل الخوض في أمور التعليم ، أن أقول كلمة في الرابطة
التي تربط التربية العقلية بالتربية الخلقية التي تكلمت عنها في محاضرة
سابقة ، لأن علاقة العلم بالأخلاق كانت من قديم الزمان - ولا تزال إلى
يومنا هذا - موضع الجدل والأخذ والرد بين كبار العلماء والمفكرين
في الأمم المتحضرة ، حتى قال بعضهم : إنها عقدة العقد ومعضلة المعضلات .
لهذا رأيت ألا أغفل أمر تلك المناقشات في موضوع حيوى
ذى بال كوضوع التعليم .

والنهاية - على ما أعتقد - ستكون نصراً للعلم وأخذاً بيده وإظهاراً
لأثره وفضله في إصلاح الأخلاق ، وإن أبطأ به الزمان ، لاسيما ونحن نرى
للعلم في كل يوم معجزة تدنيننا من حل تلك المعضلة ، فلقد قلب أخيراً
تلك العقيدة القديمة التي قضت بتقسيم المخ إلى حجر وخزائن منفصل
بعضها عن بعض ، خصت كل خزانة منها بقوة من قوى النفس ، فواحدة
كانت للفكر ، وأخرى للشعور أو الوجدان ، وثالثة للإرادة ، كأنها ثلاثة
أشخاص متباينة لا علاقة لبعضها ببعض ، والحقيقة أنها حالات للنفس
الواحدة ، فهي تكون بادئاً منكرة ، ثم يخالط التفكير شعور بالفرح
أو الامتعاض فتكون شاعرة ، ثم تنهياً للفعل فتقدم عليه أو تحجم عنه
فتكون مريدة عاملة .

ولقد مكث المربون السنين الطوال يسلكون طرقاً قيمة معيبة في التعليم، إذ كانوا يكفون التلاميذ حفظ القطع النظامية أو النثرية المطولة عن ظهر قلب، بدون اختيار للمحفوظ أو إفهامهم معناه وإيقافهم على مافيه من جمال البلاغة وحسن الأسلوب، لاعتقادهم أن الذاكرة منطقة من المخ قائمة بذاتها لا تدخل لها في التعقل والتفكير، بل وظيفتها الحفظ وكفى.

لعلكم تذكرون حكاية ذلك الفيلسوف الذي أراد أن يعالج ضعف ذاكرته فعمد إلى دليل سكة الحديد وحفظه بتمامه عن ظهر قلب فلم يجده ذلك نفعاً، اللهم إلا حشو ذهنه بأسماء محطات ومواعيد قيام قطارات لا طائل تحتها.

ليس من يشك الآن في فساد هذا الرأي بعد أن برهن علم وظائف الأعضاء على أن في المخ ذاكرات مختلفة بقدر مافيه من خلايا، فإن كل خلية من خلاياه، كما أنها تفكر وتشعر وتريد، فإنها تحفظ في ثناياها صوراً كامنة مما انطبع فيها في كل حالة من هذه الأحوال الثلاث، وتذكرها زمناً يختلف مداه باختلاف قوة انفعالها وتأثرها بالمدركات، فإن رؤيتنا لفاجعة، كسقوط شخص من فوق شجرة مثلاً، أو وقوعه تحت عجلات الترام، يترك أثراً أوضح في خلايا المخ مما لو حدثنا بهاتين الحادتين.

لذلك نبذ المربون في كل مكان فكرة تحفيظ التلاميذ تحفيظاً بيغوايياً لا طائل تحته، اللهم إلا شحن الذهن بما لا يفيد، وإجهاد النفس فيما لا يجدي، وإضعاف ملكة الذكاء إن لم نقل خنقها والقضاء عليها.

لم يقل أحد من المريين بالاستغناء عن التحفيظ كلية ، لأن
الذاكرة قوة من أهم قوى النفس ، إذ هي مقياس صحيح لمعلوماتنا وأداة
عجيبة لا غنى للفكر عنها لقياس الأَشْياء بنظائرها والحكم على الأشياء
حكماً صحيحاً .

ومما يؤثر عن (نابليون) في هذا الصدد قوله : « رءوس خلو من
الذاكرات كقلاع خالية من الحاميات »

ولكن يجب على كل حال أن يصاحب الحفظ الفهم ، وقد شاهدنا
بالتجربة أننا لا نحفظ شيئاً حفظاً يؤبه له ويعتد به ، إلا إذا فهمنا معناه
وتغذت أرواحنا بجميل مبناه وجليل مغزاه .

فالفكر والشعور والإرادة والحفظ من الخواص العامة للخلية
الحية ، كما أن الحيز والمرونة والمسامية من الخواص العامة للمادة .

نعم كل خلية حية تفهم وتذكر ، وإن اختلف نوع المدرك ، فمنها
ما يدرك الألوان ، ومنها ما يدرك الأشكال ، ومنها ما يدرك الأرقام ،
ومنها ما يدرك الأفكار العامة وهكذا ، ولكنها مع هذا التخصيص
تعمل كلها متناهما متضامنة لصالح المجموع وهو النفس المدبرة .

فالنفس المفكرة حينئذ هي النفس الشاعرة المريدة الحافظة الذاكرة
المتخيلة ، كما أن النفس المغرية المحرصة هي النفس اللوامة المعنفة .

فلا نخدع بكثرة الأسماء لأنها في الواقع لا تدل إلا على مسمى
واحد ، هو تلك النفس التي تتشكل وفق الأحوال وتلبس لكل حالة
لبوسها .

فحال فيولوجياً ألا يكون هناك اتصال وارتباط بين تلك المظاهر المختلفة في الحالة، المتحدة في المصدر ، أى بين العقل من جهة وبين الوجدان والإرادة من جهة أخرى، أو بعبارة أوضح بين العلم والأخلاق (لأن العقل مجال العلم، والشعور والإرادة مجال الأخلاق)؛ وعلى ذكر تحديد مملكة الأخلاق يعجبني أن أذكر هنا على سبيل الاستطراد أشهر مقوماتها .

يطلق الافرنج كلمة (كركتير) على الأخلاق ، فيقول الانجليز:

Un homme de caractère ويقول الفرنسيون A man of character

أى الرجل ذو الخلق العظيم ، كما أنهم يطلقون هذا اللفظ على حرف المطبعة لتوفر أوجه الشبه بينهما، فكأن حرف المطبعة له صورة واحدة لا تتغير رغم الضغط الواقع عليه ، فكذلك الرجل ذو الخلق العظيم لا يحيد أبداً عن المبادئ الصحيحة ولا يتحول عنها مهما تغيرت الظروف وتقلب الأحوال، فالثبات على المبادئ القويمية والدفاع عنها إلى آخر رمق في الحياة ، هما اسمى مظهر للأخلاق العالية والخلال الراقية؛ تلك حدود مملكة الأخلاق وهذه أكبر مميزاتها.



كنه العلاقة

بين العلم والاخلاق

العقل المثقف بالعلوم ، المشحوذ بالمعارف ، كان في كل زمان مناط التمييز بين الأفراد ، وقاعدة المفاضلة بين الأمم في معترك الحياة .

- ١ - قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : «لست بخب ، واخب»^(١) لا يخذعني» ، يعني كان له شرف يمنعه أن يخذع ، وعقل يعصمه أن يخذع .
- ٢ - وقال معاوية لعمر بن العاص : ما بلغ من عقلك ؟ فقال : ما دخلت في شيء قط إلا خرجت منه ، فقال معاوية : ولكني ما دخلت في شيء قط وأردت الخروج منه . يعني ليس العاقل الأكيس من إذا وقع في الأمر احتال له ، ولكن العاقل الأكيس يحتال للأمر حتى لا يقع فيه . فعمر بن العاص كان داهية ، ولكن معاوية كان أشد دهاء منه .
- ٣ - وقال أنوشروان لبزر جهر : أي الأشياء خير للمرء ؟ فقال : عقل يعيش به ، قال : فإن لم يكن ؟ قال : فإخوان يسترون عيبه ، قال : فإن لم يكن ؟ قال : فمال يتجيب به إلى الناس ، قال : فإن لم يكن ؟ قال : فمعي صامت ، قال : فإن لم يكن ؟ قال : فموت جارف .
- ٤ - وسئل كسرى : أي الملوك أفضل ؟ فقال : الذي إذا حادثته وجدته عليما ، وإذا خبرته وجدته حكيما ، وإذا غضب كان حليما ، وإذا ظفر كان كريما ، وإذا وعد وفى وإن كان الوعد عظيما .

٥- كتب أحد الكتاب الفرنسيين مقالا في إحدى الجرائد، يصف نبوغ شاعرهم الكبير « فيكتور هيجو »، ختمه بكلمة وجه الخطاب فيها إلى الألمان عقب انتصارهم في الحرب السبعينية، وهاكم ترجمتها: « أيها المنتصرون الظافرون! لقد فتحتم الأقطار وجيتم آلاف الألوف، فيحق لكم أن تفخروا بما أوتيتم من عز وقوة؛ ولكن ينقصكم شيء تافه، تافه جداً، ألا وهو شاعر يتغنى بمجدكم الطريف كالشاعر الذي يبكينا على مصابنا الأليم »

فانظروا كيف يجد الفرنسي - وهو مغلوب على أمره - وسيلة لتعير ألمانيا المنتصرة بأنها خلو من قريحة شاعر عبقرى. فالمفاخرة والمباهاة بين الأمم لا تكون إلا بالعلم والنبوغ ولو بفرد واحد، « وما نابغ في أمة بقليل »

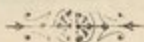
وإني أختم هذه الأقوال الحكيمة وأتوجها بحديثين شريفيين لهما وثيق ارتباط بالموضوع الذي نحن في صددده الآن وهو: علاقة العلم بالأخلاق.

١ - أثنى على رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال: كيف عقله؟ فقالوا: يارسول الله إن من عبادته... إن من خلقه... إن من أدبه... إن من فضله... فقال: كيف عقله؟ فقالوا: يارسول الله ثنى عليه بالعبادة وأصناف الخير، وتساءلنا عن عقله؟ فقال: إن العابد لا يحق يصيب بحبله أكثر من فجور الفاجر؛ وإنما يرتفع العباد غداً في الدرجات الزلنى من

ربهم على قدر عقولهم . يعنى لا عبادة مع جهل ، ولا أخلاق ولا فضل مع جهل .

٢ — قالت عائشة رضى الله عنها : قلت يا رسول الله بم يتفاضل الناس فى الدنيا ؟ قال : بالعقل ، قلت : وفى الآخرة ؟ قال : بالعقل ، قلت : أليس إنما يجزون بأعمالهم ؟ فقال : وهل عملوا يا عائشة إلا بقدر ما أعطاهم الله عز وجل من العقل ؟ فبقدر ما أعطوا من العقل كانت أعمالهم ، وبقدر ما عملوا يجزون .

ننتقل بعد هذا التمهيد ، إلى تلك المسألة التى كانت ولا تزال شغلا شاغلا لأذهان العلماء ، ومزلة لأقدام الباحثين منذ ألفى سنة قبل الميلاد ، وهى النظر فى تعليم الفضائل ، وتلقين قواعد علم الأخلاق ، بل سائر العلوم ، التى من شأن تلقينها أن يعين على إصلاح النفوس وتهذيب الطباع ، أعنى : أيقضى العلم باتباع الخير وترك الشر ؟ أو بعبارة أعم : هل العلم تهذب الأخلاق ؟



هل العلم بهذب الاخلاق؟

كان سقراط يعتقد أن الجهل مصدر الشر وأصل الفساد ، وأن العلم منبع الخير وأسّ الصلاح ، وأن العلم والفضيلة توأمان لا يفترقان ، فإذا ما عمل الانسان الشر ، فما ذاك إلا لأنه يجهل طريق الخير ، فالعلم في عرف سقراط - يستحيل أن يكون رجلا سيء الأخلاق ، ردىء الطباع . وقد تابعه على هذا (هربرت الألمانى) ، والأب (جيرار) المربى السويسرى الكبير ، الذى كان يتمثل دائماً بالعبارة الآتية :

Nous agissons comme nous aimons et nous aimons comme nous pensons .

وترجمتها: «إننا نعمل كما نحب، ونحب كما نفكر» ، يريد بهذه العبارة ، أن العمل يتولد من الوجدان ، وأن الوجدان يتولد من الفكر ، أعنى أن العمل نتيجة الفكر . وهذا بعينه ما جاء فى الحديث الشريف المتقدم . « وهل عملوا إلا بقدر ما أعطاهم الله عز وجل من العقل ؟ »

وعلى هذا تكون القوة المسيطرة على هذا العالم ، المثيرة لحوادثه هى العقل .

طرحت إحدى المجلات الفرنسية - أخيراً - على طائفة من رجال العلم والأدب والسياسة السؤال الآتى :

إن الحوادث تسير الرجال ، فما القوة الكبرى التى تثير الحوادث فى العالم ؟ أهى قوة طبيعية أم عقلية أم أدبية ؟ فتلقّت أجوبة يختلف بعضها عن بعض اختلافاً بيناً ، غير أن العلم كان له الأغلبية الكبرى ،

فقد قال الميسو بول دى شانيل رئيس الجمهورية الفرنسية سابقاً «العقل السليم سيد حياة الناس»

وأبلغ منه قول الإمام على كرم الله وجهه : « رب ! إن من وهبته العقل فم حرمة ؟ وإن من حرمة العقل فاذا وهبته ؟ »
وأبلغ وأحكم قول الله تعالى « يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً » ، ولكن قامت طائفة من العلماء واثرت على هذا الرأي (رأى سقراط) وأنكرت تأثير العلم فيما يصدر عن الانسان من الأعمال ، فقال الفيلسوف الفرنسى بسكال :

La vraie morale se moque de la morale

أى «إن الأخلاق الصحيحة تهزأ بعلم الأخلاق» ، يريد أن يقول إن المثل الأعلى للأخلاق العظيمة فى واد ، وعلم الأخلاق الموضوع فى واد آخر . ثم جاء بعده رجل قوى الحجة ، سليط اللسان ، هو الفيلسوف الانجليزى هربرت سبنسر ، فأنكر على العلم (بلهجة شديدة) كل سلطة تهذيبية ، وكل تأثير فى إصلاح النفوس ، ونادى أن لا علاقة بين العلم والأخلاق ، وقال : « إن تحمس العلماء والخلقين وتعصبهم للعلم ونشر التعليم بين طبقات الأمة ، ابتغاء إصلاح أخلاقها من وراء القراءة والكتب والمدارس ، هو بدعة من بدع هذا الجيل وسخافة من سخافات أهل هذا العصر »

يقول : « كيف يرجى من العلم تهذيب الأخلاق وإصلاح النفوس ، بينما نرى من المتعلمين الذين استنارت عقولهم واتسعت مداركهم أفراداً

لأخلاق لهم ، ووعاظاً يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ، وسياسيين
عظماء قلوبهم كاللحجارة أو أشد قسوة ، عاملين على خراب الدنيا ، وإلحاق
أكبر الشرور بالنوع الانساني ، وأطباء من أكبر العلماء يدمسون السم
لمرضاهم ؟ فما أغنى العلم ولا نهى التعليم »

ثم يقول : « وبجانب هؤلاء نجد من بين الجاهلاء والأعميين ، من هم على
جانب عظيم من الاستقامة والشرف وعلو الهمة » ، ويسخر هربرت سبنسر
من الخلقين الذين يعتمدون في إثبات قوة العلم التهذيبية على الإحصاءات
الدالة على متانة الاتصال والارتباط بين الجهل والإجرام ، وأنها متلازمان
تلازم العلة للمعلول ، والسبب للمسبب .

ويقول : « إن مثل من يقدم هذا برهاناً على تأثير العلم في الأخلاق ،
كقتل من يقول : إن سبب ارتكاب الجرائم عدم نظافة الجسم وورثاته
الملبس ، لأن السجون ملاءى بهؤلاء »

ويقول في الختام : « إننا إذا أردنا أن نحسن الأخلاق ، ونهذب
النفوس ، ونظهر الذمم ، فلا بد لنا من تربية الوجدان والميول ، لأن
الناس في أعمالهم يحكمون عواطفهم ، وينقادون لأهوائهم ، دون أن
يستشيروا حكمتهم ويصفوا إلى نداء عقولهم » .

وهذا كان أيضاً رأى الفيلسوف الفرنسي أوجست كونت ، إذ كان
في آخر أيامه يقول : العالم تحكمه العواطف لا الأفكار .

Ce ne sont pas les idées qui gouvernent le monde ce sont les
sentiments.

ولا يتوهمن أحد أن هربرت سبنسر ، ومن هذا حذوه في اتهام

العلم بعجزه عن القيام بهذيب الأخلق ، وقصوره عن مداواة ما اعتل من غرائز النفوس وميوها ، ينكرون أثر العلم وفائده في إضاءة الأذهان وتنمية العقول ، إذ كان شعارهم تربية العقل وترقية الذكرة إلى أقصى حد مستطاع ، وقد ضربوا فيه - هم أنفسهم - بسهم ، وفتحوا للعقل الإنسانى سبلا جديدة للبحث والتنقيب وراء الحقائق . وغاية الأمر أنهم يقولون : ابحثوا عن طرق أخرى غير طريق العلم للقيام بهذيب الأخلق ، التى عليها يتوقف مستقبل الأمم وسعادة الشعوب .

نعم نعترف - والأسف يملأ قلوبنا - أن العلماء والمتعلمين ، ليسوا فى كل الأحوال ممن يقتدى بهم فى طهارة الذمة وعلو الشرف ، وأن الجاهلاء وصغار العقول ، ليسوا حتما ممن خبثت نفوسهم أو فسدت نياتهم ، كما نعترف بأن العلم قد يكون سيف الباطل فى يد من تأصلت الرذيلة فى نفوسهم وسرى الفساد فى أعراقهم ، ولكن لو طرحنا تلك النفوس المتحجرة والعواطف الجامدة جانبا ، وغضضنا النظر عن هذه الشواذ وتلك المستثنيات ، وفرضنا شخصين تماثل فيهما استعداد الفطرة ، ونشأ فى بيئة واحدة (تعلم أحدهما وبقى الثانى جاهلا) أفلا يكون المتعلم أشد محافظة على كرامة نفسه ؟ وأكثر استقلالا فى رأيه ؟ وأقل إضرارا بنفسه وبالجمتمع ؟

نعم قد يضر الجاهل من حيث يريد النفع ، لأن التمييز بين الخير والشر ، فى بعض المواطن ، من أشق الأمور وأدقها ، والعلم بلا شك هو الذى يهذى الإنسان ويرشده إلى أقوم الطرق وأهدى المسالك .

يقول المؤرخ الفرنسي جيزو: « يشهد الله أنى عقدت النية ووطنت النفس على أن أعمل الواجب على دائماً، غير أنى لست واثقاً أنى اهتديت إليه فى جميع الأحوال ؛ وإن الإنسان فى أيام المحن وأوقات الشدائد لا أخرج إلى معرفة الواجب منه إلى أدائه » ، فكأنى به يقول :

يقضى على المرء فى أيام محتته حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن يقول هربرت سبنسر بالبحث عن طرق أخرى غير طريق العلم تهذيب النفوس ، وإصلاح الأخلاق ؛ فما هى تلك الطرق ؟ وكيف يعقل أن يكون هناك طرق تؤثر فى نفس كائن ديدنه التعقل ودأبه التفكير تأثيراً يؤبه له ، غير طريق الدليل القاطع والحجة الدامغة ؟ يقول هو ومشايعوه : إن الإنسان عبد لحسه ووجدانه ، والناس فى أطوارهم منقادون لشعورهم ، مستسلمون لميولهم ، وإن الفكر ناصح أو مستشار للنفس لا أكثر .

هذا قول صحيح لمرية فيه ، إلا أن الحق أيضاً أن هذا المستشار ، إذا كان فطناً مهذباً بالعلم ، مشحوداً بالمعارف ، فإنه كثيراً ما يفلح فى إثارة الشعور فى الصدور ، وإشعال نار الحمية فى القلوب ، وحمل النفس على الإتيان بأعمال جليلة ، ما كانت لتقدم عليها لولا إرشاد الفكر وهدى العقل .

ليس منا من يجهل ما لحسن الأسلوب وقوة البيان من استعباد القلوب ، وأسر النفوس ، وامتلاك زمام الوجدان والميول ؛ وحسبى دليلاً على ذلك استعطاف بديع التميم بن جميل السدوسى ، لما خرج بشاطيء

الفرات ، فإنه لما ظفر به ، وحمل موثقاً إلى باب المعتصم : وأوقف بين
السيف والنطع ، تأمله المعتصم - وكان جسيماً وسيماً - فأحب أن يعلم
أين لسانه من منظره ؟ فقال : تكلم يا تميم ، فقال : أما إذ أذنت يا أمير
المؤمنين فأنا أقول : إن الذنوب تحرس الألسنة الفصيحة ، وتعي
الأفئدة الصحيحة ، ولقد عظمت الجريرة ، وانقطعت الحجة ، وساء
الظن ، ولم يبق إلا عفوك أو انتقامك ، وأرجو أن يكون أقربهما مني
وأسرعهما إلى أشبههما بك وأولاهما بكرمك » ، ثم قال على البديهة :

أرى الموت بين السيف والنطع كامناً يلاحظني من حيث ما أتلفت
وأكبر ظني أنك اليوم قاتلي وأى أمرى مما قضى الله يفلت ؟
وأى أمرى يأتي بعذر وحجة وسيف المنايا بين عينيه مصلت ؟
وما جزعى من أن أموت وإنني لأعلم أن الموت شيء مؤقت
ولكن خلفي صبية قد تركتهم وأكبادهم من حسرة تتفتت
فإن عشت عاشوا خافضين بغبطة أذود الردى عنهم وإن مت مواتوا
فتبسم المعتصم وقال : « كاد والله ياتمم يسبق السيف العذل ، قد
وهبتك للصبية ، وغفرت لك الصبوة » ، وأمر بفك قيوده وخلع عليه .
فإذا لم يكن جميل بن تميم هذا ، رجلاً عالماً متضلعا من فنون الأدب ،
هل كان عرف كيف يستفيد من الفرصة السانحة ؟

ورب معترض يقول : إنما تسامح المعتصم وترخص ، لأنه لم
يكن معروفاً بالشر والأذى ، فإليك حديث رجل اشتهر بالصلابة
والغلظة ، وهو الحجاج بن يوسف الثقفي ، فإنه لما ظفر بعمران بن

حطان - وقد خرج على الدولة في أيامه - قال لسيافه : اضرب عنق ابن الفاجرة ، فنظر إليه عمران شذراً ، وقال : بأى ما أدبك أهلك يا حجاج ، أأمنت أن ألقاك بمثل ما لقيتني به ؟ وهل كان وراء الموت منزلة فأصانعتك عليها ؟ فأطرق الحجاج استحياءً ، وقال لأصحابه : خلوا عنه .

الحجاج يطرق استحياءً ، ويرخي عينيه وينظر إلى الأرض خجلاً !! هذا من الغرابة بمكان ، ولكنها روعة البلاغة ، وصوله الحق .

فلما خرج عمران ، قال له أصحابه : والله ما أطلقك إلا الله ، فارجع معنا لحربه ، فقال : هيهات ذلك هيهات « غل يدأ مطلقها ، وأسر رقبة معتقها »

إن الذى يقعد بالأغنياء غالباً عن فعل الخير ، هو الجهل بالخير ، وعدم إدراك جمال الخير ، لكنك إذا استعطفك كثير منهم عطفوا ، وإن أبنت لهم وجه الخير أسرعوا لإيقاظ الملهموفين ، وسد حاجة المعوزين ، وذلك لأن عمل الخير في ذاته سعادة حقيقية .

ومنذا الذى يلقى السعادة ثم يتركها اختياراً ؟

يحضر في بهذه المناسبة حكایتان قرأت أولاها في كتاب عربى ، والثانية في كتاب إفرنجى .

ملخص الأولى أن عالماً كان يكثر التردد على بيت أحد الأغنياء ، وكان هذا الغنى لا يهتم برد الزيارة للعالم ، فعوتب العالم في ذلك ، فقال : أما أنا فأزوره لأنى أعرف قيمة المال ، وأما هو فلا يزورنى لأنه يجهل قيمة العلم .

وملخص الثانية أن أحد الأغنياء كان يتنزه في مزارعه مع أحد أتباعه فقابله قروى صغير من أبناء الفلاحين فحياه برفع قبعته، فما كان من الغنى إلا أن رد التحية بأحسن منها، فقال التابع متملقاً: أتتنازل ياسيدي إلى تحية مثل هذا الصعلوك الحقير؟ فأجاب: إنك لا ترضى لي أن أكون أقل أدباً من هذا الذى وصفت بأنه صعلوك حقير.

فانظروا كيف اهتدى هذا الغنى بعلمه إلى الآداب الإلهية السامية « وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها »، وكيف ضل ذلك بجهله سواء السبيل.

زد على ما تقدم أن العلم يبصر المرء بقيمة نفسه، ويزين له التواضع، ويحبب إليه لين الجانب، ويباعد بينه وبين العجب والكبرياء.

يقول الفيلسوف الفرنسى مونتيني: « إن مثل العلماء فى ازدياد تواضعهم كلما تبجروا فى العلم كمثل سنابل القمح تظهر بادئاً وهى خلو من الحب متعالية شائخة فإذا امتلأ جوفها ودنا نضجها احدودبت سيقانها وانحنت رءوسها، كذلك رءوس العلماء تنوء بالعلم فتتضع؛ فإذا رأيت رجلاً يعجب بنفسه ويفخر بعلمه فهو مريض بالخيلاء، وعلاجه الاستزادة من العلم والاعتراف من بحاره ».

إن طمأنينة النفوس وهدوءها وصفاءها ورباطة ^أأشها حتى فى أشد المواقف خطراً، هو نتيجة العلم بالأشياء على حقيقتها والبصر بعواقب

الأمر؛ فالخوف المذموم والجبن وخور العزيمة أمراض قل أن تسكن قلوب العلماء الراسخين، ولكنها تتطرق بسهولة إلى صغار العقول والجاهلين من الناس.

ألا ترى الجاهل يفر مذعوراً لرؤية أحقر الأشياء وأهونها كمنظر المردة مثلاً، التي تتولد بالقرب من المقابر وتذروها الرياح في حين لا يرى المتعلم فيها إلا اتحاد الأيدروجين بالفسفور (الأيدروجين المفصفر) الناشئين عن تحليل المواد العضوية ولذا سميت بالنيران الجوية؟

إن الخائف لا ينتفع به ولا يعتمد عليه في شيء ما، وهو أكثر الناس تعرضاً واستعداداً للأمراض إبان انتشار الأوبئة، وإذا أصيب بها ولم يمت كان أبطأ الناس إبلااً منها؛ كما أنه أسهل الناس استسلاماً للأمراض الوهمية التي ينتهي أمرها بأن تكون أمراضاً حقيقية.

ولا علاج لهذه الأمراض — التي لا يهدأ للانسان معها بال ولا يحسن له عيش ولا تطيب له حياة — إلا بتحصيل العلوم والارتواء من مناهلها العذبة الصافية.

دخل رجل على النبي صلى الله عليه وسلم فأصابته رعدة فقال له: إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد؛ وهذا نهى من النبي صلى الله عليه وسلم عن جبن الانسان وخشيته أى مخلوق مهما كان عظيماً.

ومر عمر بن الخطاب رضى الله عنه على صبية يلعبون وفيهم

عبدالله بن الزبير فهربوا منه إلا عبد الله فقال له عمر : مالك لم تهرب مع أصحابك؟ فقال : يا أمير المؤمنين ! لم أكن على ريبة فأخافك، ولم تكن الطريق ضيقة فأوسع لك . وعبدالله هذا هو الذى دعا الناس إلى خلافته ولبث نحو ثمانى سنوات يهدد دولة بنى أمية بالزوال ؛ وقد دل بسرعة خاطره . منذ نعومة أظفاره . على فرط ذكائه وقوة حجته وإدراكه الحقائق، ثم تمشت تلك الشهامة مع كبر سنه حتى وقف يناضل تلك الدولة العظمى وينازعها السلطة والملك .

وقصارى القول أن العلم نبراس يضيء للنفس طريقها ، وطبيب يعالج أدواءها ؛ ولذلك قامت أغلبية كبرى من عظماء الرجال فى الأمم الحية والشعوب الراقية غير آلين جهداً فى نشر العلم وتعميم التعليم على تفاوت درجاته فى كل مكان ؛ ذلك لا اعتقادهم أنه أمتن أساس يبنى عليه رقى الأمم وأقوى دعامة تقوم عليها سعادتها ورفاهيتها .

وقد حدث — منذ سبعين عاماً — أن طرحت مسألة تعميم التعليم الإلجبارى فى إنجلترا على بساط البحث ، فقام المؤرخ الشهير ما كولى وألقى خطبة ممتعة فى مجلس الأعيان جاء فيها : إن العلم يخدم الأخلاق خدمات جليلة ، وإننا إذا أردنا أن ننقص عدد السجون فعلينا أن نزيد عدد المدارس .

فكان نشر التعليم بين طبقات الأمة هو أنجع دواء لتقليل الجرائم وتثبيت أركان الأمن فى أنحاء البلاد .

وفى الوقت عينه أو قبله بقليل قام المؤرخ جيزو الذى كان

وزيراً للمعارف بفرنسا إذ ذاك ، وقرر التعليم الإلجبارى بين طبقات الشعب الفرنسى .

ولقد عثرت فى شهر سبتمبر الماضى على مقال فى جريدة الطان عنوانه « فى سبيل المدنية » يتضمن رأى أمريكياً أيضاً فى العلم والتعليم وعلاقتها بالتربية الخلقية نقطف منه ما يأتى :

« إن الأمريكيين الذين نغبطهم ونفخر بحق بعقريتهم التجارية والصناعية وكفائيتهم المحققة فى الأعمال ، يعامون حق العلم أن خير عمل يعمل به الرجل فى هذا العالم هو أن يتعلم » .

إن التعليم بالمعنى الصحيح هو الإعداد التام للنضال فى معترك الحياة ؛ والأمريكيون الذين يودون أن يكونوا مسلحين حتى يحسن نجاحهم فى المنافسة الحيوية عمدوا إلى التحقق من نجاح طريقهم القائمة على التعقل والتجربة والجرأة والتبصر فى العواقب ؛ فأوفد ديوان التربية والتعليم فى واشنطن أحد رجاله يسأل أصحاب المصانع وجميع الأفراد الذين فى وسعهم أن يقدموا بيانات عن تأثير العلم والتعليم فى مزاوله الأعمال الصناعية ؛ وقد أجابوا بوضوح تام عن السؤال الذى طرح عليهم وهو :

س — أيرجع سبب الكفاية فى الإنتاج إلى التعليم الحسن ؟

ح — فأجاب صمويل تومس — مدير أحد مصانع استخراج

الحديد وصنعه فى زانسفيل — جواباً حقق به ذلك كل التحقيق .

قال: إن عماله يحسنون العمل إذا كانوا متعلمين؛ وشكا من الشكوى من العمال الجاهلاء الذين يخرجون عمالاً قليلاً رديئاً؛ وقدر القصد في الوقت — إذا ما عمل العمال المتعلمون — بعشرة في المائة، وأقر هذا الرأي الكثيرون من نساخي القطن.

وصرح المستر هري نساخ الصوف أن الذين كانوا في المدارس من العمال يميلون أكثر من غيرهم إلى الغزل والنسيج ولا يضيعون أوقاتهم في المجادلات؛ وأنه في يوم دفع الأجور يسر كثيراً من العمال الذين يعرفون حساب أنفسهم دون الجاهلاء الذين يظنون دائماً أنهم مخدوعون مغبونون.

وقال المستر جون ستيفنس صانع الآلات في نيويورك: «إن التعليم لا يساعد على المهارة العالمية وحدها، بل يقوى الشعور ويحسن الأحوال الاجتماعية للذين أدركوا منه نصيبهم، ويزيد الهناءة الداخلية في الأسرة؛ لأن العامل المتعلم يكثر من العناية بوجهه وأبنائه، ويسكن بيتاً نظيفاً منظماً، ويقدر وقته، ويقصد في نفقاته»، ثم ختم هذا الصانع الماهر ملاحظاته بقوله: «إنى أرى أن المصلحة الوطنية الحقيقية للولايات المتحدة هي في تعليم الشعب وقوة تحصيل العمال»

مما تقدم ترون مبلغ عناية الأئمة الراقية والشعوب المتحضرة بأمر التربية العقلية والبحث والتنقيب وراء كل ما يصلح نفوسها ويقوم أخلاقها، لأنها الأساس الذي يقوم عليه صرح حضارتها وسعادتها.

ولذلك كان علم الأخلاق من أهم المواد التي قرروا تلقينها للنشء في مدارسهم العالية والثانوية والابتدائية، وعنى المربون بالتأليف فيه والتصنيف، حتى امتلأت دور كتبهم ومدارسهم بالسكتب النافعة. فانظروا رعاكم الله حالنا وحال تلك الأمم الراقية الناهضة، ووازنوا بين مدارسنا ومدارسهم.

ألا يحزننا جميعاً أن نرى دور العلم عندنا — حتى المعاهد الدينية — خلواً من تدريس علم الأخلاق؟ الحق أقول لكم إنها حال محزنة للغاية. نلم بالمدارس والمعاهد الدينية فتراها صفرًا من تعليم الأخلاق وعلمها، إلا ما يقع في الندرة من عظة في تضاعيف كتاب مطالعة، وكلمة مثلها في سياق التمثيل لقاعدة؛ وكلمات الحالتين لا تتراد لنفسها ولا تورد لوجه الأخلاق خالصة، ولا تصيب من حظها إلا أن تكون قياساً نحوياً أو مثلاً صرفياً.

ومما يزيد الخطب فدحاً أننا نرى بأعيننا هذه الثغرة في بناء حياتنا الأدبية تتسع، ونحن في غفلة أو متغافلون عن سددها.

إننا بتجريد جيل المتعلمين من القوة الأخلاقية، إنما نعبئهم كتباً عزلاء خلوص هذه المعمعة الحيوية شاكية السلاح؛ فما الذي يمنعنا — ونحن أمة عريقة في العلم والحضارة — من السعي والعمل على نشر الفضائل وبث الأخلاق المحمودة بين طبقات الأمة؟! وما الذي يعوق المربين والمدرسين والأطباء والقضاة والمحامين والمفكرين من كل طبقة أن يعملوا متآزرين على وضع السكتب

القيمة في هذا الفن ؛ وعلومنا وآدابنا في هذا - والله الحمد - حافلة بالحكم العالية والآداب السامية التي ورثناها عن ذلك السلف الصالح ، وله فيها القدم الراسخة والقدح المعلي ، وأن يبذلوا ما في وسعهم لتقريرها في مناهج التدريس للمعاهد والمدارس على اختلاف درجاتها .

إنى أعتقد أن لا شيء يحول دون تحقيق هذا الغرض السامي ؛ لأن القائمين بالأمر فينا لا يسعهم إلا إجابتنا إلى ما نريد إذا كان الشيء الذي نريده حقاً من حقوقنا الطبيعية ؛ وهل فوق ترقية الأخلاق وإصلاح العادات شيء أجدر بال العناية وأولى بالإجابة والمساعدة ؟

وما الذي يمنع علماءنا الأعلام - وهم كفا في الأثر الشريف : ورثة الأنبياء وحفظة الشرائع والأخلاق والوعظ والإرشاد - من محاربة الرذيلة وبث روح الفضيلة في الناس ؟ !

لقد كانت الخطابة المنبرية موضع العناية ، إذ كان يليها الخلفاء في الصدر الأول والأمرء من بعد ذلك ، ثم استقل بها العلماء وقد استقامت لهم فيها طريقة من الوعظ والإرشاد تجاذب الأنفس العصية فضل هواها ، وتثنيها بقوة بيانية عمافيه رداها .

أما اليوم فلا نسمع في المساجد إلا الخطب التي لا تلتئم كثيراً مع روح العصر ، ولا تؤثر في قلوب المصلين التأثير المطلوب .

إننا في أزمة خلقية يوشك - إن تنفس بها العمر - أن تذهب بالبقية الباقية فينا ، ولئن ذهبت بها لنذهبن على أثرها .

فها نحن أولاء تُسَن على هذه البقية الضعيفة من أخلاقنا الغارات ،

ونغزى فى ظل الغفلة والسلم أشنع الغزوات ؛ فالأغنى والصور المتحركة
(السينما توغراف) والتمثيل الخليع المالحن والروايات الهزلية المعدية ،
وما مائل من أعراض هذه الفتنة الفاشية التى نزداد فيها ارتكاساً ؛ كل
أولئك موبقات دهمتنا ونحن عزل من قوة المقاومة ، أغنى الأخلاق ؛
وتلك موبقات ماسرت فى أمة إلا رشحتها للفناء ، وماذا بعد الإهمال إلا
الفوت ؟ وماذا بعد النزع إلا الموت ؟

ألا فلنتعاون جميعاً ولنعمل غير هازلين لصدها هذا السيل الجارف ،
ولنقم بيننا وبينه سداً منيعاً من الأخلاق ، وليبادر حضرات العلماء
الغُير على الفضيلة والآداب القومية ، ويتولوا من تلقاء أنفسهم وعظ
الناس وحشهم فى المساجد والمجتمعات وفى الأسواق والمنتديات ، فهم أولى
الناس بهذا العمل العظيم وأقدرهم على التأثير فى نفوس السامعين .

إنهم إن فعلوا ذلك — ولا إخالهم إلا فاعلين — رغبوا كثيراً من
المتعلمين فى التوجه إلى المساجد وغشيان مواطن الوعظ والإرشاد ،
وأخذوا أنفاس البدع والخرافات التى رانت على التعاليم الدينية وأبعدت
كثيراً من أهل العلم الحديث عنها .

أما إذا أراد حضرات المدرسين والأطباء والمحامين والقضاة وكل من
آتاهم الله فضلاً وعاملاً ، أن يقفوا على مقدار ما يبذله أمثالهم فى البلاد المتحضرة
من النفس والنفيس فى سبيل نشر العلم وتهذيب النشء وإخراج العامة من
ظلمات الجهل إلى نور العرفان ؛ فأنى أسوق إليهم من جليل آثارهم وصالح
أعمالهم ما أرجو أن يحرك فى النفوس عوامل الغبطة ودواعى القدوة :

(١) البابله — قصد أحد مكاتب الجرائد الإنجليزية الكبيرة ديوان الحربية في مدينة توكيو، لمحادثة الجنرال نوجي في شئون السياسة عقب انتصاره على الروسين في موقعة پور آرثر الشهيرة، فأخبر بأن الجنرال يدرس اليوم في إحدى المدارس الابتدائية، فعجب المكاتب ودهش وقال : أ قائد هو أم مدرس ؟ فقليل له : إن جلالة الميكادو تفضل عليه بعد موقعة پور آرثر، فمنحه لقب مدرس بالمدارس الابتدائية .

أليس في هذا النبأ ما فيه من سداد رأى الميكادو وبعد نظر القوم وحسن بصرهم بالأمر واعتقادهم أن البناء المتين لا يقوم إلا على الأساس المتين ؟ يظن الكثير من الناس أن الأطفال لا يحتاجون في أول أمرهم إلى المدرس الكفء والمربي الماهر؛ وإنهم في ذلك لواهمون، لأن مثل الطفل كمثل النبات الصغير، فإنه في حياته الأولى أحوج ما يكون إلى البستاني المدرب، فإذا ما نما وترعرع وامتدت جذوره إلى حيث الغذاء والماء لم يعد يعتمد إلا على نفسه أو يكاد .

(٢) ألمانيا وفرنسا — يقوم جماعة بإنشاء مدرسة لتعليم الشعب، فيعلنون عن وظائف التعليم بالمجان، فتنهاى عليهم الطلبات من كبار المدرسين والمحامين والأطباء والمهندسين، وفي أيسر مدة يجتمع لديهم فوق ما هم في حاجة إليه، فيختارون من بينهم أقدرهم على العمل وأليقهم به، وحينئذ يبتهج المختارون، ويرون الشرف كل الشرف في اختيارهم، ويحلون بهذه الوظائف عناوينهم وبطاقات زيارتهم؛ فانظروا إلى مقدار هذه التضحية ولا تعجبوا أن تقدم القوم وتأخرنا !

(٣) انجلترا — في انجلترا مثل جميل جديد للنسابق في نشر العلم بين طبقات العمال؛ ذلك أن في شرق لندن حياً يعرف بحى (وايت شبل White chapel) أهله في فقر مدقع وضنك شديد؛ ففكر جماعة من أثرياء الانجليز في رفع شأن هذا الحى بنشر التعليم بين ربوعه حتى لا يجتمع عليه الجهل والفقر — وهما ما اجتماعا على حى إلا أهلكاه — فأسسوا به معهداً كبيراً على نفقتهم اسمه (تون بهول Tynbee hall)

ثم فكروا في إيجاد المدرسين فأجمعوا رأيهم على طرق أبواب جامعتى أكسفورد وكمبريدج، ودعوة الشبان المتخرجين فيهما للتدريس بهذا المعهد بلا مقابل، فلبوا الطلب وأجابوا الدعوة مفضلين القيام بهذا الواجب على الالتحاق بالوظائف ذوات الرواتب الوفيرة، وورضوا — وكلهم شبان من أهل النعمة والثراء — أن يعيشوا مع العمال في حيهم ويشاركهم شظف العيش ومرارة الحياة؛ ثلاث سنوات متتاليات، وظل المعهد يدرج مدارج الرقي والفلاح بفضل غيرتهم وقوة ثباتهم، حتى صار اليوم — وقد مضى عليه نحو خمسين عاماً — جامعة من أكبر الجامعات، تدرس فيها العلوم الرياضية والطبيعية والفلسفية والزراعية والتجارية والفنون الجميلة على اختلاف أنواعها .

وفي اعتقادي أن هذا أسمى مثل للتضحية الصحيحة والخدمة الحقة.

تعليم الشعب

بقيت لى كلمة ختامية عن تعليم الشعب : سمعتم حضراتكم من المسترجون ستينفنز الأمريكى، أن الخدمة الوطنية الحقيقية للولايات المتحدة تنحصر فى تعليم الشعب وقوة محصول العمال ، وهو قول حق لامراء فيه ؛ لأن الحكم على أمة يجب أن يتناول مجموع أفرادها لا فئة المتعلمين خاصة مهما بلغ علمهم ورقيمهم .

ولقد سألت أحد أصدقائى الانجليز السؤال الآتى :

بأى عين ينظر الانجليز إلى المتعلم منا ؟ فأجبنى من فوره : أن المتعلم منكم لا يقاس بكفاءته الذاتية ، لأنه محال تصوره منفرداً منعزلاً عن باقى أبناء جلدته الجهلاء الذين يعيشون معه على أرض واحدة وتحت سماء واحدة ؛ يريد بذلك أنهم ينظرون إلى المتعلم منا بمقدار خارج قسمة كفاءته الشخصية على تسعة ؛ إذا كانت نسبة المتعلمين مناعشرة فى المائة ؛ والحق أن هذا القول لم يغضبنى ، بل زادنى شعوراً بالمسئولية الكبرى الملقاة على عاتقى نحو إخوانى الجهلاء والأُميين .

فاذا أراد المتعلمون منا — ولا إخالهم إلا يريدون — أن يرفعوا بلادهم إلى المستوى اللائق بكرامتهم ، فعلى كل منهم أن يضع نصب عينيه أن أحسن عمل يؤديه لبلاده هو أن يقوم بتعليم إخوانه الجهلاء .

وفى ختام اختتام أقول بعز يد السرور : إن فكرة تعليم الأُميين قامت فى رءوس فئة من شباننا العاملين من المدرسين والمهندسين والأطباء

والموظفين والتجار، فأسسوا جماعة في حي White chapel القاهرة، وهو
حي بولاق، حي العمال والفقراء الذين قعد بهم الفقر عن ورود مناهل التعليم
وغشيان دوره. قام هؤلاء الشبان منذ ثلاث سنوات وأسسوا (جماعة
نهضة بولاق الأدبية) وجعلوا من أهم أغراضها تعليم العمال وتهذيبهم؛
فأنشأوا لهذا الغرض قسماً ليلياً مجانياً، وفتحوا أبوابه للعمال يعلمونهم
فيه القراءة والكتابة ومبادئ الحساب ودروس الأخلاق وحفظ الصحة،
وفق منهاج وضعوه خصيصاً لهم؛ وهذا القسم مكون الآن من أربعة
فصول، تضم نحو ثمانين ومائة عامل، وإني أؤكد أنه لو تناسبت موارد
هذه الجماعة مع عزيمة القائمين بها ومجهودهم لكان هذا العدد أضعاف
ما هو عليه اليوم .

ملحظة ختامية

دارت مناقشة حول « علاقة العلم بالأخلاق » بين الأستاذ
عبد العزيز الاسلامبولي، وحضرة الأستاذ المؤلف، فيما إذا كان
ما يزال يرى رأيه الأول في وجود تلك العلاقة؟ فتفضل بإرسال
الكلمة الآتية :

صديق المفضل الأستاذ عبد العزيز الاسلامبولي
بعد التحية، تسألني رأيي في علاقة العلم بالأخلاق بعد أن مضى
أكثر من عشر سنين على تاريخ إلقاء محاضرتي في هذا الموضوع،

وعما إذا كنت لا أزال متحمساً لتلك الرابطة التي تربط التربية بالتعليم
وتجعلها تابعة له ونتيجة من نتائجه ؟

وإني لا أكتم رأيي في هذا الموضوع الخطير ، وقبل أن أجيبك
عن سؤالك هذا ، أذكر مناقشة صغيرة حدثت بيني وبين معالي « جعفر
باشا والى » في هذا الصدد بعينه ، عقب قراءته رسالتي في « علاقة العلم
بالأخلاق »

قال لى : إننى أعتقد أن العلم والأخلاق شيئان مختلفان ، وأن
الرابطة بينهما - إذا وجدت - ضعيفة لا تكاد تذكر .

وقد أخذت أفكر فى تلك الرابطة ، وأتبع رقى التعليم فى كثير
من البلاد الراقية ؛ فرأيت - بعد الذى قرأت وشاهدت - أن الأخلاق
فى تلك البلاد لا تزال على ما كانت عليه من قبل ، إن لم نقل إنها أخذت فى
التأخر والتدهور ، وأن عدد الجرائم فيها لم ينقص عن ذى قبل ، بل
أخذت فى الازدياد والانتشار ، حتى صارت ترتكب جهاراً وفى سن
مبكرة . كما يتضح ذلك من الإحصاءات الرسمية ، مما جعلنى أتشكك
فى صحة القول المشهور « من فتح مدرسة فقد أغلق سجنًا » ، فقد
زاد عدد المدارس زيادة عظيمة فى جميع البلاد ، وعدد السجون فيها
باق كما كان ، إن لم يكن ربا وزاد .

وعلاقة العلم بالأخلاق هذه ، أثبتت من عهد سقراط وما تزال
موضعا للأخذ والرد حتى اليوم .

أصغر فخرى العمرى

هزرت الامامانى

جان فردرك هيربرت *

مقدمة

أريد الليلة أن أقص على حضراتكم تاريخ رجل ذاع اسمه وطار صيته في الأقطار الألمانية والإنجليزية، بل كادت شهرته تطبق جميع الممالك التي تهتم بأمر التربية وتريد أن تتخذ لنفسها متبوءاً في صف الشعوب الراقية الضاربة في هذه الحياة بسهم.

هذا الرجل الألماني الذي هو إمام من أئمة التربية ورأس من رءوسها، إن لم أقل قدوة أئمتها ورأس رءوسها، هو جان فردرك هيربرت. إذا ذكر عظماء المربين في قارة أوروبا سمعت الناس هنا يذكرون اسم (روسو) الفرنسي الذي وضع كتاب (إميل) في التربية، ولكن روسو نفسه لم يحترف في حياته حرفة التربية، بل لا أبالغ إذا قلت: إنه لم يترب، حتى كان في أخلاقه وسلوكه من أبعد الناس عنها.

لذلك يجدر بنا أن نسميه روائياً أو قاصاً في فن التربية لا مربياً بالمعنى الصحيح؛ ولو أن كتابه (إميل) خدم علم التربية في فرنسا وأثار حركة الأفكار فيها وغير من عاداتها وأخلاقها ما شاء الله أن يغير حتى

* ألقى هذه المحاضرة بنادي دار العلوم في ١١ ربيع الأول ١٣٢٧ هـ - مارس سنة ١٩٠٩ م، ونشرت في «صحيفة نادي دار العلوم»، وقد كان الأستاذ المحاضر في ذلك الوقت وكيلاً لدار العلوم.

الآن ، وقد مضى على روسو نحو مائتي سنة ، وله مؤلفات شتى كانت من أهم العوامل في قلب نظام الحكومة الفرنسية ، ولذا يسميه أهل بلاده «رائد الثورة الفرنسية» التي جاءت بعد موته بعشر سنوات تقريباً .
وإذا ذكر عظماء المربين سمعت الناس يتغنون بذكر (هربرت سبنسر) الفيلسوف الانجليزي الشهير ، ولكنه كان فيلسوفاً أكثر منه مربيّاً ، لأنه لم يمارس التعليم في حياته ، وكل ما عمل في هذا الفن هو أنه ألف رسالة بديعة فيه ، وجدير به أن يلقب بمتروسل أو محرر بليغ في علم التربية .

أما بطل الليلة فكان مربيّاً من كل وجه ، وإن شئت فقل بأوسع معاني الكلمة : كان معلماً ماهراً أطول حياته ، وسترون بعد قليل أنه ما خرج من الدرس إلا إلى القبر .



كان مولعاً من صغره بدراسة علم النفس ، فدرسها دراسة علمية حتى ضرب فيها بسهمين ، ثم شيد عليها بناءً شامخاً مؤسساً على أمتن الدعائم ، هو مذهبه في علم التربية .

هذا المذهب الجليل ، وإن كان قابلاً للنقد ككل المذاهب في بعض أصوله كما سترون ، ويعوزه أحياناً شيء من الإيضاح ، إلا أنه في مجموعه برهان ساطع على عظم قوة ابتكار صاحبه وحسن ترتيبه وتنسيقه لمبتكراته .

لم يكتب هذا المربي العظيم بالبحث النظري في القوانين العامة ، بل تنزل



جان فردريك هربارت الألماني

١٧٧٢ - ١٨٤١

من سماء الخيالات إلى دراسة أصغر مسائل التربية العملية، والبحث في كلياتها وجزئياتها، ويصح لي أن أستشهد على ذلك بشهادة رجل عدل هو الأستاذ الفرنسي (مسيو كومبيري) الذي وضع لبني وطنه كتاباً يتضمن حياة (هربرت) وآراءه في التربية وتأثيرها في العالم، حيث قال في مقدمة الكتاب: «إنه لا يسعني - مهما أفرغت جهدي - إلا أن أهيب لكم فكرة عامة عن مذهب (هربرت) الواسع، وأوضح لكم بعض الشيء من آرائه في علم التربية، على ما فيه من غموض أحياناً، وتعقيد مستمر، وبالإجمال أقول: إنني أريد أن أتق لكم هذا التيار المتدفق المشوب بالكدورة، بيد أنني أخشى أن أضعف من قوته باختصارى إياه، وأن أضيع لدى الشرح ضخامة أفكاره وبعد غورها».

هذا قول المسيو (كومبيري) وما أدراك من هو! هو فحل من فحول التربية العصرية، وله فيها القدر المعلي .
ومن هنا تعاملون مبلغ تهبي تناول هذا الموضوع الخطير، ومقدار خوفي من الخط من قدر هذا الفيلسوف الكبير والمربي العظيم، بتصدري لنقل بعض أفكاره إلى اللغة العربية .

نظرة عامة

أسس هربرت مذهبه في التربية على التجارب ونبذ الأوهام والخيالات المستنبطة من علوم ماوراء الطبيعة التي كانت منتشرة في أيامه، ثم حمل على زعمائها الحملات العنيفة، قائلاً لهم بلسان الشاعر العربي «إن

(محاضرات - ١٨)

الأماني والأحلام تضليل»؛ لذلك جاء مذهبه مذهب حقائق واقعية؛ وأشهر مميزات هذا المذهب ثلاثة مبادئ:

١ — أنه يرمى إلى تربية الإنسان تربية تهذيبية صرفة، وينادى بأن التعليم وحده كفيلاً بذلك، وأن الغاية القصوى من التعليم إنما هي اكتساب الفضائل والتحلي بمكارم الأخلاق.

٢ — دعوة الناس كافة — أينما وجدوا — إلى التربية، بغير نظر إلى جنس أو دين.

٣ — جعل التربية ديمقراطية مؤسسة على المبادئ الجمهورية وهي: (الحرية — الإخاء — المساواة) التي تربي الأطفال على حسن معايشة الفلاحين والعمال والصناع وغيرهم من عامة الناس، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

وبمناسبة معايشة الفلاحين — والشئ بالشئ يذكر — أنقل إلى حضراتكم رأى (إدجار كينيت) الفيلسوف الفرنسي الذي عاش مع فلاحى قريته فى صغره، وخالطهم مخالطة تامة، قال: « إن معايشة هؤلاء الناس قد أكتسبتى نفساً ودیعة حرة محبوبة لدى الجميع »
وإني أرى من المفيد قبل الكلام على فلسفة هربرت ومذهبه فى التربية، أن أذكر شيئاً عن تاريخ حياته:

حياته

ولد هربرت فى مدينة (إدمبورج) فى ٤ مايو سنة ١٧٧٦، ودرس دراسته الأولى بمدرسة تلك المدينة التى كان يديرها جده، ولاعتلال

في صحته - سببه أنه سقط مرة وهو طفل في ماء في درجة الغليان - لم يدخل المدرسة إلا في الثالثة عشرة من عمره ، وأتم دراسته بها في سن العشرين ، وعند إتمام دراسته كلف إلقاء محاضرة في موضوع خطير هو (أسباب رقي الفضيلة في الأمم وأسباب انحطاطها) ، فكان لهذه المحاضرة صدى تجاوبته أنحاء البلاد . بعد ذلك دخل كلية (بيننا) ، وكانت من أكبر كليات ألمانيا وأزهرها في العلوم الفلسفية ، فلبث بها ثلاث سنوات تلقى في غضونهما الفلسفة عن الأستاذ (فيشت) ، وألف وهو طالب بهذه السكاية كتاباً حاز موضوعه استحسان الجميع ، وهو (واجبات الحكومة إزاء تربية الرعية) .

وبعد خروجه من هذه الجامعة اتخذ التعليم حرفة له ، إذ دعاه حاكم مدينة (انترلكن) من أعمال سويسرا للتأديب أولاده ، فلبى دعوته ومكث يربي أولاده مدة ثلاث سنوات ، وكان يقدم له تقريرين في كل شهر عن حال أولاده ، ولم تعثر الحكومة الألمانية فيما بعد إلا على خمسة منها نشرت الجرائد ، وكلها تدل على شدة مراقبة هذا الشاب تلاميذه ، ودراسة أخلاقهم دراسة علمية ، وتدل على دقة ملاحظاته ورجحان عقله في تربية النابتة ، كما أنها كانت برهاناً ساطعاً على إخلاصه في العمل الذي وكل إليه لأول مرة . وقد تعرف هربرت في غضون هذه المدة بمدرس سويسري في المدارس الابتدائية يدعى (بستالوتزي) ، كان له أكبر تأثير في عقل هربرت ، ولو أن الفرق بينهما شاسع كالفارق بين كلام النائم المتحمس في رؤياه تارة ، المتخبط في أفكاره تارة أخرى ، وبين رزانة المفكر

اليقظ وإحكام تصور الفيلسوف الدقيق؛ ذلك لأن (بستالوتزى) وُصف بأن قلبه أكبر من رأسه، يهـنـون بذلك أن شعوره كان أكبر من عقله، ومع هذا البون العظيم بينهما لم يأنف هربرت من الأخذ عنه والإقرار بفضلـه حيث قال :

« إن فكرة إدخال المشاهدة في التعليم، بل جعلها أساساً له، لـهـى فكرة سامية جادت بها قريحة (بستالوتزى)، غير أنه قصرها على التعليم الابتدائي، وأنا أريد أن ينتظم تطبيقها جميع درجات التعليم » وقال في موضع آخر : « إن روح طريقة بستالوتزى في التعليم، هي اقتناعه بأن الغرض منه إنما هو تكوين فكر الطالب أو بناءؤه - كما يقول - بواسطة تجارب محكمة واضحة »

أقول : وهذه الفكرة بعينها هي خلاصة مذهب هربرت، وهناك مبادئ أخرى تتفق فيها آراء الرجاين، غير أن ما كان من آراء بستالوتزى مشتتاً مفرقاً مشوباً غالباً بالحدس والتخمين أضحي - بمهارة هربرت وبفضل عامه الواسع - مذهباً علمياً عظيماً. وتاريخ علم التربية يشهد على نفسه بأنه لم يصبح فناً مستقلاً في العلوم الأخرى إلا في أيام هربرت وبفضلـه .

رجع هربرت من سويسرا سنة ١٨٠٠ ودخل جامعة (بريم) ونبغ في العلوم الرياضية على الخصوص ودرّسها، ثم ذهب بعد ذلك إلى (جوتنج) ولبث فيها من سنة ١٨٠٢ إلى سنة ١٨٠٩، حتى جاز امتحان الدكتوراه الذي على أثر نجاحه فيه عين مدرساً بالجامعة نفسها.

من هذا العهد أخذ هربرت يكتب في التربية وينشر آراءه وأفكاره فيها ، حتى عمت أنحاء البلاد الألمانية التي كانت مشتبكة وقتئذ في حروب هائلة . وبينما كان التاريخ يسجل عليها الخيبة في ساحة القتال ، كان هربرت وأمثاله يعملون على مكاتبتهم تحت قصف المدافع ودوى القنابل ، آخذين بثأر بلادهم في ساحات الفكر وفي ميادين العلم ، فألفوا الكتب الجديدة في آداب اللغة والتاريخ والفلسفة والتربية ؛ ولعمري إن هذا كان مبدءاً انتصارهم على الفرنسيين في الحرب السبعينية .

قام هربرت - على صغر سنه - يحمل على طرق التعليم التي كانت إذ ذاك ، وطعن فلسفة ذلك العصر - التي كانت مخيمة على العقول بأوهامها وأباطيلها - طعنات أصابت قوادها ... عاب طريقة (فشت) الذي أخذ عنه في كلية (يينا) ، وشهر بـمذهب (كانت) - قطب الفلاسفة في ذلك الوقت - أيما تشهير ؛ ومن الغريب أن هربرت بعد سبع سنوات من هذا التاريخ خلف (كانت) في كلية (كونجسبرغ) أثر وفاته ... خلفه فيها لا لأنه ينسج على منواله ، بل لينقض أفكاره ويحاربها ؛ ولم يخف هربرت فرحه بالحصول على هذا المركز السامي ، إذ قال لتلاميذه في أول درس ألقاه عليهم : « إني لسعيد بأن أخلف أ كبر فيلسوف في العالم في دروسه ، ولست أخفي عنكم أنني طالما طمعت نفسي إلى هذا المركز الكبير ، وطمعت في الحصول عليه منذ كنت شاباً أدرس فلسفة ذلك الحكيم الكبير ؛ ذلك السلف الصالح الذي لن يقلل من احترامى له وإعجابى به أنى أخالفه في الرأي والمذهب » .

مكث هربرت مدرساً بهذه الكلية نحو عشرين سنة ، أغنى إلى سنة ١٨٣٣ ، كان في أثناءها نبراساً تنبعث منه الأفكار الحديثة والآراء السديدة . وفي سنة ١٨٣١ أتيحت له فرصة ثمينة لو أن الحظ واتاه فيها لكان أسعد حالاً وأرفع مقاماً ؛ تلك الفرصة هي خلو وظيفة مدرس بمدينة برلين بسبب وفاة العالم (هيجل) ، وكان هربرت أول المرشحين لها ، ولكن حال دون نيله إياها جمود أهالي برلين ، فقد كانوا في ذلك العهد من أكبر المحافظين ، فلم يرق في نظرهم تعيين هربرت ، لما اشتهر به من جدة الأفكار وحب التدرج السريع . وأخيراً انتقل إلى كلية (جوتنج) ، وبقى يعلم فيها حتى مات .



يتساءل الناس : كيف تكون هربرت ونما عقله إلى هذا الحد في هذه السن الصغيرة ؟ وقد كان في سن الثالثة والعشرين مررباً محنكا وفيلسوفاً حكيماً أحاط بالفلسفة القديمة : فلسفة أفلاطون وشيشرون ، كما أحاط بالفلسفة الحديثة ؟ ولا شك في أن استعداده الفطري ومواهبه الخلقية كان لها دخل كبير في ذلك النبوغ ، ولو أن هربرت نفسه لا يقول مطلقاً بالاستعداد الفطري ، بل يقول : « إن عقل الإنسان كله مكتسب بالتربية والتعليم » ، ولا شك في أن هربرت مخطيء في هذه النقطة ، إذ أن وجوده بهذه المقدرة وفي هذه السن الصغيرة برهان على خطئه فيها .

ومما يسترعى النظر ويدهش الفكر في أمر هذا الشاب ، استعداده التام للعلوم على اختلاف أنواعها ودرجاتها ؛ فقد كان مبرزاً في الرياضيات ،

والطبيعيات ، مغرمًا بآداب اللغة ، شغوفًا بالفنون الجميلة ؛ وكان يقول : « الرياضيات والشعر منبعًا للتربية الصحيحة » ، وكان مولعًا بالموسيقى حتى أتقن الضرب على السنطير والكان بنوعيهما ، كما أجاد العزف على البيان ؛ وله مؤلف كبير في فن التلحين ، وكان على حبه كل جديد شغوفًا بالآثار القديمة وبالإجمال يقال إنه كان مستعدًا لكل شيء ، حتى لقد يخيل للإنسان أنه استمد من استعداده الشخصي أصول فلسفته التي تقول بأن سر نجاح التربية العقلية إنما هو في تنوع العلوم التي تلقن النشء . ومن العوامل التي ساعدت هربرت على نبوغه هذا النبوغ ، أمه العاقلة التي اهتمت بتربيته اهتمامًا زائدًا ، لما توهمته فيه من نبوغ كامن منذ نعومة أظفاره ؛ وكأنه أجابها على هذا التفرس بلسان البارودي رحمه الله ، إذ قال :

وفيت بما ظن الكرام فراسة بأمرى ومثلى بالوفاء جدير

ما قولكم في هذه الأم التي لازمت ولدها ملازمة الظل للعود
أيام دراسته ، متتبعة خطاه من مدينة إلى مدينة ، ومن مدرسة إلى مدرسة ، باذلة جهدها في تعريفه بكبار العلماء والمدرسين ؟ وما كان هربرت لينكر حقوق هذه الأم الحنون وبمجد فضلها ، بل كان متفانيًا في حبها . حدث أن مرض هربرت مرضًا شديدًا أيام مقامه بسويسرا ، فتناقت نفسه للسفر إلى بلاده ليرى أمه ، لكنه لثقل المرض عليه لم يقو على احتمال السفر ، فكتب . إلى أحد أصدقائه يقول :

« إن أمي العزيزة هي صاحبة الفضل على مدى الدهر ، ولا أنسى

ما لاقت من الصعاب في سبيل تربيتي ما حييت . ما أسعدني لو وفقت
لمكافأتها وقدرت على الترفيه عنها ، وتخفيف مصاعب الحياة وويلات
الزمان عن كاهلها . » وكانى به يقول :

سبقى لها في مضمهر القلب والحشا سريرة حب يوم تبلى السرائر



وأما أبوه فكان مستشاراً بمدينة (الدنبرغ) ، غير أنه كان رجلاً جامداً
بارد القلب ، فلم يكن له أدنى تأثير في تربية ولده .
وظل هربرت حياته كلها رقيق الحال ، حتى إنه وهو مدرس كبير في
كلية (جوتنج) ، كان يضطر لإعطاء دروس خصوصية يستعين بها على
المعيشة في هذه المدينة ؛ فكان من العسير عليه جداً أن يوفق بين أبواب
ميزانيته الضئيلة وبين ما كانت تطلب الحكومة منه ، كضريبة الحرب
وقتئذ ، ومقدارها ١٥٠٠ فرنك .

وفي سنة ١٨٠٠ أصيب بضعف عام في جسمه من انكبابه على
العمل ، حتى إنه كان يظن في بدء كل شتاء سنة أنه آخر شتاء له في حياته ،
ومع ذلك فقد عاش بعدها إحدى وأربعين سنة ، وهذا استثناء آخر
لقاعدة «العقل السليم في الجسم السليم» .

وأخص ما كان يحزن هربرت إنما هو ببطء انتشار أفكاره ومعارضة
الناس إياها ، وخاصة كبار المدرسين الذين درجوا على طرق عرفوها
وألّفوها ، ولم يرق في أعينهم إدخال أى تغيير عليها ؛ لذلك كان كثيراً ما

يقول « إني أحارب الريح والمد والجزر . . . متى يارب تنتشر آرائى هذه في البلاد ، ويقيم الناس لها وزناً ؟ »

لكن هربرت لم ييأس مطلقاً ، ولم يثنه عن عزمه لحظة واحدة ما كان يلاقى من الصعاب في نشر مذهبه . والفضل في ثباته على رأيه واستخفافه بتلك الصعاب ، بل في صيرورة حياته سهلة لديه ، سعيدة في عينيه ، يرجع إلى اقترانه في سنة ١٨١١ بفتاة ذكية الفؤاد ، عرفت بنباهتها كيف تشاركه أفكاره وتخفف عنه آلامه ، وما ذاك إلا لأن اقترانهما كان مبنياً على الميل الحقيقي والود الخالص من الشوائب التي كثيراً ما تصاحب الزواج .

وقبل أن أقص عليكم سبب اقترانه بهذه الفتاة أقول : إن هربرت كان - على قصر قامته - قوياً ، ذا عزيمة في مشيته ، عيناه زوقاوان فتانتان تنحركان بسرعة مذهشة .

قصة اقترانه

من عادات الإفرنج المستحسنة أنهم في أوقات فراغهم يشتغلون بحل ألغاز سهلة ، كأن يطلب تعيين اسم عالم يتألف من مقطعين مثلاً ، لكل مقطع منهما معنى خاص ، فبينما كان هربرت ذات ليلة في مجتمع ، ألقى أحد الحاضرين السؤال الآتي : ما اسم علم مكون من مقطعين : الأول معناه السيد ، والثاني معناه زينة الوجه أو اللحية ؟ فقامت آنسة انجليزية تربت في ألمانيا ، تدعى (مس دريك) وسبقت الحاضرين في سرعة الخاطر ، وقالت بصوت ملؤه اليقين :

« إن اسم العلم الذي تطلبون ، هو زينة الجامعة » ، وكان هربرت مدرساً بالجامعة ، واسمه مكون من مقطعين هما بالألمانية : « هر » بمعنى السيد ، و « بارت » بمعنى الذقن ، فابتسم ضاحكاً ورمقها بنظرات تشف عن شكره إياها وإعجابه بذكائها .

وما هي إلا أيام قلائل حتى خطبها وتزوج منها ، ودام هذا الاقتران السعيد ثلاثين عاماً دون أن تمر فيه سحابة تكدر صفو عيشهما ، حتى جاء موت هربرت سنة ١٨٤١ فاصماً عرى هذه الشركة السعيدة وذاك الاقتران القلبي ، حيث مات فجأة متأثراً بالسكتة القلبية ، حينما كان يلقي درسه بالجامعة .



رأى هربرت في النفس

يقول هربرت : «إن الروح والعقل فراغ مبهم من الجسم، تدخل فيه على التوالي صور الأشياء الخارجية عن طريق الحواس، ثم تنقلب بطريقة مجهولة إلى أفكار قائمة بذاتها عالمة بوجودها، ومجموع هذه الأفكار التي منشؤها الدنيا الخارجية يكون ما يسمى الروح أو العقل» فكأن النفس في مذهبه ليست إلا ما يسميه فلاسفة الإسلام بالعلم الانفعالي، وهربرت يخالف في ذلك على خط مستقيم - مذهب (كانت وفشت) اللذين كانا يقولان بأن هذه الدنيا وهذه الأزمنة والأمكنة إنما هي اعتبارات خلقتها النفس وصورتها بقوتها المفكرة، فهما يقولان بأن كل شيء في هذه الدنيا منشؤه باطن النفس؛ وهربرت ينادى بأن كل شيء آت من الخارج، وأن النفس منشؤها الدنيا الظاهرية فقط .

والأساس الذي بنى عليه هربرت مذهبه هذا، هو أنه جرد النفس مما يسمى بقوى النفس الفطرية، وأنكر عليها أن تملك في بادئ أمرها شيئاً ما، من معلومات فطرية أو وراثية، فهو يقول :

«إن القائلين بقوى النفس واستعدادها النظري لعباد أصنام يجب أن يحاربوا في معبوداتهم»؛ فالنفس في نظر هربرت ليست إلا قاعاً صفصفاً في أول أمرها، ولا توجد وتنمو إلا بفضل المؤثرات الخارجية والمشاهدات الحسية.

وكما أن إقليدس أمكنه أن يخترع الهندسة بتماها بواسطة البديهيات

وبعض القضايا المسلم بها، كذلك كان هربرت يدعى أن في استطاعته تكوين الفكر وإيجاد الشعور والإرادة والذكاء بواسطة المحسوسات فحسب، وبكيفية ترتيبها وطريق عرضها على الطفل.

والأفكار التي تتولد في النفس من انعكاس المحسوسات، تبقى فيها حتى تدخل عليها أفكار جديدة، فإما أن يجذب القديم الجديد بناءً على ائتلاف بينهما - فيتعاشقان ويبقيان معاً، وإما تنافرا وتشاجرا وانبنى على ذلك تنازع أشبه ما يكون بتنازع البقاء في الكائنات الحية، فيفضي حتماً إلى طرد البعض وبقاء الآخر الصالح في النفس.

غير أن الأفكار المطرودة لا تزول من النفس، بل تستقط في مخزن لها وتصير إذ ذاك غير شاعرة بوجودها لا تتقالمها من عالم النور إلى عالم الظلمة، وتبقى هكذا كامنة بين طوايا النفس على شكل ميول، تحاول دائماً الرجوع إلى النور، وتنجح في ذلك متى ساعدتها الظروف.

فمثل النفس كمثل مسرح تمثيل يدخل إليه الممثلون متعاقبين، ويبقى فيه الممثل الأول حتى يدخل عليه الثاني، فإما أن يهاجمه ويلجئه إلى الخروج منه والنزول إلى المختبأ، وإما أن يقترب منه ويتجاذب أطراف الحديث معه إذا جمعتهم رابطة من الروابط، فهكذا الأفكار في النفس في حالة دخول وخروج متعاقبين، والنفس صامتة ترى كل ذلك وليس لديها أى اعتراض عليه، كالملك المتواني المتراخي الذي يرى الرعية في هرج ومرج، وهو مع ذلك لا يبدى حراكاً.

وبهذا الفرض أمكن هربرت أن يفسر ظواهر النفس من شعور

وإرادة وخيال الخ ، فيقول مثلاً في تفسير ظاهرة الفرح والألم: « إن الفرح ينشأ عن اتحاد فكرين متلائمين في النفس ، وإن الألم يأتي من النزاع بين فكرين متضادين ويكون مناسباً لقوة النفور بينهما . »
ولا يزال رأى هربرت في تفسير الفرح والألم هو الرأى المتبع إلى الآن في فلسفة النفس عند الألمان .

ويقول في تفسير الرغبة : « إنها محاولة خروج فكرة من مختبأ النفس المظلم ؛ فإذا وجدت من الأفكار الموجودة في النفس ما يساعدها على الخروج من ظلمتها والنهوض من كونها ودخلها إلى عالم النور ، نشأت عن ذلك الإرادة ، خصوصاً إذا أضيف إلى ذلك الاعتقاد بأن الرغبة ممكنة الحدوث . »
ثرون من هذا الشرح المختصر أن فلسفة هربرت في النفس ليست مبنية على حقائق علمية وتجارب ذاتية ، بل هي فرضية محضة اخترعها فكره الغواص وبنها خياله الواسع .

ولعلماء وظائف الأعضاء أن يعترضوا عليه بأنه أهمل الكلام على وظائف المخ إلاً قليلاً ؛ إذ من المعلوم الآن أن الأفكار ناشئة عن تحرك جزئيات المخ ، وأن الإنسان حينما يشتغل بعقله تكون الكتلة المخية في حالة ارتجاج وحركة . وللعلماء الروحانيين أن يعترضوا عليه في أنه قلل من شأن النفس واختزلها إلى حد العدم تقريباً ؛ وكيف يعقل أن الأفكار تدخل الواحدة بعد الأخرى عن طريق الحواس ، وبعوامل المناسبات بينها دون أن يكون هناك من يستقبلها ويرتبها ؟
والبراهين عديدة على أن الأفكار لا تدخل في النفس وتخرج منها

بعوامل المناسبات والروابط بينها دون أن يكون للنفس أدنى دخل فيها .
وإني لأذكر واحداً منها ، لأن كلاً منها يمكنه التحقق من صحته :
احصر فكرك في أية مسألة من المسائل ، واجتهد ألا تفكر
في شيء سواها ، فما تشعر أثناء اشتغالك بها إلا وقد خرجت فكرة
ليس بينها وبين الموضوع الأول أقل ارتباط ، كأن ترى صورة صاحب
لم تره منذ سنوات مضت ، أو منظر قرية رأيته من زمن بعيد ، ألم يكن
هذا وحده برهاناً كافياً على وجود قوة باطنية تأتي أحياناً وتشوش ترتيب
الأفكار ؟ لا بد أن ظهور هذه الفكرة الفجائية مسبب عن تفتح
تلفيف من تلايف المخ كانت تكون فيه صورة الصاحب أو القرية ؛
وهذه القوة الباطنية التي تشوش ترتيب الأفكار متى أرادت - كما تقدم -
هي التي توجد المناسبات بينها أيضاً ، فلا يعقل أن مناظر خيال الظل
وشواخص (أراجوز) تظهر أمامنا بهذا الترتيب لوجود الرابطة بينها
فقط ، بل لأن هناك يداً خفية تعمل من وراء ستار ، هي التي توجد المناسبات
بينها وتبرزها على الترتيب المعهود ؛ هذه اليد الخفية هي الروح أو العقل .
وإذا رأيت سحابة على شكل قلعة فليس ذاك لأنها كانت على شكل
جبل قبل ذلك فأل الشكل السابق إلى الشكل اللاحق لوجود المناسبة بينهما
فقط ، وإنما هي الريح لعبت بها فأعطتها الصورتين المتقدمتين على التعاقب .
والمتفق عليه الآن عند علماء الأفرنج فيما يتعلق بالروح ، أن الطبيعة
منحت النفس قوى كامنة فيها بالفطرة أو بالوراثة ، وتلك القوى قابلة
للنمو بواسطة الحواس .

وليس من الغريب أن يكون هذا الرأي الأخير هو الذى اتفق عليه فلاسفة الإسلام ؛ كابن رشد وابن سينا والفارابى والغزالى ... الخ ولا أريد أن أشرح لكم آراءهم المشبعة وأفكارهم السديدة فى هذا الموضوع الخطير، فكلكم بهاخير، غير أنى أذكر حضراتكم ببعض أبيات للرئيس ابن سينا فى وصف النفس هى :

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع
محبوبة عن كل مقلة ناظر وهى التى سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كره إليك وربما كرهت فراقك وهى ذات توجع
أنفت وما أنست فلما واصلت ألفت مجاورة الخراب البلقع
حتى إذا قرب المسير إلى الحمى ودنا الرحيل إلى الفضاء الأرفع
وغدت مفارقة لكل مخلف عنها حليف الترب غير مشيع
هجعت وقد كشف الغطاء فأبصرت ما ليس يدرك بالعيون الهجس
وغدت تغرد فوق ذروة شاهق والعلم يرفع كل من لم يرفع
هذا رأى فلاسفة الاسلام فى النفس ، وذلك رأى هربرت فيها،
والله تعالى يقول : «ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربي ،
وما أوتيتم من العلم إلا قليلا» ؛ فيكون كلامهم فى النفس من قبيل الفروض ،
غير أن الفرض يشرف بشرف نتائجها .

فلننظر الآن إلى بعض النتائج (البيداوجية) التى بناها هربرت

على فلسفته المتقدمة :

بما أن الأرواح فى أصلها مجردة من العلم والاستعداد الموروث ،
فتكون كلها طبعاً متشابهة فى الأفراد بادئ الأمر ؛ ويمكن الربى

إذاً أن ينقش في هذه الصحف البيضاء ما شاء أن ينقش ، فيمكن أن يصير أى فرد من الأفراد نابغة أو عبقرية متى أراد؛ وعلى ذلك يكون مستقبل الأفراد والأأمم معقوداً بلواء التربية فقط .

غير أن هربرت لم يكن ليذهب إلى هذا الحد، فيعتقد أن هذا فى الإمكان دائماً، بل كان يعترف بأن هناك أفراداً لا تنجح فيهم التربية مطلقاً مهما كانت مهارة المعلم ، وأن كبار الرجال وصلوا إلى ما وصلوا إليه بأنفسهم، وأن متوسط الذكاء فى الناس يبقى كذلك طول حياته رغم مجهودات أحذق المربين معه. وكان هربرت يفسر ذلك بأن المادة هى العدو الألد للتربية، فهى التى تعطى لها إن كانت فاسدة، وتسهلها إن كانت صالحة؛ لأن هربرت وأن أنكر الوراثة العلمية والاستعداد النظرى، إلا أنه لا ينكر الوراثة المادية والاختلاف فى الاستعداد المادى.

ومع ذلك، فهربرت يعطى للتربية نصيباً وافراً من الأهمية، ويعتقد اعتقاداً راسخاً أن مستقبل الأأمم ومدار حياتها متوقف عليها وحدها، فهو مؤمن بالتربية، متدين بدينها، إذ كان يقول:

«لولا أنى آمل خيراً فى النابتة وأعتقد اعتقاداً صحيحاً أنهم سيأتون يوماً مأمّن الأعمال ما لم يكن يخطر على قلب أحدهم كنت أقاوم تلك التشعيرة القارسة التى تسرى فى جسمى وترجع أعصابى حينما يمر بفكرى أن الانسان ربما يبقى كما هو الآن لا يرتقى فى معارج التقدم ولا يتسنى ذرا السكّال» .

مشاهدات هربرت

النفس في نظر هربرت مجردة من كل قوة أصلية، فذهبه لا يقول بقوى النفس التي اعتبرها قدماء علماء التربية منفصلة ، مستقلة بعضها عن بعض تمام الاستقلال وهي: الذاكرة والعاقلة والخيلة... الخ، وبنوا على ذلك طرقاً عقيمة في التعليم إذ كانوا يعطون التلاميذ محفوظات طويلة لا قيمة لها في ذاتها بقصد تنمية قوة الذاكرة فقط ، وكانوا يعلمون الحساب لا للاستفادة منه في ذاته بل لتقوية القوة العاقلة ، وكانوا فوق ذلك يعتقدون أن الإكثار من حفظ نوع واحد من المعلومات يقوى الذاكرة في العلوم الأخرى ، وأن الإفراط في تعليم الحساب وحده مثلاً يقوى العقل في جميع أنواع العلوم الأخرى .

وقف هربرت إزاء هذه النقطة المهمة في التربية موقفاً آخر وقال : « إن المعلومات التي يجب أن تلقن النشء لا بد أن تكون قيمة في ذاتها من غير نظر إلى ما ينجم عنها من تقوية هذه القوة الموهومة » والذي قوى رأى هربرت في هذا الموضوع البراهين التي استنبطها من التجارب الآتية : —

(١) شاهد هربرت أن بعض التلاميذ لهم قوة ذاكرة عجيبة في العلوم التاريخية، حتى إنهم لا يذكرون أصغر الحوادث مقرونة بتاريخ حدوثها

وقد مضت على درسها السنون ، ومع ذلك فقد كانوا ضعاف الذاكرة في العلوم الطبيعية لا يكادون يذكرون منها ما قرءوه من زمن قصير .

(٢) شاهد هربرت أيضاً أن لبعض التلاميذ ذاكرة في المنزل ، وليس لديهم أدنى ذاكرة في المدرسة .

(٣) شاهد هربرت تلاميذ في سن الثانية عشرة يعقلون العلوم الرياضية تماماً ويبرهنون على كفاءة نادرة فيها ، ثم تركوا بعد ذلك دراسة هذه العلوم للاشتغال بالعلوم الفلسفية التي تمرن العقل وتقويه أيضاً حتى نبغوا فيها ، ثم شاهد أنهم في سن العشرين لا يقوون على فهم الرياضة مطلقاً وليس لهم أى قدرة على تعقلها .

أليست المشاهدة الأخيرة وحدها برهاناً كافياً على أن لكل نوع من العلوم عقلاً خاصاً به ؟ وإلا فكيف يعقل أن النابغ في العلوم الفلسفية والاجتماعية ، والذي يشتغل بسن قوانين محكمة يسير الناس على مقتضاها ، يعجز عن حل مسألة حسابية بسيطة يقوى على حلها تلميذ صغير مشتغل بعلم الحساب ؟

ما ذاك إلا لأن عقل العلوم الفلسفية والاجتماعية غير عقل العلوم الرياضية أو ، على الأقل ، لأن العلوم الأولى تقوى العقل في اتجاه ، والثانية تقويه في اتجاه آخر .

استنتج هربرت من هذا أن تنمية قوى النفس — على نحو ما كان يفعل معاصروه — مسألة وهمية لا حقيقة لها ، وأن التربية الحققة إنما هي إمداد

العقل بمعلومات متينة مفيدة في ذاتها، وفي كل نوع من أنواع العلوم .
وقد قال أحد ظرفاء الانجليز في هذا المعنى : « إذا أردت أن تقوى المعدة
وقوتها الهاضمة ، فلا تأكل صمغاً مرناً بل كل بفتيكا » ، يريد بهذا أن
مادة الصمغ نلرن ليست مغذية كاليفتيك .

كذلك الحال في التعليم؛ فإذا أردنا أن تقوى العقول ونزيها تربية
حقيقية فلا ينبغي أن نفعمها بتمرينات عديدة الجدوى ، وإنما بمعلومات
نافعة مثقفة للعقول مغذية للنفوس .

وجاء علم التشريح مؤيداً آراء هربرت في هذا الموضوع إذ قال
الطبيب الفرنسي الدكتور (موسى دى فلورى) :

« كانوا يصورون لنا قوى النفس كأشخاص حقيقيين : كسيدات
جالسات في عقولنا ، هذه السيدة ذاكرة ، وهذه السيدة عاقلة ، وتلك
السيدة مخيلة ، وفي وسط أولاء السيدات تجلس النفس على عرشها الضخم ،
وتصدر أوامرها إليهن ، بواسطة رئيسة مجالس وزرائها (دولة السيدة
إرادة)

تلك أيام خلت وتغيرت هذه الحكومة الباطنية واستبدل بها
سلطة الجزئيات المخية ، فسارت حكومة العقل سيراً حثيثاً إلى
الأمم ، موازية هيئة حكومة الأفراد ؛ فبعد أن كانت السلطة
للأمراء والنبلاء انتقلت إلى يد رجل واحد هو الملك ، ثم انتقلت منه إلى
سلطة الأفراد أى الأمة .

يثبت علم التشريح الآن أن في المخ مراكز عديدة للذاكرة متباعد بعضها عن بعض فمثلاً هناك: ذاكرة للأرقام ، وثانية للكلمات ، وثالثة للأفكار ، ورابعة للأصوات ، وخامسة للألوان وهكذا .

كما أنه يثبت أن لدينا عقولا كثيرة : هذا للرياضيات ، وهذا للفلسفة ، وذلك للموسيقى وهكذا ، وعلى هذا درج هربرت .

فإذا أريد تنمية الذاكرة أو العاقلة مثلاً ، فلا بد من تلقينها شيئاً من كل نوع من أنواع المعلومات ، ولا بد أن يلاحظ أن المبالغة في العناية بتنمية قوة من القوى في نوع واحد من المعلومات ، يضعفها في الأنواع الأخرى .

هل أتاكم حديث ذلك المربي الفرنسي الذي كان يشكو ضعف ذاكرته ، فنكر في تقويتها ، فعمد إلى دائل السكة الحديدية وحفظ عن ظهر قلب أسماء المحطات ومواعيد قيام القطارات ؛ فكانت النتيجة أنه استظهر مجلداً كبيراً دون أن يكسبه ذلك مرانة في الذاكرة ، فجاء الأمر بعكس ما كان ينتظر ، وضعفت قوة ذاكرته في المعلومات الأخرى .

ولذلك ترى حفاظ اللغة من أضعف الناس ذاكرة فيما عدا اللغة ؛ وأن الرياضيين المتفرغين للرياضة ليسوا أذكىاء في العلوم الأخرى .

فالذي يجب اتباعه في تقوية الذاكرة مثلاً ، هو أن يحفظ الإنسان من كل علم طرفاً قليلة شائعة وفي ذات الوقت قيمة .

أثر الافطار القديمة

في كيفية ادراك الافطار الجبررة

وهذه هي النتيجة الثالثة ، وهي بلاشك أهم نظريات هربرت ، وبها امتاز مذهبه من باقي المذاهب ؛ ويمكننا أن نسميها تأثير الأفكار القديمة في كيفية إدراك الأفكار الجديدة .

ولفهم هذه النظرية رأيت أن أقدم بين يدي الموضوع مثلين :
الأول — إذا نظرنا إلى وردة مثلاً في حديقة ماء، فإن العين تنقل إلى المخ شكلها ولونها الزاهي ، وينقل إليه الأنف رائحتها العطرية ، فيدركها المخ حالاً على حقيقتها ، غير أن ماضى الفسکر لا يلبث أن يتداخل في الأمر ويذكرنا بأشياء عديدة لها ارتباط بالموضوع ، فيفسد عمل الحواس الحاضر ويسمجه فتدرك الوردة ثانية إدراكاً مخالفاً للإدراك الأول .

فإذا كان الناظر عالماً بالنبات مثلاً ، فإن الوردة تفقد من رونقها الأول في نظره عند ما يوازنها بالأشياء العديدة التي من فصيلتها ، والتي أعجب برؤيتها يوم كذا . وإذا كان الناظر فيلسوفاً متشائماً ناقماً على هذه الحياة متبرماً بها ، فإنه لا يلبث بعد النظرة الأولى ، أن يصبغ ألوان الوردة الزاهية الضاحكة باللون الأسود ، حينما يفكر أن ثمة فتيات جميلات ، باسمات للحياة والحياة باسمه لهن ، لا يعمرن مثل الورد طويلاً حتى تقصف غصون المنن شبابهن النضر .

الثاني — إذا عرضنا عظم العضد — مثلاً — على رجل من العامة ،

فلا يرى فيه إلا قطعة عظمية منتهية بعظمتين مستديرتين متساويتين،
فاذا عرف ضناه بعد ذلك على عالم من علماء التشريح ، سرعان ما يلحظ فيه
تلك النتوءات التي تربط العظام بالعضلات، والمجاري التي تجري فيها الشرايين
(لأن الله سبحانه وتعالى وضعها من كرمه بجانب العظام ، حتى تكون
في مأمن من الأخطار) .

ينتج عن هذا : أن إدراكنا الأشياء لا يخلو من الشوائب
أبداً ، وأننا لا ندرك الأشياء على حقائقها مجردة من كل خلط
ومزج ، إذ للأفكار القديمة تأثير كبير في إدراك الأفكار الجديدة ، فلا يتأتى
أن يدرك شخصان شيئاً واحداً بكيفية واحدة ، ذلك لأنهما وإن نظرا
بعين واحدة ، فإنهما لا يدركانه ببصيرة واحدة ، للفتاوت بينهما في
المعلومات السابقة .

والناس مختلفون في المعلومات اختلافهم في الوجود ، فكما أنه لا
يوجد اثنان متشابهان في الخلقة تماماً ، كذلك لا يوجد اثنان متساويان
في المعلومات . وكما أن هناك بعض أمراض عضوية تقسد النظر وتريه
الأشياء كلها مصبوغة بلون واحد ، كذلك يوجد في العقول البشرية كلها
مرض أو خطأ فكري أو نوع انكسار عقلي ، أشبه بالانكسار الضوئي ،
يمنعنا رؤية الأشياء في شكل واحد وبكيفية واحدة .

هذا الخلط الذي يحصل بين إدراك الأشياء الحالية وبين الأفكار
القديمة ، يتجلى واضحاً في عقول الأطفال .

فالولد الذى يرى الثلج يتساقط لأول مرة يقول «هذا سكر»، أو «أبودقيق الأبيض»، والولد الذى يرى قلع المركب لأول مرة يقول «هذه ملاة سرير»، إذا كان سبق له أن رأى السكر والملاة .
وبمناسبة سقوط الثلج فى البلاد الباردة، أذكر تأثيره فى نفسى عند رؤيته لأول مرة :

بينما كنت سائراً فى أحد شوارع مدينة فرساي، إذ رأيت الجو قد امتلأ تبنياً أبيض، فنظرت يمنة ويسرة متطلعاً إلى رؤية ذاك الذى عهدته يذرى أكداًس القمح فى بلادنا، فلم أجده ! وسرعان ما تنبهت إلى أن الذى خلته تبنياً، إنما هو الثلج الذى طالما تشوقت لرؤيته يتساقط فى الجو .

وهذا يرينا كيف أن المنظر القديم - الذى رأيته منذ الصغر - قد أثر فى المنظر الحديث وألبسه صورته !



تأنيديا جوجيا

من هذه النظرية الأخيرة يقول هيربرت: إن الأفكار القديمة في النفس هي بمثابة حرس لها يعارض دخول الأفكار الجديدة فيها إذا لم يكن بينهما رابطة، أو... على الأقل... لا ترحب بها إذا دخلت عليها، بخلاف الأفكار الجديدة التي تشابه القديمة من بعض الوجوه، فإنها تنجذب بها، و«شبيه الشيء منجذب إليه»

وعلى ذلك يجب على المعلم ألا يعرض على التلاميذ إلا الأشياء التي بينها وبين ما يعرفونه بعض الارتباط، حتى يسهل دخولها إلى الذهن والتأمل مع القديم، وبذلك ينمو العقل ويتقوى تدريجاً.

وعلى ذلك يكون من المهم جداً أن يسأل المعلم تلاميذه في الدرس القديم، ليدكرهم بأهم نقطة قبل أن يبدأ الدرس الجديد، أما إذا عرض على التلاميذ موضوعاً جديداً بالمرّة، فإنه لا يرتبط بالقديم، بل يبقى وحده كالذخيل منفرداً منعزلاً. وتحصيل المعلومات بهذه الطريقة، يشحن الذهن ولا يقويه، ويكون مثل تلك المعلومات المتفرقة كمثل كوم من الحجارة مرصوف بعضها فوق بعض، دون أن يكون بينها أي تماسك. فإذا جاء الولد المدرسة وجب أن يتخذ المعلم ما عنده من المعلومات أساساً يبنى عليه، لأن إدخال الجديد الصرف إلى الذهن، فضلاً عن كونه لا يرتبط بالقديم، فإنه يثير النفس بما يحدث فيها من رجة تفضي إلى تخطيم سلسلة المعلومات القديمة، وينجم عنه وقوف الحركة الفكرية

وضجر وملل يعتري التلاميذ ، فلا يقبلون على العلم برغبة صحيحة .
والترغيب في العلم - عند هربرت - والتشويق إلى تحصيله ، أساس
التربية الصحيحة ، فهو يقول بمطاردة الملل والكدر من فصول المدرسة ،
حتى لا تكون منابع شقاء وعذاب للتلاميذ .

قال المرحوم « قاسم بك أمين » في كلماته :

« من مرورى فى المدارس والمكاتب ، أحفظ تذكراً ثابتاً
لا يزول أبداً ، هو الخوف من الضرب ؛ ففى الكتاب ضرب بالعصى
على الأرجل أو الكتف أو الرأس أو أى مكان آخر من الجسم ، وفى
المدارس بالتيلة المزفتة والفلقة ضرب يبقى أثره مدة أيام . كنت أذهب
إلى محل التعليم امصحوباً باضطراب فى العقل وخفقان فى القلب وارتعاش فى
الجسم ، وبعكس ذلك أرى الآن الأطفال يذهبون إلى المدارس راضين
مسرورين ، نتيجة منع الضرب فيها ، ودخول الألعاب الرياضية .
وهذا لا يتحقق إلا إذا كان المعلم مفيداً لدى تلاميذه .

كان يستألفون يقول : « إنى أريد أن يقرأ تلاميذى على صفحة
وجهى ، من الصباح إلى المساء ، أنى أفرح لفرحهم وأحزن لحزنهم » .
وكان هربرت طوال حياته مفيداً فى علومه شائق المحاضرة محبوباً
فى كل مدرسة درس فيها ، حتى إن أولاد حاكم (انترلاكن) لم ينسوا
مراسلته بالخطابات الودية حتى آخر لحظة من حياته .

ولهذا يرى هربرت أن التربية المنزلية أهم بكثير من التربية

المدرسية ، وبخاصة إذا كان المربي هو الأم ، لوقوفها على معلومات ولدها ، فتستطيع بذلك أن تبني عليها بناءً مرتبط بالأجزاء .

أما ضرر التربية المدرسية فنأتج عن أن المعلم يلقى درساً واحداً وبلغه واحدة ، على تلاميذ متفاوتين في الأفكار وفي المعلومات السابقة . والواجب عليه - بناء على نظرية هربرت المتقدمة - أن يخاطب كلا على نسبة معلوماته وعلى قدر عقله ، مثله في ذلك كمثل الذي يحتم على أشخاص مختلفي البنية - منهم الصحيح ومنهم العليل - قطع مسافة واحدة في زمن واحد ، أو التغذى بطعام واحد بمقدار واحد ، فالمطلوب من المعلم إزاء تلاميذ الفصل الواحد أن يراعى استعداد كل فرد على حدة ، ويخاطبه بالعبارات التي يفهمها ، إذ الغرض من التربية تكوين الفرد ، فعلى المعلم معرفة ذلك الفرد ، وفي ذلك يقول أحد ظرفاء الانجليز :

« ليس الغرض من التربية أن تضع الأربعين تلميذاً بما فيهم ابني (جون) في هاون بيداجوجي وتسحقهم جميعاً ، حتى يستحيلوا كتلة فتيان متماثلة التركيب ، ثم تقسمها بعد ذلك على عدد التلاميذ لتحصل على خارج قسمة ، هو متوسط التلميذ ، غير أن جون ابني ليس بخارج قسمة ، وإنما هو واحد صحيح ينبغي أن تدرسه على حدة ، وتعطيه ما يناسب عقله وتطبيقه بنيته » . من هذا ترون ما يجب أن يكون عليه المعلم ومبلغ حرج مركزه . يريد هربرت أن يكون المعلم فيلسوفاً حازماً عاقلاً مفكراً ، جامعاً كثير أمان صفات الأنبياء والمرسلين ، فقد كان يقول :

« ليست التربية صناعة كباقي الصناعات ، بل هي مهمه دينية ،

ورسالة مقدسة ، وإن الذين يأخذون على عاتقهم تربية بنى الإنسان ، لا بد أن يعترفوا - إن كانوا يعقلون قليلا - بعجزهم عن القيام بها على وجهها الأتم ، مهما تكن كفاءتهم فيها . وكان هربرت قد ألم في ذلك بمعنى الأثر المشهور « العناء ورثة الأبناء » .

ويظهر أن اليابانيين فطنوا إلى ذلك ، فجعلوا الأستاذية لقب شرف يعطى أعظم الرجال ؛ إن صح ماقرأته عن مكاتب الطان ، فقد قال هذا المكاتب : « ذهبت إلى مدينة توكيو لمحاضرة القائد الشهير (نودجى) بطل حصن (پور آرثر) ، فلم أجده بوزارة الحربية ، وقيل لى : إنه ذهب ليؤدى درسه اليوم فى إحدى المدارس الابتدائية ، فقلت : هل هو قائد أم مدرس ؟ فأجبت : أن جلالة (الميكادو) قد تفضل عليه فمنحه لقب مدرس فى المدارس الابتدائية عقب انتصاره الباهر على الروس .



إلى هنا أقف بكم الليلة ، فإنى إذا تتبعتم آراء هربرت لاستقصاء مذهبه الشاسع ، استغرق منى ذلك أكثر من مقال ، غير أنى - قبل أن أختم كلامى - لا بد لى من كلمة فى موضوع العلوم التى يريد هربرت تلقينها للنشء .



تقسيم العلوم في نظر هيربرت

يقسم هيربرت العلوم إلى كونية واجتماعية ، ثم يقسم الكونية إلى حسية وفكرية وجمالية ؛ فالنظر إلى النجوم مثلا ومراقبة حركاتها يندرج تحت العلم الحسي ، أما التفكير في هذه الحركات وربط الأسباب بالمسببات فيدخل تحت العلم الفكري .

أما العلم الجمالي فهو جولان الفكر بعد ذلك في جمال هذه الروابط وإحكامها وما أودعه الله سبحانه في المخلوقات ، وهذا ما عناه القرآن الشريف في الآية الكريمة « أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء » .

ويجعل هيربرت لهذا النوع الأخير نصيبا وافرا من الأهمية ، ويقول بتعويد الأطفال - من صغرم - مشاهدة الجمال بأنواعه (الجمال الطبيعي - جمال المصنوعات - جمال الأخلاق) ، لأن هذا النوع هو منبع اللذات النقية الخالية من كل شائبة ، والسعادة الحقيقية التي لا بد للإنسان منها في هذه الحياة ، فمن الناس من لا يرى في سنابل القمح الذهبية إلا ما يراه الفلاح البسيط من قرب نضجها ودنو حصادها ، وما أشبه ذلك من الأمور الملائمة له ، بينما يراها الشاعر ولا شيء ينبه فيه العواطف والوجدان ويحرك فيه الخيال مثل هذا المنظر الطبيعي الرائق ، يسرح فيه نظره الساعات الطوال دون أن يتطرق إليه الملل أو يتسرب نحوه الضجر .

وإن من أقرب الوسائل إلى تلقين النشء هذا العلم الجمالي ، أن

ينسج الأستاذة على منوال تلك السيدة الفاضلة والدة الكاتبة الشهيرة
(مدام جورج صاند) : قالت هذه الكاتبة :

« كانت والدتي تكشف لى الستار عن عالم الجمال بإشراكي معها فيما
تلمية المؤثرات الطبيعية على نفسها مما انطوت عليه من آيات الجمال؛ فمثلا
كانت إذا تجلى علينا بعض السحب الجميلة؛ أو بزغ ضياء الشمس ساطعاً
من شاهق الجبال، أو رأينا عيناً يتفجر منها الماء صافياً شفافاً، تناجيني
قائلة : انظري أى بنيتى ! ما أجمل هذا المنظر وما أبهاه ! فاهى إلا أيام
حتى بدأت أشعر من نفسى بجمال هاتيك المناظر التى لولا عناية الوالدة بلفت
نظري إليها ما ذقت لها طعماً ».

تلك هى طريقة هذه السيدة الفاضلة، وهى كما ترونها على جانب
من البساطة، ولا تكلف الأستاذة إلا أن يتأملوا قليلاً ما يقع تحت
حواسهم وينبهوا أفكار تلاميذهم إليه أوقات التنزه معهم.

لست فى حاجة إلى أن أذكر لكم وجوب التدرج مع التلاميذ
فى هذه الطريقة على نسبة أسنانهم ومقدار مداركهم؛ أريد بذلك أنه لا
ينبغي للأستاذ أن يحمل عقل الطفل الصغير عبء البحث فى جمال
الموجودات والمناظر، التى يحتاج إدراك جمالها إلى نظر عال وفكر واسع،
كأن يريه البحر العجاج وأمواجه تتلاطم، لأن هذا قد تضيق عنه دائرة
تصوره ويتزعج منه خاطره.

يحكى عن (بيير لوتى) الكاتب الفرنسى الشهير أنه قال :

« كنت إبان طفولتي إذا رأيت البحر هالتي منظره ، وارتعدت فرائصي أمام هذه الأمواج المتلاطمة » .
فالطفل لا يدرك بدء نشأته إلا جمال الأشياء الصغيرة التي تلائم سنه ،
كالأزهار في لطفها ورونقها ، وكم بعض الحيوانات الصغيرة التي أفاض عليها
الخالق سبحانه وتعالى من الجمال ما يسترعى الأبصار ويأخذ بالآلباب ،
مثل الفراش (أبودقيق) ، وبعض أنواع الجراد المزدانة بالألوان المبهجة
(فرس النبي) .

وقد علق (هربرت سبنسر) أهمية كبيرة على السير بمقتضى تلك
القاعدة في تربية النابتة حيث قال : « إن من لم يشتغل في صغره بجمع
أنواع النبات وصنوف الحشرات ، لا يمكنه أن يدرك في كبره ما تنطوى
عليه البساتين والحدائق من لآلىء الأشعار وخفايا الأسرار » .

قال ذلك عن خبرة وتجربة ، لأنه كان مولعاً في صغره بجمع النباتات
المختلفة والحشرات المتنوعة ، وفي الحقيقة إذا كانت الحكمة الجيدة
والقدوة الحسنة من القول والفعل تبعث في النفوس الميل إلى الفضائل والتحلي
بها ، فكذلك رؤية الجميل تربي في النفوس رقة الشعور وسلامه الذوق .
ولذلك قال عامساء التربية الحديثة : يجب بناء المدارس في
الحقول والمروج الخضراء حتى يتسنى للتلاميذ أن يجاوروا الطبيعة ،
فلا يقع نظرهم إلا على الجميل من الأشياء .

ومن أهم العوامل الموصلة إلى هذا الغرض : دراسة العلوم
الطبيعية بأنواعها ، وإعطاؤها وقتاً واسعاً من برامج الدراسة ، كما فعل

الأمريكيون في مدارسهم ، فإنهم فضلا عن إحلال هذه العلوم المحل اللائق بها ، لا تكاد تطلع على مجلة ييداجوجية من مجلاتهم ، إلا وترى بين مباحثها بحثاً - على الأقل - مختصاً بالنبات أو الحيوان ، موضحاً بالرسوم ومحلى بالنقوش .

ولقد غالى الأمريكيون في طرق تحبيب النبات والحيوان إلى التلاميذ فأضافوا إلى أيام المسامحات يومين أحدهما يوم عيد الأشجار والآخر يوم عيد الطيور ، ولا شك في أن الاحتفال بهذه الأشياء في كل سنة ، ينقش احترامها وحبها في نفوس النابتة .

ورب معترض يقول : أبلغت بساطة عقول الأمريكيين إلى حد أنهم يحتفلون رسمياً وسنوياً بالنبات والحيوان ؟ فرداً على هذا الاعتراض أقتطف العبارة الآتية لكاتب فرنسي كبير ، وردت ضمن حديث له على النبات ، قال :

« أليس من الفضيلة أيضاً أن نحب الأشجار التي نأخذ منها الأخشاب والثمار ، والتي تلطف الريح الهاجمة على قرانا ، وتوقف الرمال الزاحفة على سهولنا ، وتخفف من قوة اندفاع السيول نحو بيوتنا ؟ ! أليست هي التي تنقي الهواء الذي نستنشقه ، وتكسب الجو رطوبة لذيذة مقبولة ؟ أليست هي حلية الطرق وزينة الآفاق ؟ ألا إن من أحب الشجر فقد أحب الوطن »

وأنا أقول : « حيث حب الوطن من الإيمان كان حب الشجر من الإيمان أما العلم الاجتماعي فينقسم إلى ثلاثة أنواع أيضاً :

(١) إدراك واجبات الفرد نحو أخيه (٢) إدراك واجبات الفرد نحو الهيئة الاجتماعية (٣) إدراك واجبات الفرد نحو خالقه .

وهربرت يحتم تعليم هذه الأنواع الستة في كل مدرسة ، لافرق بين ابتدائية وعالية ، ويرمى بقصر الفكر كل من أهمل واحداً منها .

يقول « إن الرجل الذى يشغل بالعبادة فحسب حتى بلغ درجة الزهد ، يكون من أقسى الناس قلباً ، وما ذاك إلا لأنه أفرط في معرفة واجبه نحو ربه ، وفرط في معرفة واجبه نحو أخيه » .

ويقول هربرت « إنى أريد أن أكون عقولاً ترى من جميع نواحيها ، حتى يقل النفور بين الناس ، ويعيشوا أسرة واحدة أوجسماً واحداً إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء » .

وهربرت يخالف رأى (فشت) في الغرض من التربية: فبينما يقول (فشت) إن الغرض منها تكوين وطنى عارف بواجبات الوطن إذ بهربرت يقول: إنى أقصد منها إلى تكوين إنسان عارف بحقوق الإنسانية . وإذا كانت قيمة المفكر تقدر بعدد المؤلفات التى يكتبها عنه خصومه أو أنصاره ، فلا شك فى أن هربرت يصبح فى منزلة لاتدانيها منزلة ، لأن مجموع ما كتب عنه ما بين كتاب ورسالة يربى على الألفين عدداً .

قال بعض مترجمى كتبه إلى الانكليزية : يوجد اليوم نحو عشر مجلات قصرت أبحاثها على نشر مذهبه ، وكل الكتاب فى هذه المجالات من الفلاسفة وكبار علماء النفس وفن التربية ، وغاية أكثرهم تقريب

مذهبه إلى الأذهان ، وقليل منهم أولئك الذين يناقضونه ويصححون
مآسياه يكون قد وقع له من الخطأ .

وإذا كانت أفكار هربرت قد أدت إلى حركة عجيبة في الفلسفة العامة،
فقد كان أثرها في ميدان التربية جليلاً يرجي له الدوام والاستمرار .
وبالاجمال يقال إن هذا الفيلسوف أضحي في بلاد العالم بطل التربية
العصرية وإمام المربين .

ولم ينتشر مذهب هربرت في ألمانيا إلا بعد موته بثلاثين سنة ،
ولكن بمجرد أن وعوه وقدروه قدره ، عملوا على إذاعته ونشره بحيث
أصبحت المدارس السويسرية والألمانية التي يتبع معلموها خطته في التعليم
تعد بالآلاف ؛ وقد عقد في ألمانيا سنة ١٨٨١ مؤتمر للبحث في شؤون
التعليم الابتدائي فوضع نظار المدارس الابتدائية ، السؤال الآتي :
هل ينبغي أن تقوم التربية في مدارس المعلمين على طريقة هربرت ؟
فأجمع الكل على الجواب بالإيجاب .

وفي سنة ١٨٨٣ عقد مؤتمر آخر لنظار المدارس الثانوية دار البحث
فيه على الموضوع الآتي :

ما هو الحد الذي ينتهي إليه العمل بطريقة هربرت في المدارس
الثانوية ؟ فكان قرار المؤتمر الموافقة على طريقته في المدارس الثانوية أيضاً
دون تعديل فيها ولا استثناء شيء من آرائه .

أنتر نظام الكشافه في التربية والتعليم *

ألقى « السر روبرت بادن ياول » مؤسس فرق الكشافه في العالم ومديرها العام ، خطبة استرعت الأسماع ، واستهوت الأذهان ، أمام مؤتمر التربية الخلقية الدولي ، الذي عقد صيف العام الماضي بمدينة جنيف من أعمال سويسرا ، موضوعها « بناء صرح التربية على الرغبة بدل الرهبة » ، استهلها بقوله : إنه رأى في معبد شرقي إلهها ثلاثه رؤوس : الأول للحب ، والثاني للبغض ، والثالث للسلم ، فسأل عن أعرفها للناس وأكثرها عبادة ؟ فقبل له : إن معظم القرايين والنذر تقدم إلى إله البغض ، لا حباً فيه ، ولكن اتقاءً له وزلفى إليه ليدفع عنهم كيد الكائدين وحقد الحاقدين ، ثم قال : يظن الإنسان - لأول وهلة - أن هؤلاء الناس أغبياء سخاف العقول ، خضوعهم - إلى هذا الحد - لسلطان الخوف ، ولكنه إذا فكر قليلاً رأى أن الخوف يحتمكم سلطاناً في هذا العالم وتدير سطوته دولاب أعماله .

ألسنا للمحافظة على السلم نستعد للحرب خوفاً من هجوم العدو ؟
ألسنا نخطب ونعظ لنشر السلام في العالم خشية هول الحرب ومصائبها ؟
أليست حكومات العالم الراقية تعتمد إلى تمثيل جميع الطبقات فيها خوف إغضاب فئة خاصة وقيامها بتشريع خاص ؟ أليس مايسمونه نظاماً

* نشرت بمسحفة المعامين : السنة الأولى - العدد الأول - فبراير سنة ١٩٢٣
بعد عودة الأستاذ من مؤتمر التربية الخلقية الدولي المنعقد بجنيف عام ١٩٢٢
وقد كان مندوباً عن الحكومة المصرية فيه .

في الجيوش البرية والبحرية ، قائماً في الغالب على رهبة العقاب والخوف منه ؟ أليس التخويف سلاحاً في يد الأقوياء يرهبه به الضعفاء ويذلونهم ؟ أليست عبارات التهديد والتخويف لا تزال متداولة حتى اليوم لصيانة حقوق الأمم واحترامها ؟ أليس الخوف ديناً يدين به الكثيرون منا ، فلا يعبدون الله ولا يؤمنون به ، لأنه يحب لذاته ويعبد لوجهه ، بل لأنهم يخافون عقابه ، ويخشون عذابه ؟ ^(١) ألسنا نسلك كثير آسبل الخير والفضيلة ، وترك طرق الشر والرذيلة خوفاً من النتائج القانونية أو الوجدانية إذا ظهرت أغلاطنا ، واتضحت مساوينا ، لاحقاً في الخير وبغضاً للشر كما كان ينبغي ويلزم ؟ أليس الخوف من الفقر ، هو الدافع بالإنسان لأن يسعى ويعمل ليكسب المال ويحصل عليه ؟ ... أليس .. أليس ثم قال :

« إننا مادمناعلى هذه الحال ، ومادام الخوف لا الواجب مستحوذاً على نفوسنا في جميع الأعمال ، فلن نستطيع تغيير البيئة غير الصالحة التي نعيش فيها ، لأن الإنسان لا يستطيع تغيير حاله الاجتماعية ، إلا إذا غير أحواله النفسية وأطواره الخلقية »

وكأنى به يقول « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » . فإذا أردنا أن نمنع الحرب ، وجب أن نستأصل سببها ، وليس لها من سبب سوى الخوف الكامن في القلوب ، أما نزع السلاح وحذف الجيوش

(١) يقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، يصف تقوى صهيب وورعه : « نعم

العبد صهيب ، لو لم يخف الله لم يعصه »

فلا يجدى في ذلك شيئاً ، لأنه يغلب أن يكون نتيجة لها لأسبباً ، كما أن حذف رجال الشرطة لا يمنع ارتكاب الجرائم .

ولما كان المعلم وحده هو القابض على قلوب النشء ، المتسلط على نفوسهم ، فإنه - لا غيره - هو الذى يستطيع أن يستأصل منها بذور الطمع وغرائز الشر والتعدى على الضعيف ، كما يولد الألفة والمحبة بين أفراد الأمم المختلفة والشعوب المتباينة ، فيتضافرون ويتضامنون على مافيه خيرهم وفلاحهم ، وبذلك يتحسن مستقبل الانسانية ويسير الناس جنباً لجنب تحت راية الوفاق والوئام .

نعم إن الحروب - على ما جرت على الانسانية من عذاب وشقاء ، وقادت إلى خراب وفقر وأمراض - قد أحييت فى النفوس البشرية صفات الرجولة الصحيحة ، كالنخوة والبرورة والتجمل والنظام والشجاعة والبطولة واحتقار الملاذ وتضحية النفس ؛ وتلك صفات ماسرت فى أفراد أمة إلا رفعتها إلى عنان السماء ، ولا تجردت منها أمة إلا رشحت نفسها للفناء ، فكأن حقاً على الأمم التى تطمع فى الحياة السعيدة ، أن تحتفظ بتلك الصفات الأديبة الجليلة ، التى لا تكسب إلا من طريق التربية العسكرية .

ولكن كم تكون تلك الصفات أسمى وأكمل إذا بنيت على أساس الحب والرغبة ، لا الخوف والرهبنة . ومن ذا الذى يسوى بين نظامين ، ضرب أحدهما على الناس قسراً وقهراً ، وقام الآخر على خالص الحرية ومحض الاختيار ؟ ثم قال :

كان طبيعياً بعد هذا كله أن يكون نظام فرق الكشفة القائم على محض الحب والرغبة لألفى ألف من الشباب : بنين وبنات من شتى البلدان ومختلف الأديان ، هو النظام الذى يكفل بقاء تلك الصفات الحريية ، وتنميتها فى قلوب المعتصمين به ، موجهة إلى خير الأمم وإسعادها لا إلى إشقتها وتعذيبها ، إلى أن قال فى الختام :

ألا يمكننا أن نحل هذا النظام البديع المحبوب محل هذه النظم المروعة العنيفة فى كل ما نزاول من الأعمال ؟ !

تلك هى أقواله ، وإنى لأرى قبل مغادرتها إلى أصل الموضوع ، أن ألفت نظر حضرات القراء إلى كلمة رأيها منقوشة على قاعدة تمثال المفكر السويسرى « الكسندر فينى » بلوزان فى الصيف الماضى ، لم أجد أبلغ منها ولا أحكم فى التعبير عن كل ما تقدم من تفصيل ، وهى :

« يجب أن يكون الإنسان حراً مختاراً ليستطيع أن يقدم للإنسانية خدمة تذكر فتشكر »

فإذا كان (السر بادن پاول) يرى أن إحلال الحب محل الخوف فى جميع الأعمال أمر واجب لازم ، كان فى التربية والتعليم بنوع خاص واجب وألزم ، إذ أن الحب من أسمى الميول وأنبل العواطف التى أودعها الله سبحانه وتعالى قلب الطفل ، ومن آثارها نقوره من هذا وتعلقه بذلك ، وإلفه درس الأستاذ الذى يحبه إلفاً هو أساس انتفاعه بعلمه وزيادة الرغبة فيه .

لقد أنحى المربي الإنجليزي الشهير «توماس أرنولد» من نحو ثمانين عاماً باللائمة الشديدة على هؤلاء المربين المستبدين الذين يرهقون التلاميذ، ويريدون أن يقبضوا عليهم بيد من حديد؛ لأن ذلك - علاوة على أنه ينفرهم من المعلمين ويذهبهم في العلم - يضرب عليهم الذلة والمسكنة، وما كانت التربية الصحيحة لتخرج عبيداً ضعافاً أذلاء، بل سادة أحراراً كبار النفوس، يتمتعون بالرأى والحرية التامة في كل ما يعرض عليهم من الأعمال.

فلندع الأطفال ينفردوا بأنفسهم. ويختلوا بما حولهم، ولنمنحهم نصيباً صالحاً من الأعمال المدرسية الإدارية، ولنمكنهم بقدر ما من الحكم فيما بينهم ليتعرفوا معنى السلطة، وليذوقوا طعم الإمارة، وليشعروا من بدء نشاطهم بالتبعية التي هي دائماً قرينة الرئاسة ولازمة لها. إن قانون تقسيم العمل، وتنوع الأعمال وتشعبها، واتساع دوائر الاختصاص فيها في الأزمنة الحديثة، أصبح يتطلب عدداً عظيماً من الرؤساء المهذبن المدربين؛ وأنى لنا ذلك التهذيب وهذا التدريب إذا لم تكن المدرسة بائراً في كثير من أعمالها المختلفة ليدرجوا على واجبات الرئاسة، ويمرنوا أساليبها من حداثة أسنانهم.

ألقى المسيو برتبيه ناظر إحدى مدارس مدينة ستراسبورج خطبة شائعة أمام المؤتمر هذا العام، موضوعها: «كيفية إعداد الرؤساء»، بدأها بتعريف الرئيس فقال:

«الرئيس رجل يدير شئون غيره ، ويملك قيادهم ، لأنه تعلم كيف يدير شئون نفسه ويملك قيادها» .

Le chef est un homme qui dirige et domine parce qu'il sait se diriger lui-même et se dominer

ومن جليل مقال : « إنه لا شيء يسمو بالأطفال إلى مستوى الأخلاق العالية ، وينقلهم بسرعة عجيبة من طور نزق الشباب إلى طور رصانة الشيخوخة ، مثل الثقة بهم وتشريفهم بشيء من المسؤولية بين أقرانهم » ، إلى أن قال :

« ولقد خطت مدرستي في هذه السبيل خطوات واسعة ، جعلتني في غنى عن الضباط والملاحظين ، إذ عهدت بأمر النظام والنظافة والترتيب وغيرها إلى لجنة من كبار التلاميذ وعقلائهم ، وقد قاموا بها تحت إشرافي خير قيام » . اهـ

وإن في انتشار هذا النوع الجديد من المدارس في أمريكا وإنجلترا وفرنسا ، لبرهاناً ساطعاً على ما له من المزايا الجمّة والفوائد الجليلة . ولقد قرأت منسنيين أن لورداً انجليزياً غنياً ، أراد أن ينشئ مدرسة من غير معامين ، فأعد لها المكان وجعلها بالأثاث والأدوات ، ثم أغلق على التلاميذ الباب وتركهم وشأنهم لينظموا أمورهم ، ويتعلموا من تلقاء أنفسهم بالمخالطة والمراس . غير أن تلك المدرسة قد فشلت ، ولم يك بالغريب فشلها . فكل ما زاد على حده انقلب إلى ضده ، إذ لا غنى للمتعلّم عن المعلم ، والمسترشد عن المرشد ، وإنما ضربتها مثلاً . وإن لم تنجح لما تدل عليه من إغراق هؤلاء في ضرورة إطلاق الحرية للمتعلمين ، والثقة بهم إلى حد بعيد .

مؤتمر التربية الخافية

مؤتمر التربية الخلقية*

قد رأيت أن آتى بعد ما تقدم على وصف هذا المؤتمر ليقف منه القراء على أهم ما دار من البحوث العلمية بين أعظم العلماء وكبار المربين في موضوع ذى بال هو موضوع «التربية الخلقية في الأمم» .

وقد ظهر اليوم للباحثين في أمرها أن المربين على عظيم أقدارهم وحسن نياتهم - ساروا في طريق تلقينها النشء على غير الجادة ، فجاءت نتائج جهودهم على غير ما كانوا يتوخَّون ، إذ التربية الخلقية موجهة أولاً وبالذات إلى غرس بذور الألفة والمحبة بين جميع الأمم والشعوب ، ليتعارفوا ويتعاونوا على ما فيه خيرهم وفلاحهم ؛ ولكنهم لم يروا لتعاليمهم إلى اليوم - من نتيجة سوى تزايد البغضاء والشحناء بين الأفراد والأمم ، حتى لقد أصبح الناس في كل مكان يتقاتلون ويتناحرون لأوهي الأسباب وأيسر العلل .

فكان الغرض الذى يرمى إليه هذا المؤتمر إصلاح حال التربية الخلقية في الأمم بإصلاح حال التعليم فيها ، ولا سيما علم التاريخ الذى هو من أهم المواد التى تبصِّرُ الناشئ بحال بلاده ، وتخلق فيه روح الوطنية الصحيحة ، بما تعرضه عليه من المثل الخالدة والصور الحميدة ، صور أسلافه وأجداده وبني وطنه ، الذين كانت لهم يد فى بناء المملكة التى يتنسم هواءها ، ويشرب ماءها ، ويمرح فى خيرها .

* نشرت بصحيفة المعلمين - العدد الثانى من السنة الأولى - ٢ أبريل سنة ١٩٢٣ ، وهى متممة للمقالة السابقة .

غير أن المربين لم يهتدوا إلى سواء السبيل في طريقة تدريس هذا العلم وتلقيه النشء ، إذ قصرُوا جلَّ مهمهم على تدريس تاريخ بلادهم الخالص دون التاريخ العام ، وحتى في هذا لم يعنوا إلا بشرح الاختلافات السياسية والحروب الدموية التي نشبت بين أممهم والأمم الأخرى ، مما غرس في نفوس النشء البغضاء والكراهية لتلك الأمم ؛ كل هذا والمربون يظنون - عن حسن قصد - أن هذه هي الطريقة المثلى لا يقاط الشهور الوطني وحب الوطن في نفوس تلاميذهم ، ولكنها - وهذا مما يؤسف له - أوصلت إلى نتيجة محزنة سيئة ولدت عقلية غريبة في الأمم ، كان من أثرها أن رسخ في أذهان الشبان في كل بلد ، أن الاختلافات السياسية والغارات الدموية من ضرورات الحياة ومستلزماتها ، وأن وطنهم لا يمكنه أن يعيش ويرقى إلا بتعارضه مع الأمم الأخرى ومحاربتها .

من هذا نشأت الكارثة العظمى الأخيرة التي كادت تقضى على المدنية والحضارة ، مع أن في دراسة علم التاريخ عبراً وأعظاظ أسمى وأرق من تلك الاختلافات والمشاحنات ، وهي الجهود العظيمة التي تبذلها الإنسانية في سبيل الرقي العلمي والخلق والاجتماعي والسياسي ، فبدل أن يعد الناس بعضهم لبعض من الأسلحة : الحديد والنار والغازات الخانقة ، كان الأليق بكرامتهم أن يعدوا أسلحة الفكر النبيلة ، وهي التضامن النافع والمزاحمة السامية الشريفة خير الأمم والإنسانية .

لم يعد بعد غريباً أن يفكر المربون في التنكُّب عن هذه الطريقة

العقيمة والبحث وراء أنجع الطرق لتدريس علم التاريخ وتلقينه بكيفية
تغرس في قلوب الشبان المحبة والمودة بدل البغضاء والكراهية .

فتح المؤتمر جلسته الأولى يوم ٢٧ اغسطس ١٩٢٢ فى مدرج
الجامعة بمدينة جنيف ، وكان عدد الحاضرين يربى على خمسمائة عضو
يتقدمهم المندوبون الرسميون للحكومات الراقية ، وقد وضعت هذه
الجلسة تحت رئاسة مدير المعارف السويسرية « مسيو جول موسار »
الذى أعلن افتتاح المؤتمر بكلمة لطيفة ، استهلها بشرح الفوائد الجمّة
والمزايا الجليلة التى تعود على الإنسانية من تقوية أواصر التضامن
وتوثيق عرى التعاون بين علماء الأمم المتحضرة ، وهنأ أعضاء لجنة
المؤتمر التنفيذية إذ وضعت فى رأس برنامجها تعليم التاريخ ، وأبان مزاياه
العظيمة للأمم ، ومن جليل ما قال :

« إن فى قدرة علم التاريخ ، أن يقوم عقل أمة بأسرها أو يشوّهه
تبعاً لطريقة تدريسه وتلقينه .

« وإبنى مع احترامى عقيدة حب الوطن ، وإحلالى إياه المحل الأرفع فى
التربية ، أرى أنه يجب أن مجرد من الغلو والهوس ، وأن عاطفة الوطنية
التي يجب أن تتغلغل فى كل نفس ، وتنقش على صفحات كل قلب ،
ينبغى أن تتمم وتتوج بعاطفة احترام الأوطان الأخرى ، لينتشر السلام
ويسود الوئام بين الناس فى كل مكان » اهـ .

ثم خلفه (السر فرديك بلوك) رئيس اللجنة التنفيذية للمؤتمر ،
وخلص ما قامت به تلك اللجنة من الأعمال فى المؤتمرات السابقة ثم قال :

« إنى متفائل خيراً بالمستقبل، وإنى آمل أن الإنسانية التى نجحت فى تقييد الرق أولاً وإغائه ثانياً، تسلك هذا المسلك بعينه فى أمر الحرب، فتقيدها أولاً، ثم تتخلص من ظلمها الثقيل وشبهها الخفيف ثانياً »، وجلس بين التصفيق والتهليل، ثم قام بعدها المربى الألمانى فورستر، وكان موضوع خطبته « قيمة التاريخ وأثره فى التربية الخلقية والاجتماعية ».

بدأ يعرف عاطفة الوطنية بأنها رابطة روحية أدبية، يجب أن تبنى على أساس التسامح والتساهل بين الناس، ثم قال :

« إننا بدعوتنا إلى التضامن الدولى العام، لا نرمى إلى محو فكرة الوطن والوطنية، بل نريد أن نقيم الدليل على أن عواطف الوطنية فى الأمم المختلفة ليست بالأصول المتعاكسة والمبادئ المتباينة المتشاكسة، وإنما يكمل بعضها البعض .

« إن لكل فرد ولكل شعب أن يبقى صحيحاً قوياً كما هو، وأن يبذل قصاره فى المحافظة على شخصيته وقوميته ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ولكن عليه فى الوقت نفسه أن يبذل ما فى وسعه لفهم عاطفة الوطنية فى الأمم الأخرى؛ فعليه - كما يقول بالحرف - أن يدخل فى نفسه، ويخرج عنها فى آن واحد، فى ذلك رياضة نفسانية مزدوجة لكل عقل مستنير يدرك معنى الإنسانية حق إدراكها .

« إن التربية الوطنية القومية، والتربية العالمية الاجتماعية إذا

امتزجتا واتحدتا حدثت من مزيجهما أخلاق وآداب اجتماعية تقف سداً منيعاً في طريق المطامع الشخصية الأشعبية ، وتصد الأنانية القومية عن أن تطأ بقدميها حقوق الأمم الأخرى .

« وإن في استطاعة علم التاريخ - إذا درس كما يجب أن يدرس - أن يؤثر تأثيراً اذبال في قلوب الناشئين من هذه الوجهة ، فهو الوقاية الوحيدة التي تقيهم شر تلك الجرائم المعنوية المتصاعدة بلا انقطاع ، من تمثيل الكذب والقوة الغشوم على مسرح التاريخ العام .

« ألا إن المربي الحقيقي هو الذي يفهم تلاميذه أن الغايات لا تبرر الوسائل ، وأن الوسائل - في أغلب الأحيان - أهم كثيراً من المقاصد ، إذ هي نسيج أفكارنا وأعمالنا ، وهو الذي يعلمهم أن الغايات الرفيعة الشريفة يجب ألا تنال أبداً بالوسائل المنحطة الدنيئة .

« ولا شيء ينفذ إلى قلوب النشء ، وينمى فيهم الأخلاق العالية ، والفضائل السامية ، مثل أن يعدل المربي في حكمه على حوادث بلاده وتاريخ كبار رجال أمته ، وأن يجهر بالحقائق محصنة مجردة من شوائب الهوى وأدناس الغرض ؛ فبذلك وحده تنبت بذور الأنظمة الدولية وتنمو جذورها في حياة الأمم وأفكارها ، وبذلك - لا بغيره - نستطيع أن نخرج سالمين من مأزق السياسة الحقاء الحالية ، ونبرأ من داء الانحلال الذي سرى في عروق أوروبا الآن » اهـ

تلك هي أبلغ الأقوال وأحكم الآراء التي فاه بها كبار العلماء والمربين في جلسات المؤتمر الكلية .





الأستاذ « العمروسي بك » يصفح الأستاذ « الاسلامبولي »
شاكراً له حسن عنايته بهذا الكتاب

كلمة شكر

ولدى البار وصديقى المفضل الأستاذ عبد العزيز الإسلامبولى
تحية وسلاماً وبعد، فإننى أشكركم من صميم فؤادى على الفكرة القيمة
التي دعيتكم إلى جمع محاضراتى ورسائلى عن التربية والتعليم فى سفر
واحد ضم أطرافها وجمع شتيتها.

ومما انشرح له صدرى وامتلاّت به نفسى غبطة وسروراً، أن تلك
المجموعة التي كان لك فضل نظمها فى عقد واحد، هى خير معبر عما بينى وبين
التربية والتعليم من صلة، وأصدق صورة لما استقر بنفسي - تلك المدة الطويلة
التي قضيتها عاملاً فى هذه المهنة النبيلة - عن فلسفة التربية وآراء كبار المربين.
كما أنها من ناحية أخرى دليل حسى على أن فى مكنة القدامى بهذه
المهنة - وإن كانت شاقة تستنفد الجهد وتبلغ مدى الصبر - أن يرفهوا عن
أنفسهم بالخروج عن دائرة عملهم اليومى إلى ميادين الأفكار الحديثة
والآراء الجديدة خروجاً ينهض بهم ويرقى من عملهم، ويجعل المجتمع
لا يزال يتلقى على أيديهم ما يشد أزره ويسير به إلى الأمام قدماً، فما
هذه المحاضرات وما تلك الرسائل التي حفزكم نهوضكم إلى نشرها اليوم فى
هذه الصورة الطالية الشائقة، إلا ثمرة من ثمرات استغلالى أوقات فراغى.
لهذا تجدنى أيها الصديق العزيز عاجزاً عن إيفائكم ما تستحقون
من شكر، أركن فى تصويره إلى هذه الصورة الشمسية الناطقة، فهى خير
معبر عما أكنه لكم من تقدير، وأحفظه لكم من جيل، والسلام

أحمد فهمى العمروسى
القاهرة فى ٤ صفر سنة ١٣٥٢ هـ
٢٨ مايو سنة ١٩٣٣ م

المعروف باسم: [REDACTED]
في التربية والتعليم
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01022175

American University of Beirut



General Library

